

النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى
والوحيدة باللغة العربية



اغاثا كريستي

www.lilas.com



Chasey

لقاء في بغداد



الجدید
للترجمة والنشر
AJRSL Publishers

لقاء في بغداد

Agatha Christie



They Came to Baghdad

بغداد هي الموقع الذي وقع عليه الاختيار لعقد اجتماع سري يضم قادة الدول العظمى بعد الحرب العالمية الثانية، غير أن هذه المعلومة تسربت -لسوء الحظ- فوصلت إلى منظمة سرية تسعى إلى إفشال هذه القمة.

تجد فكتوريا جوتز نفسها في وسط هذه الأجواء المتوترة. إنها فتاة جريئة تحب المغامرة، ولكنها تحصل على قدر من المغامرة يفوق كل توقعاتها حين يلفظ عميل سري جريح أنفاسه الأخيرة في غرفتها بالفندق!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبِع منها ألفي مليون نسخة!



WWW.LIILAS.COM

الناشر: صاحب الحق الحضري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال
للترجمة والنشر
ALJAL Publishers

Chassey

الفصل الأول

خرج الكابتن كروسي من المصرف بفرح امرئ صرف شيكاً واكتشف أن لديه في حسابه مبلغاً أكبر قليلاً مما كان يظن.

وغالباً ما يبدو الكابتن كروسي مسروراً بنفسه، فقد كان من ذلك النوع من الرجال. أما بالنسبة لجسمه فقد كان قصيراً قوي البنية، ذا وجه أحمر قليلاً وشارب عسكري متصبب الشعيرات. كان يخشال قليلاً في سيره عندما يمشي، وربما كان في ملابسه شيء قليل جداً من الزينة والألوان النافرة، وكان مغرمًا بالقصص الممتعة، ويحظى بشعبية بين الرجال الآخرين. رجل مرح، عادي ولكنه لطيف، وغير متزوج. ليس فيه ما يبهز أو يثير الانبهار، وهناك في الشرق أكوام من أمثاله.

كان الشارع الذي خرج إليه الكابتن كروسي يسمى شارع البنوك، لسبب وجيه جداً هو أن معظم مصارف المدينة توجد فيه. كان الجو داخل المصرف بارداً مظلماً فيه شيء من رائحة الهواء الراكد، والصوت المسيطر فيه هو صوت العدد الهائل من الطابعات التي تطلق في خلفية المشهد.

أما في شارع البنوك في الخارج فقد كان الجو مشمساً تملؤه زوايا الغبار، ويغطي فيه الضميج الرهيب المتنوع. فقد كان هناك الزعيق المستمر لأبواق السيارات، وصيحات الباعة من كل جنس ولون. وثمة مشاجرات صغيرة بين مجموعات قليلة ممن يُخيل للمرء أنهم مستعدون لقتل بعضهم بعضاً، ولكن سرعان ما تراهم أصدقاء في الواقع. رجال وفتيان وأطفال كانوا يبيعون كل شيء؛ من الأشجار إلى الحلويات والبرتقال والموز ومناشف الحمام والأمشاط والشفرات، وغير هذا من البضائع التي تُحمل بسرعة في الشوارع على الصواني. وفوق كل ذلك كان يُسمع صوت العويل الرفيع الكئيب لرجال يقودون الحمير والخيول بين مجرى السيارات.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً في مدينة بغداد.

أوقف الكابتن كروسي صبيّاً يركض بسرعة حاملاً ملء يده من الصحف واشترى واحدة منها، ثم انعطفت عند زاوية شارع البنوك وخرج إلى شارع الرشيد، وهو الشارع الرئيس في بغداد ويمتد نحواً من أربعة أميال متوازيّاً مع نهر دجلة.

ألقي الكابتن كروسي نظرة سريعة على عناوين الصحيفة، ثم دسها تحت إبطه ومشى نحواً من متري متر، ثم انعطفت ليدخل زقاقاً صغيراً قاده إلى خان ضخم، وعند النهاية البعيدة للخان فتح باباً عليه لوحة نحاسية ليجد نفسه في مكتب هناك.

ترك موظف عراقي شاب مرتب الشكل آتاه الطابعة وتقدم منه بابتسامة ترحيب قائلاً: صباح الخير يا كابتن كروسي. بماذا يمكنني أن أخدمك؟

- هل السيد داكين موجود؟ حسناً، سأصعد إليه.

عبر أحد الأبواب، ثم صعد درجاً ذا انحدار حاد جداً، ثم قطع ممراً، وعند نهايته قرع باباً فجاءه صوت يقول: ادخل.

كانت الغرفة عالية السقف شبه فارغة، وكانت فيها مدفأة نفطية عليها إناء ماء، بالإضافة إلى مقعد طويل أمامه طاولة قهوة صغيرة ومكتب ضخم يال إلى حد ما. كان المصباح الكهربائي مضاء. وقد تم استبعاد ضوء النهار بحرص. وخلف المكتب البالي جلس رجل ذو وجه متعب ينفضه الحزم... وجه امرئ لم يفلح في هذه الحياة وهو يعرف ذلك ولم يعد يهتم له.

تبادل الرجلان النظرات؛ كروسي المرح الوانق بنفسه، وداكين الكئيب المرهق، وأخيراً قال داكين: مرحباً يا كروسي. هل عدت لتوك من كركوك؟

أوماً الآخر برأسه بالإيجاب، ثم أغلق الباب خلفه بحذر. كان الباب يبدو يالياً بدوره، لم يُحسن طلاؤه، ولكن به صفة واحدة غير متوقعة، وهي أنه محكم الإغلاق دون فتحات أو شقوق أو فراغ في أسفله... كان -في الحقيقة- باباً كائناً للصوص.

ومع إغلاق الباب تغيرت قليلاً شخصية كل من الرجلين؛ فقد أصبح الكابتن كروسي أقل جرأة وثقة، فيما ارتخى كنف داكين أكثر من ذي قبل وأصبح سلوكه أقل ترددًا. ولو قُدِّر لأحد أن يكون في الغرفة مستمعاً لحديثهما لهدش وهو يكتشف أن داكين هو الذي كان في موقع السلطة.

سأل كروسبي: هل توجد أية أخبار يا سيدي؟

قال داكين: "نعم"، ثم تنهد. كانت أمامه ورقة كان -لنؤ- منشغلاً في فك رموزها. وقام بتفطيق حرفين آخرين ثم قال: سيتم انعقاده في بغداد.

ثم أشعل عود ثقاب وأشعل الورقة وراقبها وهي تحترق. وعندما أصبحت رماداً نفع برقي فطار الرماد وتبعثر، ثم قال: نعم، لقد استقر رأيهم على بغداد، في العشرين من الشهر القادم. وعلينا أن "نحافظ على السرية التامة".

قال كروسبي بهدوء: لقد كانوا يتحدثون عن الأمر في السوق... ولثلاثة أيام.

ابتسم الرجل الطويل ابتسامته السيئة وقال: سري للغاية! لا يوجد شيء سري للغاية في الشرق، أليس كذلك يا كروسبي؟

- بلى يا سيدي. ولو أردت رأيي لقلت إنها لا توجد أسرار في أي مكان. كثيراً ما لاحظت خلال الحرب أن حلاقاً في لندن يعرف أكثر من القائد العام.

- ولكن الأمر لا يهم كثيراً في هذه الحالة، فإن تم ترتيب الاجتماع ليكون في بغداد فسرعان ما سيصبح الأمر معروفاً بالضرورة، وعندها تبدأ المتعة... أعني متعتنا الخاصة.

سأل كروسبي بارتياح: أتظن أن هذا الاجتماع يمكن أن يتم أساساً يا سيدي؟ هل يتوي العم جو القدوم حقاً؟

بهذا القدر من قلة الاحترام كان كروسبي يشير إلى رئيس قوة أوروبية عظيمة! ورد داكين وهو يتأمل: أظنه يتوي الحضور هذه المرة يا كروسبي. نعم، أظن ذلك. وإذا ما نجح الاجتماع... (أعني إن نجح دون عوائق)... فعندها يمكن أن يعني ذلك إنقاذ كل شيء.. لو أمكن فقط الوصول إلى تفاهم ما..

ثم توقف. ولكن كان كروسبي ما يزال يبدو مشتتاً قليلاً، فقد قال: وهل... اعذرني يا سيدي، هل الوصول إلى تفاهم من أي نوع مسألة ممكنة؟

- بالمعنى الذي تقصده أنت -يا كروسبي- قد لا تكون مسألة ممكنة. إن كان الأمر مجرد جمع رجلين يمثلان مذهبين فكريين مختلفين جداً فربما انتهى الأمر كله كما ينتهي عادة... بزيادة في الشكوك وسوء الفهم. ولكن لدينا الآن العنصر الثالث. إن كانت قصة كارمايكل الخيالية تلك صحيحة...

ثم سكت فقال زميله: ولكن من المؤكد أنها لا يمكن أن تكون صحيحة يا سيدي؟ فهي شديدة الخيالية!

بقي الآخر صامتاً بضغ دقات. كان يتخيل -بكل وضوح- وجهاً جدياً قليلاً، ويسمع صوتاً هادئاً يصعب تصنيفه وهو يقول أشياء خيالية لا تُصدق. كان يقول لنفسه كما قال وقتها: "أما أن يكون أفضل رجالي وأكثرهم مصداقية قد فقد عقله، أو أن يكون هذا الأمر صحيحاً!".

قال بنفس صوته الرفيع الكتيب: إن كارمايكل يؤمن بأن الأمر صحيح. كل ما استطاع العثور عليه أكد فرضيته، وقد أراد الذهاب إلى هناك ليكشف المزيد... ليحصل على دليل. لا أدري إن كنت قد

تبين فيما بعد أنه سائق شاحنة أرمني. لاحظت أنهم جميعاً متقاربون في الصفات العامة: الطول والوزن والشعر والبشرة... كلها قريبة من صفات كارمايكل. إنهم لا يريدون أي مجازفات. لقد خرجوا للقضاء عليه، وبمجرد أن يصبح في العراق سيكون الخطر عليه أشد أيضاً. يستاني في السفارة، خادم في القنصلية... موظف في المطار... في الجمارك... في محطات القطار... كل الفنادق مراقبة... طوق أمني مضروب بكل إحكام.

رفع كروسي حاجبيه وقال: أنظن أن أمرهم اتسع إلى هذا الحد يا سيدي؟

- ليس عندي أي شك في ذلك. حتى في معسكرنا توجد محطات تسرب المعلومات، وهذا أسوأ ما في الأمر. كيف لي أن أتأكد من أن الإجراءات التي نتبعها من أجل إيصال كارمايكل سالماً إلى بغداد ليست معروفة أصلاً من قبل الجانب الآخر؟ إن إحدى القواعد الأساسية لهذه اللعبة - كما تعلم - هي أن تشتري كل جهة شخصاً محسوباً على الجهة الأخرى وتدفع له المال.

- هل يوجد أحد... تشبه فيه؟

هز ذاكين رأسه ببطء نافي، فتهند كروسي وقال: وهل تواصل عملنا في هذه الأثناء؟

- نعم.

- ماذا عن كروفتن لي؟

- تمت الموافقة على حضوره إلى بغداد.

تصرفت بحكمة أو غير ذلك عندما تركته يذهب. فإذا لم يعد، فلن يوجد ما يمكن الاستناد عليه إلا روايتي أنا عما قاله لي كارمايكل، وهي - بدورها - قصة قالها أحدهم له، هل يكفي هذا؟ لا أظن ذلك. إنها - كما قلت - قصة خيالية جداً، ولكن إن جاء الرجل نفسه إلى هنا، إلى بغداد، في العشرين من الشهر القادم... ليحكى قصته الخاصة، قصة شاهد عيان، ولكي يقدم دليلاً...

قال كروسي بحدة: دليلاً؟!

أوماً الآخر برأسه وقال: نعم، لديه دليل.

كيف عرفت؟

- الصيغة المتفق عليها. جاءت الرسالة من صلاح حسن.

ثم انقطف من الرسالة يحذر ما يلي: اجعل أبيض محملاً بالشوفان سيأتي عبر الممر الجبلي. وتوقف قليلاً ثم مضى قائلاً: وهكذا فقد حصل كارمايكل على ما ذهب من أجله، ولكنه لم ينتج دون أن تحيط به الشكوك. إنهم يسعون في أعقابهم، وأي طريق يسلكه سيكون مراقباً، والأخطر من ذلك بكثير أنهم سيكونون بانتظاره... هنا، في البداية على الحدود، وإن نجح في عبور الحدود فسوف يُضرب طوق حول السفارات والقنصليات. انظر إلى هذه.

بحث بين أوراقه، ثم أخرج ورقة وقرأ بصوت عالٍ: إنكليزي مسافر بسيارته من إيران إلى العراق أطلقته عليه النار فقتل، ويُفترض أن ذلك من عمل قطاع الطرق... تاجر كردي نزل من الجبال مسافراً جنوباً نُصب له كمين وُقِّل... كردي آخر اسمه عبد الحسن يُشتبه بأنه مهرب دخان فنتله الشرطة... العثور في طريق راوندوز على جثة رجل

- الجميع قادمون إلى بغداد. حتى العم جو قادم كما نقول
يا سيدي، ولكن إن حدث أي شيء للرئيس أثناء وجوده هنا فستشعل
حرائق الانتقام.

- ينبغي أن لا يحدث شيء. هذا هو دورنا... أن نمنع حدوث
أي شيء.

عندما ذهب كروسيبي اتحنى داكين فوق مكتبه، وتمتم بين
أسنانه: لقد جاؤوا إلى بغداد...

وعلى رزمة ورق المسودات أمامه رسم دائرة وكتب تحتها:
«بغداد»، ثم أخذ يتقط تحتها ليرسم جملًا، وطائرة، وباحرة،
وقطاراً صغيراً ينفخ دخانه.. وكل ذلك ينتجه نحو الدائرة. ثم رسم
في زاوية الورقة شبكة عنكبوت، وفي وسط شبكة العنكبوت كتب
اسماً: «آنا شيل»، وتحت ذلك وضع علامة استفهام كبرى.

بعد ذلك أخذ قبعته وغادر المكتب. وفيما هو يمشي في شارع
الرشيد سأل رجلٌ ما صاحبه: مَنْ هو هذا الرجل؟

- ذاك؟ آه، إنه داكين. إنه يعمل في إحدى شركات النفط،
وهو رجل لطيف ولكنه لم ينجح أبداً، فهو خامل جداً، ويقولون إنه
يشرب الخمر. لن ينجح أبداً. لا بد أن نكون متحمساً طموحاً حتى
تنجح في هذه المنطقة من العالم.

- هل حصلت على التقارير الخاصة بعقارات كروغنهورف
يا آنسة شيل؟

- نعم يا سيد مورغانثال.

وضعت الآنسة شيل الهادئة القديرة الورقة أمام رئيسها. مهمم
وهو يقرأ ثم قال: هذا مقنع كما أظن.

- أظنه كذلك بالتأكيد يا سيد مورغانثال.

- هل سوارتز هنا؟

- إنه ينتظر في المكتب الخارجي.

- أرسله لي على الفور.

ضغطت الآنسة شيل على جرس... كان واحداً من ستة
أجراس، ثم قالت: هل ستحتاجني يا سيد مورغانثال؟

- لا، لا أظن ذلك يا آنسة شيل.

اتسلت آنا شيل من الغرفة بهدوء. كانت شقراء ذات شعر
بلاطيني، ولكنها لم تكن شقراء ساحرة الجمال. كان شعرها الكثاني
الباهت مُسرحاً بهاشرة من جبينها إلى الخلف ليجتمع في لفافة مرتبة
عند عنقها، وكانت عينها الزرقاوان الفاتحان الذكيان تنظران إلى
العالم من خلف نظارة سمكة، أما وجهها فكان ذا قسماة دقيقة
متناسقة، ولكنه يفتقر لأي تعبير. لم تعتمد في شق طريقها في هذا
العالم على فتنتها، بل على كفاءتها المجردة؛ فبمقدورها أن تحفظ
غيباً أي شيء مهما كان معقداً، وتستذكر الأسماء والنوايخ دون

العودة إلى دفتر ملاحظات، وكان يوسعها لتنظيم ممالك مكتب كبير بطريقة تجعله يعمل كآلة أحسن ترتيبها، وهي رمز للتكتم والمحافظة على الأسرار. ورغم أن طاقتها كانت منظمة منضبطة، إلا أنها طاقة لم تنفّر أبداً.

وقد كان أوتو مورغانثال، رئيس شركة مورغانثال ويراون وشبيرك (وهي شركة صرافة عالمية)، يدرك تماماً أن ما يدين به لأنا شيل كان أكبر مما يستطيع المال تسديده. فقد وثق بها كل الثقة، وكانت ذاكرتها، وخبرتها، وأحكامها، وعقلها البارد المتزن... كل ذلك كان لا يُقدَّر بثمن. وقد دفع لها راتباً ضخماً، وكان من شأنه أن يزيده ضخامة لو طلب ذلك.

ولم تقتصر معرفتها على عمله، بل تعدت ذلك إلى تفاصيل حياته الخاصة. وعندما استشارها بخصوص قضية زوجته الثانية نصحته بالطلاق، واقرحت عليه المبلغ الدقيق للثقة التي يدفعها لزوجته. لم تُظهر شفقة أو فضولاً، فما كان ليصفها بأنها من ذلك النوع. لم يكن ليظن أن لها أية مشاعر، ولم يخطر له أبداً أن يتساءل عما تفكر به، بل إنه كان سيندهش لو قيل له إن لها أي أفكار أخرى غير تلك المتعلقة بالشركة وبمشكلات أوتو مورغانثال.

ولذلك كله فقد دهش تماماً عندما سمعها تقول وهي تنهياً لمغادرة مكتبه: أودع بإجازة لمدة ثلاثة أسابيع إن كان ذلك ممكناً يا سيد مورغانثال، بدءاً من الثلاثاء المقبل.

قال وهو يحدق إليها: سيكون ذلك مربكاً... مربكاً جداً.

- لا أظن أن ذلك سيكون صعباً جداً يا سيد مورغانثال؟

فالآنسة وايعبت قادرة تماماً على التعامل مع الأمور. سأترك لها دفتر ملاحظاتي مع تعليمات كاملة، ويوسع السيد كورنول أن يعنى بعملية اندماج شركة آرشر.

سأل وهو ما زال متحملاً: أرجو أن لا يكون ذلك لمرض أو عارض ما؟

إنه لا يستطيع تخيل الآنسة شيل مريضة. حتى الجرائم تحترم أنا شيل وتبتعد عن طريقها.

- آه، لا يا سيد مورغانثال، أريد الذهاب إلى لندن لرؤية أختي هناك.

- أختك؟

لم يكن يعرف أن لها أختاً. لم يكن قد تخيل أن للآنسة شيل أية عائلة أو أقرباء، فهي لم تذكر شيئاً من ذلك. وها هي الآن تشير إلى أخت لها في لندن! لقد كانت معه في لندن في الخريف الماضي، ولكنها لم تُشر أبداً - وقتها - إلى أن لها أختاً.

قال بشيء من المشاعر المجروحة: لم أعرف أبداً أن لك أختاً في إنكلترا؟

ابتسمت الآنسة شيل ابتسامة ياهنته جداً وقالت: آه، بلى يا سيد مورغانثال، وهي متزوجة برجل إنكليزي ذي صلة بالمتحف البريطاني. من الضروري لها أن تخضع لعملية جراحية شديدة الخطورة، وهي تريدني أن أكون معها، وأنا أودع بالذهاب.

رأى أوتو مورغانثال أن خلاصة القول هي أنها قد حُزمت أمرها على الذهاب، فقال متذمراً: حسناً، حسناً، ولكن عودي في أقرب وقت ممكن. إنني لم أرَ السوق متذبذباً أبداً بهذا الشكل من قبل. هذه الشيوعية القذرة! يمكن أن تندلع الحرب في أية لحظة، وأكاد أحسّ - أحياناً - بأنها الحل الوحيد. البلد كله مشغول بها... مشغول بها تماماً، والرئيس مصمم الآن على الذهاب إلى هذا المؤتمر التبعيس في بغداد. إنه شَرَك خادع يرأني؟ فهم يسعون جاهدين للثبيل منه. بغداد... من بين كل الأماكن الغريبة المستهجنة!

قالت الأنسة شيل على سبيل التهذنة: أه، أنا واثقة أنه سيحظى بحماية ممتازة.

قال السيد مورغانثال: "ألم يقتلوا شاه إيران في العام الماضي؟ كما قتلوا برنادوت في فلسطين. إنه جنون... هذه هي حقيقة الأمر؟ جنون". ثم أضاف بحزن: ولكن لا غرابة؛ فالعالم كله مجنون!

* * *

الفصل الثاني

جلست فيكتوريا جونز معكزة المزاج على مقعد في حدائق فينرجيمس. كانت غارقة تماماً في التأمل... بل يكاد المرء يقول إنها غارقة في المحاكمات الأخلاقية المتعلقة بالمساوي الكامنة في استخدام المرء لمواهبه الخاصة في الوقت غير المناسب.

كانت فيكتوريا مثل الكثيرين منا؛ فتاة ذات محاسن ومساوئ. فأما في جانب المحاسن فقد كانت كريمة ودودة شجاعة، وربما أمكن اعتبار ميلها الطبيعي للمغامرة ميزة يمكن تصنيفها في أي من جانبي المحاسن أو المساوئ في هذا الزمن الذي يضع اعتباراً عالياً للأمن. أما عيبها الأساسي فكان ميلها للكذب في اللحظات المناسبة وغير المناسبة على حد سواء، وكان ولعها الدائم الهائل بالخيال على حساب الحقيقة ولعاً لا يمكنها مقاومته. كانت تكذب بطلاقة وبسهولة وبحماسة، ولئن تأخرت فيكتوريا عن موعد (وهو ما كان يحدث غالباً) فلن تكفي بأن تنتم بعذر عن توقف ساعتها (الذي كان فعلاً كثير الحدوث) أو بعذر عن حافلة تأخرت على غير عادتها، بل كانت تفضل تقديم التفسير الكاذب القائل إن ما أخرها كان فيلاً هارباً من حديقة الحيوان تمدد في الطريق الذي تسلكه الحافلة، أو حادثة سطو

خاطفة لعبت هي فيها دوراً في مساعدة الشرطة .. فالعالم المقبول بالنسبة لفكتوريا سيكون ذلك العالم الذي تكمن فيه النور في ساحة ستراند ويملاً فيه رجال العصابات الخطيرون شوارع المدينة!

وكانت فكتوريا فتاة نحيلة ذات جسم مقبول، ولكن كان يمكن -عملياً- وصف ملامحها بأنها قبيحة؛ فقد كانت ملامح صغيرة ومربطة. ولكن كان فيها شيء من الحدة اللاسعة، إذ كان «وجهها الممطاطي» -كما وصفه أحد المعجبين بها- قادراً على لوي تلك الملامح الساكنة في تقليد ساحر لا يكاد أحد ينجو منه.

وقد كانت موهبتها الأخيرة هذه هي التي قادتها إلى موقفها الحالي الصعب؛ فقد كانت فكتوريا طابعة عند السيد غرينولتز، مدير شركة غرينولتز وسليتز في شارع غريزهولم غربي لندن. وقد كانت تحاول «قتل وقت» صباح ممل، وذلك بالتزفيه عن زميلاتها الطابعات الثلاث وصبي المكتب، عن طريق تقديم عرض حي تؤدي فيه فكتوريا دور زوجة السيد غرينولتز وقد جاءت لزيارة زوجها في مكتبه. وقد أطلقت فكتوريا العنان لنفسها بعد أن اطمانت إلى أن السيد غرينولتز قد ذهب إلى محاميه. صاحبت بصوت عالٍ منتحب: لماذا تقول إننا لن نشري تلك الأريكة الفخمة يا دادي؟ لقد اشترت السيدة ديفناكيس واحدة منجدة بالسنان الأزرق. تقول إن المال ينقصك؟ فلماذا -إذن- اصطليحت تلك الفتاة الشقراء إلى العشاء والرقص؟ إيه! أنظرن أنني لا أعلم؟ فإذا أخذت أنت تلك الفتاة، فإني -بالمقابل- اشترت أريكة منجدة على أجمل طراز ومعها الطنافس والوسائد الذهبية. وعندما تقول إنه لم يكن إلا عشاء عمل فإنك تكون مغفلاً جداً... نعم، وتأتيني وأحمر الشفاه على قميصك!

ولذلك اشترت الأريكة، وطلبت معطف فراء جميلاً جداً يشبه فروه فرو المنك، ولكنه ليس فرو المنك فعلاً، وقد اشترته بمن رخيص، وكان صفقة جيدة...

كان مستمعوها -في البداية- مسحورين بتقليدها الساحر، ولكنهم انخرطوا الآن فجأة بالعمل، مما جعل فكتوريا تتوقف وتلتفت إلى حيث كان السيد غرينولتز وفقاً عند مدخل الباب يراقبها. وعندما لم تجد شيئاً مناسباً تقوله اكتفت بالقول: آه!

دمدم السيد غرينولتز، ثم نزع معطفه بقوة وتقدم إلى مكتبه الداخلي حيث صفق الباب بقوة خلفه، وعلى الفور -تقريباً- رن جرسه رنين قصيرتين ورنة طويلة، وكان ذلك استدعاء لفكتوريا.

قالت إحدى صاحباتها بشكل لا داعي له: أهذا الجرس لك يا فكتوريا؟ ثم التمتعت عيناها بالفرح الذي يأتي من مصائب الآخرين. وقد ساهمت بقية الطابعات في هذا الشعور بأن علفن قائلات: لقد وقعت يا فكتوريا! ولقد نلت حشاماً ساخناً!... أما صبي المكتب، وهو طفل كبريه، فقد اكتفى بأن يمرر سبابته أمام حنجرته موحياً بالذبح ومطلقاً صوتاً منذراً بشر مستطير.

أخذت فكتوريا دفتر ملاحظاتها وقلم الرصاص وضمت إلى مكتب السيد غرينولتز بكل ما يمكنها استجماعه من ثقة، وعندما دخلت عليه تمنت وهي تركز عليه نظرة صافية شفافة: لقد طلبتني يا سيدتي؟

كان السيد غرينولتز يخشخش بثلاث ورقات من فئة الجنيه ويبحث في جيوبه عن قطع نقد معدنية أخرى، وقد قال لها: ها أنت

قال السيد غرينولتز، ولكن دون كثير من الفعالة: يمكنني إرسال باقي المبلغ إليك لاحقاً.

- لا تزعج نفسك، ولكن ماذا عن تزويدي بكتاب تركية؟

عاد الغضب إلى السيد غرينولتز وسأل بحق: ولماذا يتعين علي إعطائك كتاب تركية؟

- هذا هو الإجراء المعتاد.

سحب السيد غرينولتز ورقة وكتب عليها بضعة أسطر على عمل، ثم مدها إليها وقال: هل يكفيك هذا؟

لقد عملت الأنسة جونز معي لمدة شهرين كطابعة اختزال، واختارها مالي بالأخطاء، وهي لأحسن التهجئة. وقد تم إنهاء خدماتها بسبب تبديدها للوقت أثناء ساعات العمل.

كشرت فكتوريا وقالت: لا تكاد هذه تكون تركية!

- لم يكن المقصود أن تكون كذلك.

- أظن أن عليك القول -على الأقل- إنني لزيهة ومترنة ومحترمة؛ فأنا كذلك بالمناسبة، وربما أمكنك أن تصيب أنني كتومة.

صاح السيد غرينولتز: كتومة؟

قابلت فكتوريا نظراته بنظرة بريئة وقالت يهدوء: كتومة.

تذكر السيد غرينولتز العديد من الرسائل التي أملاها على

ذي إذن. لقد تحملت منك ما يكفي أيتها الشابة. هل ترين أي سبب خاص يمتعني من أن أدفع لك أجر أسبوع بدل الإشعار وأطردك في هذه اللحظة؟

كانت فكتوريا (التيمة الأوبن) قد فتحت فمها لتوها لتشرح كيف أن محبة أمها التي تعاني -في هذه اللحظة- من عملية جراحية كبرى قد أثرت على معنوياتها إلى الحد الذي جعلها خفيفة العقل تماماً، وكيف أن راتبها هو كل ما تعتمد عليه الأم المذكورة، ولكنها عادت وأغلقت فمها وغيرت رأيها بعد أن نظرت نظرة أولية إلى وجه السيد غرينولتز السقيم.

ويدلاً من ذلك قالت بكل انطلاقي وعدوية: إنني أنفق معك كل الاتفاق. أعتقد أنك محق تماماً، إن كنت تفهم ما أعنيه.

بدا وكأن السيد غرينولتز قد فوجئ قليلاً؛ إذ لم يكن معتاداً على تعامل الناس مع حالات الطرد يمثل هذه الروحانية الراضية المبهتة، ولكي يخفي مسحة عدم الارتياح قام بترتيب مجموعة من النقرود المعدنية على المكتب أمامه. ثم أخذ يبحث مجدداً في جيبويه وتمتم بتكده: يقص المبلغ تسعة بنسات.

قالت فكتوريا بلطف: لا تهتم لذلك. اذهب بها إلى السينما أو اشتر لنفسك بها بعض الحلويات.

- كما لا يبدو أن لدي أية طوابع أيضاً.

- لا يهم؛ إنني لا أكتب رسائل أيداً.

فكتوريا وطبعنها، فقرر أن الرأي قبل شجاعة الشجعان. سحب الورقة بنزق ومزقها وكتب رسالة جديدة:

لقد عملت الآنسة جوتو معي لمدة شهرين كطابعة اختزال، وهي تغادر العمل نتيجة الفائض في مילك المكتب.

- كيف تجددين هذه؟

- كان بالإمكان أن تكون أفضل، ولكنها نفي بالغرض.

* * *

كان ذلك -إذن- هو موضوع تأملات فكتوريا حين جلست وفي حقيبتها راتب أسبوع (إلا تسعة بنسات) على مقعد في حديقة فيترجيمس التي كانت قطعة مستطيلة من الخضرة تحيط بها الأشجار ويطل عليها مخزن عالي البناء.

كان من عادة فكتوريا في كل يوم لا مطر فيه أن تشتري شعطيرة جبن بالخس والبندورة من أحد الأكشاك، وأن تأكل ذلك الغداء البسيط في هذا الجو شبه الربيفي. واليوم، وهي تقضم وجبتها متأملة، كانت تقول لنفسها -مرة أخرى- إن لديها وقتاً ومكاناً لكل أمر... وإن المكتب لم يكن المكان المناسب لتقليد زوجة رب العمل. إن عليها في المستقبل أن تكبح تلك الحبوية الطبيعية التي قادتها إلى محاولة إضفاء الحياة والبهجة على وظيفة مملة، وفي هذه الأثناء ستكون متحررة من تلك المؤسسة التي كانت تعمل بها، وقد ملاحظها توقع الحصول على عمل في مكان آخر بإحساس لذيق من الترقب.

لقد كانت فكتوريا تفرح دائماً عندما تكون على وشك تولي وظيفة جديدة، وكانت تشعر دوماً بأن المزمع لا يدري أبداً ما الذي يمكن أن يحدث من أمور.

وَرَعَت آخر ما تبقى لديها من فئات الخبز على ثلاثة من عصافير الدوري البقطة التي راحت تتصارع فوراً بحماسة على ذلك الفئات، وما أن أكملت توزيع الفئات حتى انتهت لوجود شاب يجلس على الطرف الآخر من المقعد. كانت فكتوريا قد انتهت لوجوده بشكل مبهم أصلاً، ولكنها لم تكن قد لاحظته عن كثب حتى الآن، فقد كان عقلها مثلاً بالحلول المستقبلية الجديدة. وقد أعجبها ما لاحظته الآن من الشاب (ولكن بزاوية عينها فقط)، فقد كان شاباً وسيماً أشقر ذا ذقن يوحى بالحزم وعينين شديديتي الزرقة خُيِّلَ إليها أنهما كانتا تراقبانها منذ بعض الوقت بإعجاب غفي.

لم يكن لدى فكتوريا كواح تمنعها من مصادقة شباب غرباء في أماكن عامة، فقد كانت تعتبر نفسها حَكَمًا ممتازاً على الشخصيات وقادرة تماماً على كبح أي تعبير غزلي وقع من جانب الرجال.

انتمست له بشكل مكشوف، فاستجاب الشاب (مثل دمية متحركة جذب المزمع خيوطها) قائلاً: مرحباً، هذا مكان رائع. هل تأتين دوماً إلى هنا؟

- كل يوم تقريباً.

- لم يسعفني حظي في المحييء إلى هنا أبداً من قبل. أكان ذلك الذي أكانه هو غداءك؟

- نعم.

- لا أحسبك أكلت ما يُشبعك. كنت سأتصور جوعاً لو لم أكل شيئاً سوى ما أكلت. ما رأيك بالذهاب لتناول السجق في مطعم في شارع توتنهام كورت؟

- لا، شكرًا. لقد أكلت، ولا أستطيع تناول المزيد الآن.

توقعت منه أن يقول: "هل تذهب في يوم آخر؟"، ولكنه لم يقل ذلك، بل اكتفى بأن تنهد ثم قال: اسمي إدوارد، ما هو اسمك؟

- فكتوريا.

- ولماذا أسماك أهلك على اسم محطة القطارات؟

- ليست فكتوريا محطة قطارات فحسب؛ إذ توجد الملكة

فكتوريا أيضاً.

- ممم، نعم. ما هو اسم عائلتك؟

- جونز.

قال إدوارد محاولاً تجربة الاسم على لسانه: فكتوريا جونز...

الاسمان غير متناسبين.

أجابت فكتوريا بحماسة: أنت محق تماماً. لو كان اسمي جيني لكان ذلك رائعاً... جيني جونز. ولكن اسم فكتوريا يحتاج إلى اسم آخر يوحي بالطبقات العليا. فكتوريا ساكفيل وست مثلاً... هذا ما يحتاجه المرء؛ شيء يملأ نطقه الفم.

قال إدوارد باهتمام يوحي بالتعاطف: يمكنكك إلحاق اسم آخر مع اسم جونز.

- مثل بدفورد جونز.

- أو كريسيروك جونز.

- أو سينت كلير جونز.

- أو لونسديل جونز.

لم يقطع هذه اللعبة المسلية إلا نظر إدوارد إلى ساعته، حيث هتف فجأة برعب: ينبغي أن أهرع عائداً إلى مديري النكد. هم... وماذا عنك أنت؟

- لقد ترغت عملي؛ طُردت هذا الصباح.

قال إدوارد باهتمام حقيقي: آه، إنني آسف لذلك.

- لا تتدد عواطفك، فأنا غير آسفة أبداً على ذلك. وهذا لسبب واحد؛ وهو أنني سأحصل على عمل آخر بسهولة، وفوق ذلك فقد كان الأمر ممتعاً حقاً.

ثم قامت بتأخير إدوارد أكثر بأن سردت له وصفاً حياً للمشهد الصباحي الذي جرى معها، معيدة تمثيل شخصية السيدة غرينهولتز وإدوارد يصغي وهو بغاية الاستمتاع. وأخيراً قال: أنت رائعة حقاً يا فكتوريا. ينبغي أن تكوني مثلة.

تقبلت فكتوريا هذا الإطراء باتسامة سعيدة وقالت إن من

الأفضل لإدوارد أن يركض إلى عمله إن كان لا يرغب بأن يُطرَد هو الآخر.

قال: "نعم... ولن أكون قادراً على الحصول على وظيفة جديدة بنفس السهولة التي ذكرتها". ثم قال وفي صوته شيء من الحسد: لا بد أن من الرائع أن يكون المرء طابع اختزال جيداً.

اعترفت فكتوريا بصراحة قائلة: أنا لست طابعة اختزال جيدة في الواقع، ولكن من حسن الحظ أن أسوأ طابعات الاختزال يمكنهن الحصول على عمل في هذه الأيام. إنهن يحصلن -على الأقل- على عمل في التعليم أو في المؤسسات الخيرية؛ فهذان المجالان لا يسعهما دفع رواتب عالية، ولذلك فهما يأخذان موظفات من أمثالي. إنني أفضل تلك الوظائف التي تكون مع المؤسسات عالية الثقافة، فتلك الأسماء والعبارات العلمية فظيعة إلى الحد الذي لا يشعر المرء معه بالخجل حقاً من عدم معرفته بتعجنتها... لأن أحداً لا يعرف تعجنتها أصلاً! ما هو عملك؟ أحسب أنك خارج من الخدمة العسكرية. هل كنت في القوة الجوية الملكية؟

- تخمين جيد.

- أكنت طياراً مقاتلاً؟

- صحيح مرة أخرى. لقد كانوا منصفين جداً معنا هناك، ولكن المشكلة أننا لسنا على تلك الدرجة من الذكاء... أعني أن المرء لم يكن بحاجة لأن يكون ذكياً في القوة الجوية. لقد وضعوني في مكتب فيه الكثير من الملفات والأرقام، ويتطلب الكثير من التفكير، فما

كان متي إلا أن انهرت. وقد بدا وكأن كل شيء كان دون أي هدف على أية حال، ولكن هذا هو الموجود. إن مما يشبط المعنويات قليلاً أن يدرك المرء أنه لا يُحسن شيئاً أبداً.

أومات فكتوريا برأسها متعاطفة، وتابع إدوارد بقول بمرارة: لم نعد على علاقة بالواقع ولا اطلاع لنا على ما يحدث من أمور أبداً. كان الأمر على ما يرام أثناء الحرب، حيث كان بوسع المرء أن يقوم بواجبه رغم كل الصعوبات. لقد حصلت على وسام الطيران مثلاً... أما الآن، فربما كان بوسعي اعتبار نفسي شخصاً لا يقدم ولا يؤخر.

- ولكن لا بد أن يوجد...

ثم توقفت في وسط جملتها وقد شعرت بأنها غير قادرة على أن تصوغ -في كلمات- قناعتها بأن تلك الخصائص التي جلبت لأصحابها أوسمة الشجاعة والتميز لا بد أن يكون لها موقعها في مكان ما من عالم سنة ١٩٥٠.

قال إدوارد: لقد شُبط همتي -بعض الشيء- أن لا أكون نافعاً مقبداً في أي مجال. الأفضل أن أسرع بالذهاب. أقول... هل تمنعين... أعني هل سيكون من الوقاحة الشديدة أن... أن أطلب منك...

وفيما فتحت فكتوريا عينيْن دهشتين وهي تدمدم وتحمرّ خجلاً أخرج إدوارد آلة تصوير صغيرة وقال: أحب كثيراً أن أخذ لك صورة؛ فأنا مسافر غداً إلى بغداد.

هنت فتكوريا بخية أمل محبية: إلى بغداد؟

- نعم. وأنا أتمنى لو لم أكن ذاهباً... الآن. مع أنني كنت متحمساً تماماً لهذه السفرة صباح اليوم؛ وهذا هو السبب في قبولي بهذه الوظيفة في الواقع... لكي أخرج من هذا البلد.

- ما نوع هذه الوظيفة؟

- وظيفة فظيعة تماماً. ثقافة، وشعر، وما إلى ذلك. رئيسي اسمه الدكتور راثنون. تمتد قائمة من الألقاب خلف اسمه، وهو ينظر إليك بعاطفة مفرطة من خلال نظارته. إنه حريص جداً على السمعة ورفعة الأخلاق وعلى نشر ذلك جهد استطاعته، ولذلك فهو يفتح مكتبات في أماكن بعيدة... ويريد افتتاح مكتبة في بغداد الآن. لقد أشرف على ترجمة أعمال شكسبير ومilton إلى العربية والكردية والفارسية والأرمنية، وهو ما أراه أمراً سخيفاً؛ لأن المجلس الثقافي البريطاني يقوم بنفس المهام تقريباً في كل تلك المناطق. ومع ذلك، فهذا هو الواقع. هذا يوفر لي وظيفة، ولذلك عليّ أن لا أنذمر.

- ما هي طبيعة العمل الفعلية؟

- إنه لا يعدو أن يكون بمثابة خادم مقطوع للرجل في نهاية المطاف. أشتري البطاقات، وأجري الحجوزات، وأملأ استمارات جوازات السفر، وأتأكد من حزم كل تلك الكتب الشعرية الفظيعة، وأرخص من هنا إلى هناك. وبعدها، عندما تصل إلى هناك يُفترض بي أن أقيم صداقات... شيء أشبه بتشجيع الحركات الشبابية المجيدة والنقاء الأمم كلها في توجه واحد من أجل الرفعة والسمو.

كانت نيرة إدوارد تزدداد كآبة باضطراد، ثم قال: إنه عمل كريمة جداً بصراحة، أليس كذلك؟

لم تكن فتكوريا قادرة على تقديم الكثير من العزاء، ومضى إدوارد قائلاً: ولذلك إن لم يكن لديك مانع من تصويري لك؟ صورة جانبية وصورة وأنت تنظرين مباشرة إليّ. نعم، هذا رائع.

مقطعت آلة التصوير مرتين وأظهرت فتكوريا ذلك الرضا الذي نظهره شابة أدركت أنها نالت إعجاب رجل.

قال إدوارد: ولكن من المؤسف حقاً أن أضطر إلى المغادرة بعدما قابلتك. إنني نصف عازم على التخلي عن هذه الرحلة. ولكن أحسب من غير الممكن أن أفعل ذلك في اللحظة الأخيرة... ليس بعد كل تلك الاستثمارات الكريمة والتأثيرات وغير ذلك. لن يكون ذلك تصرفاً لائقاً، أليس كذلك؟

قالت فتكوريا معزية: قد لا يكون الأمر على تلك الدرجة التي نظنها من سوء.

أجابها إدوارد بارتياح: نعم. الأمر الغريب هو أنني أحس بأن في هذه المسألة شيئاً مريباً في مكان ما.

- شيئاً مريباً؟

- نعم؛ شيء زائف ما. لا تسأليني لماذا، فليس لدي أي سبب. إنه من تلك المشاعر التي تتأب المرء أحياناً. اتابني مرة نفس الشعور إزاء زيت المحرك الأيسر في طائرتي، فبدأت أبحث

وقت ساعة الكنيسة القريبة فهتف إدوارد: أه، يا إلهي! يجب أن أصبح كاتب ربيع.

ثم هرع ليختفي في قلب لندن. أما فكتوريا - التي تخلقت وراءه على المنفرد غارقة في تأملاتها - فقد شعرت أنها وإدوارد كانوا - إلى حد ما - في موقف يشبه موقف روميو وجولييت: لقاء، فأنجذاب فوري... فحرممان وإحباط! قلبان محبان يُغرَق بينهما.

نهضت فكتوريا أخيراً وهي تنفض فتات الخبز عن حِبرها، ثم طشت سريعاً خارِجة من حديقة فيتز جيمس باتجاه شارع غاور. كانت قد توصلت إلى قرارين: أولهما هو أنها (مثلها، وقع لجولييت) قد أحبت هذا الشاب وتريد القوز به، أما القرار الثاني الذي أخذته فكتوريا فكان يقول: بما أن إدوارد سيكون قريباً في بغداد، فليس أمامها إلا أن تذهب إلى بغداد أيضاً. وكان الأمر الذي يشعل يالها الآن هو كيفية تحقيق ذلك. ولم يرادوها شك في إمكانية تحقيق ذلك بشكل أو بآخر! فقد كانت شابة مثقفة قوية الشخصية.

قالت لنفسها: لا بد لي من السفر إلى بغداد بطريقة ما!

وأفش، وبالفعل كانت هناك حلقة معينة عاقلة في المغرور الاحتياطي لسرعة المضخة.

كانت اللغة الفنية التي تحدث بها غير مفهومة أبداً بالنسبة لفكتوريا، ولكنها فهمت الفكرة العامة. قالت: أنظنه متحملاً زائفاً... أقصد السيد رايتون؟

- لا أرى كيف يمكن أن يكون كذلك. أعني أنه محترم جداً ومتقف، وينتمي إلى تلك الجمعيات الفكرية... وترغبه علاقة وثيقة بكبار رجال العلم وعمداء الكليات. لا، إنه مجرد شعور حسناً، سيئين الزمن ذلك. ولكن حتى ذلك الحين... لعلنا أتمنى لو كنت قادمة معنا أيضاً.

- وكذلك أنا.

- ما الذي ستفعلينه؟

أجابت فكتوريا بنهم: سأذهب إلى وكالة غيلديريك في شارع غاور وأبحث عن وظيفة أخرى.

- وداعاً يا فكتوريا.

- وداعاً يا إدوارد، أتمنى لك حظاً موفقاً.

- لا أحسب أنك ستفكرين بي أبداً مرة أخرى.

- بلى، سأفكر.

- إنك تختلفين كل الاختلاف عن أبة فتاة عرفتها من قبل كنت أتمنى فقط...

على مرمى النظر، وعندما توقفت السيارتان أمام الإشارات الضوئية عند منعطف ساحة ترافلغار نظر الرجل الذي استقل السيارة الثانية من النافذة اليسرى وأشار بيده إشارة خفيفة، فاشتغل محرك سيارة خاصة كانت تقف في الشارع الجانبي عند قوس الأدميرالية وانطلقت إلى الشارع خلف سيارة الأجرة الثانية.

الفصل الثالث

استأنف السير من جديد، وفيما سلكت سيارة الأجرة التي تسفلها أنا شيل الطريق المثجه يساراً إلى شارع بول مول، انعطفت السيارة الأخرى التي تقل الرجل الأسمر يمينا، مستمرة في الالتفاف حول ساحة ترافلغار. كانت السيارة الخاصة (وهي رمادية من نوع ستاندرد) قد أصبحت الآن قريبة من سيارة أنا شيل، وكان فيها شخصان، شاب أبيض البشرة جامد النظرة خلف عجلة القيادة، وشابة أنيقة الشباب إلى جانبيه. تبعت سيارة الستاندرد سيارة أنا شيل في بيكاديلي، ثم في شارع بوند، وهناك توقفت لحظة قرب الرصيف حيث خرجت منها الشابة وقالت بهرح وبصورة تقليدية: شكراً جزيلاً لك.

مضت السيارة، ومشت الشابة في الشارع تنظر - بين حين وآخر - إلى واجهات المحلات. توقف سير السيارات عند أحد الحواجز، وتجاوزت الشابة سيارة ستاندرد التي كانت تقلها وسيارة أنا شيل معاً، حتى وصلت إلى محل كارتييه ودخلته.

دفعت أنا شيل الأجرة للسائق ودخلت محل الحلبي بدورها، وهناك قضت بعض الوقت وهي تنظر إلى قطع مختلفة من الحلبي، وفي النهاية اختارت خاتماً من الباقوت الأزرق والألماس، ثم كتبت

رحب فندق السافوي بالآنسة أنا شيل بكل العناية التي يبذلها الفندق بزيون قديم بالغ الأهمية، فقد سأل القائمون على الفندق عن صحة السيد مورغانثال وأكدوا أن ما عليها سوى أن تخبرهم إذا لم يعجبها الجناح الذي خصصوه لها... ذلك أن أنا شيل كانت تمثل الدولار.

بدلت الآنسة شيل ملابسها وأجرت اتصالاً هاتفياً مع رقم في منطقة كينسينغتون، ثم استقلت المصعد إلى الطابق السفلي لتخرج من خلال الباب الدوار وتطلب سيارة أجرة. أتت السيارة فاستقلتها وأمرتها بالتوجه إلى محل كارتييه للحلي في شارع بوند.

وفيما خرجت سيارة الأجرة من مدخل السافوي إلى شارع ستراند نظر إلى ساعته - فجأة - رجل أسمر ضئيل الجسم كان يقف ناظراً إلى واجهات المحلات، ثم لوح لسيارة أجرة كانت تمر قريباً منه لحسن الحظ بعد أن غفلت تماماً قبل لحظات قليلة عن سيدة كانت تحمل أكياساً وتلوح لها بانفعال.

انطلقت سيارة الأجرة في شارع ستراند تاركة السيارة الأولى

شيكاً بتمنه. وعندما رأى مدير المحل الاسم على الشيك اتسم أسلوبه بمزيد من العناية وقال: يسعدني أن أراك ثانية في لندن يا آنسة شيل. هل السيد مورغانثال هنا؟

- لا.

- كنت أتساءل عن ذلك؛ لأن لدينا هنا قطعة رائعة جداً من الباقوت النجمي الأزرق، وأنا أعرف اهتمامه بهذا النوع من الباقوت. هل تمنعين في رؤيتها؟

أعربت الآنسة شيل عن عدم ممانعتها، ثم أبدت ما يتطلبه الموقف من إعجاب بالياقوتة ووعدت بذكرها أمام السيد مورغانثال. ثم خرجت ثانية إلى شارع بوند، فيما أعربت الشابة التي كانت تنظر إلى قرط من الحلي عن عدم قدرتها على اختيار ما تريده ثم خرجت هي الأخرى.

كانت السيارة الرمادية قد انعطفت شمالاً إلى شارع كرافتن وذهبت إلى ميدان بيكاديللي، وكانت الآن تدخل لتوها شارع بوند من جديد. ولكن الشابة لم تظهر ما يفيد تعرفها على السيارة.

انعطفت أنا شيل إلى شارع آركيد، ثم دخلت محلاً لبيع الأزهار، وهناك طلبت عشرات من الورد طويلة الساق، وآنية من زهور البنفسج القرمزية الضخمة، وعدداً من أزهار الليلك، وآنية من أزهار الليموزا، ثم أعطت البائع عنواناً ليرسلها إليه. قال البائع: سيكلف ذلك اثني عشر جنيهًا وثمانية عشر شلنًا يا سيدتي.

دققت له المبلغ وخرجت. وسألت الشابة التي كانت قد دخلت محل الأزهار لتوها عن ثمن باقة من الورد، ولكنها لم تسترها.

عبرت أنا شيل شارع بوند ومضت في شارع بيرلغتن، ثم انعطفت إلى شارع سافيل راو، وهناك دخلت محلاً للخياطة كان متخصصاً بأزياء الرجال، ولكن القائمين عليه كانوا يوافقون على تفصيل بدلة نسائية لزيائن خاصين في بعض الأحيان.

استقبل السيد بولفورد الآنسة شيل بكل ما يستحقه الزبون الخاص القِيم، وتم استعراض الأقمشة المناسبة للبدلة. قال السيد بولفورد: يمكنني -لحسن الحظ- أن أعطيك النوعية الجيدة التي تتميز بها صدارتنا الخاصة. متى ستعودين إلى نيويورك يا آنسة شيل؟

- في الثالث والعشرين من هذا الشهر.

- يمكننا إذن- تدبر الأمر بشكل جيد. أحسب أنك ستعودين بالباخرة، أليس كذلك؟

- بلى.

- وكيف هي الأمور في أمريكا؟ إن الأمور محزنة جداً هنا... محزنة جداً بالفعل.

هن السيد بولفورد رأسه أسفاً كطبيب يصف حالة مريض ثم قال: لم يعد للأمر طعم... إن كنت تهمينتي، ولا بأتينا أحد ممن يقدرُونَ جودة العمل حق قدرها. أندرين من سيفضل لك بدلتك

يا آنسة شيل؟ إنه السيد لانتريك؛ عمره اثنان وسبعون عاماً، وهو الوحيد الذي أستطيع حقاً أن أتق بتفصيله لثياب زبائننا المتميزين كل الباقيين...

ثم نخي السيد بولفورد الباقيين بإشارة من يده السمينة وقال: الجودة... هذا ما كانت هذه البلاد مشهورة به، الجودة! ما من شيء رخيص... ما من شيء مهرج. وعندما التخططنا في الإنتاج الجماهيري الكبير لم نحسنه. هذه حقيقة. هذا من اختصاص بلدك أنت يا آنسة شيل. وإنتي أقول -ثانية- إن ما ينبغي أن نركز عليه هو الجودة. أن نأخذ وقتنا في صنع السلعة ونعني بها ونُخرجها بحيث لا يمكن لأحد في العالم التفوق عليها. والآن، في أي يوم نحري القياس الأول للبدلة، في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم؟ في الحادية عشرة والنصف؟ شكراً جزيلاً.

شفت الآنسة شيل طريقها عبر لفائف القماش القديمة الكثيرة وخرجت ثانية إلى ضوء النهار. لوحت لسيارة أجرة وعادت إلى فندق السافوي، واقتربت سيارة أجرة أخرى من الجانب الآخر من الشارع وهي تقل رجلاً أسمر فضيل الجسم، ثم أخذت نفس طريق السيارة السابقة، ولكنها لم تنعطف إلى فندق سافوي، بل انعطفت خلفه، وهناك صعدت إلى السيارة امرأة قصيرة مكنتزة الجسم كانت قد خرجت -لثوبها- من المدخل الخاص بالخدمات في الفندق.

- ماذا حصل معك يا لويزا؟ هل فتشت غرفتها؟

- نعم. لا يوجد شيء.

تناولت أنا شيل غداءها في المطعم، حيث تم حجز مائدة لها قرب النافذة. وقد استفسر رئيس النداء في المطعم بمحبة عن صحة السيد أوتو مورغانثال.

بعد الغداء أخذت أنا شيل مفتاح غرفتها وصعدت إلى جناحها. كان السرير قد رُتب، وقد وُضعت مناشف جديدة في الحمام، وكان كل شيء مرتباً نظيفاً. ذهبت أنا إلى الحقيبتين الصغيرتين اللتين تحويان أمتعتي، وكانت إحداهما مقفلة والأخرى غير مقفلة. ألقت نظرة على محتويات الحقيبة المفتوحة، ثم أخرجت مفاتيحها من حقيبة يدها وفتحت الحقيبة الأخرى. كان كل شيء مرتباً ومطوياً كما طوته هي، ولم يتم -ظاهرياً- لمس شيء أو إفساده. كانت حقيبة جلدية صغيرة موضوعة في أعلى محتويات الحقيبة، كما كان هناك آلة تصوير صغيرة وفلمان في زاوية الحقيبة. أما الفلمان فكانا ما يزالان مختومين مغلقين. مرتت أنا ظفرها على غطاء الحقيبة ثم قليتها للأعلى، وابتمست بكل هدوء. فالشعرة الشقراء الوحيدة التي كانت موضوعة هناك لم تعد موجودة. قامت برش شيء من البودرة على الجلد اللامع للحقيبة الصغيرة ثم نفختها فوجدت أن الحقيبة ظلت نظيفة لامعة. لم تكن عليها بصمات. ولكنها كانت قد أمسكت بذلك الحقيبة في ذلك الصباح بعد أن وضعت على شعرها قليلاً من الكريم لتمسده وتطريه به، ولذلك ينبغي أن تكون على الحقيبة بصمات... بصماتها هي.

ابتمست ثانية وقالت لنفسها: عمل متقن، ولكنه ليس متقناً

بما فيه الكفاية!

وبسرعة وضعت بعض الملابس في حقيبة صغيرة ونزلت ثانية إلى الطابق السفلي حيث تم استدعاء سيارة أجرة لها. وقد طلبت من السائق التوجه إلى المبنى رقم ١٧ في ساحة إيلمزلي غاردنز.

كانت منطقة إيلمزلي غاردنز ساحة هادئة منسقة قليلاً في كينسينغتن. دفعت أنا أجرة السيارة وأسرت صاعدة الدرج وصولاً إلى الباب الأمامي للمبنى المقصود. قرعت الجرس ففتحت لها الباب - بعد دقائق - امرأة كهلة ذات وجه يتسم بالارتياح، ولكن سرعان ما انفجرت أساريها لتبتسم مرحة: كم سطرَح الأُنسة إليسي بروينك! إنها في المكتب في مؤخرة المنزل. إن فكرة قدومك هي وحدها التي كانت تبقي على معنوياتها جيدة.

مضت أنا بسرعة عبر الممر المظلم وفتحت باباً عند نهايته. كانت غرفة صغيرة قديمة ولكنها مريحة، وفيها مقاعد بالية ضخمة متجدة بالجلد. ففرت المرأة التي كانت تجلس على أحد تلك المقاعد وقالت: أنا، حبيبتني.

- إليسي.

تبادلَت المرأتان القبلات بكل حب، ثم قالت إليسي: لقد تم ترتيب كل شيء. سأدخل هذه الليلة. إنني أرجو...

قاطعتها أنا قائلة: هيا ابتهجي، سيكون كل شيء على ما يرام تماماً.

دخل الرجل الأسمر الضئيل بمعطفه المطري إلى أحد أكشاك الهاتف في محطة كينسينغتن وأدار قرص الهاتف على رقم معين.

- أهذه شركة غراموفون فالهالا؟

- نعم.

- معك ساندروز يتكلم.

- ساندروز صاحب النهر؟ أي نهر؟

- نهر دجلة. أقدم تقريراً عن أ. ش.: لقد وصلت هذا الصباح من نيويورك. ذهبت إلى محلات كارتيه حيث اشترت خاتم ياقوت والماس كُلف مئة وعشرين جنيهًا، ثم ذهبت إلى محل للأزهار واشترت ما قيمته اثنا عشر جنيهًا وثمانية عشر شلنًا من الأزهار لثُرسل إلى مصحة في منطقة بورتلاند، ثم طلبت خياطة معطف وتنورة في محلات بولفورد وأفوري. إن أيًا من هذه الشركات والمحال لم تُعرف عنه اتصالات مشبوهة، ولكن سيتم فحصها بعناية مستقبلاً. ثم تفتّش غرفة أ. ش. في الفندق، فلم يُعثَر على شيء يشير إلى الريبة. توجد حقيبة جلدية صغيرة داخل حقيبة سفر تحتوي على أوراق تتعلق باندماج شركة بيبير مع شركة وولفنشتاين، وليس في ذلك ما يشير إلى الريبة. هناك آلة تصوير وفلمان لم يُستخدما بعد كما يبدو، وبسبب احتمال وجود سجلات وثائقية على الفلمين قمنا باستبدالهما، ولكن تبين أن الفلمين الأصليين كانا عاديين ولم يُستخدما بعد. أخذت أ. ش. حقيبة صغيرة وذهبت إلى أختها في ١٧ إيلمزلي غاردنز. وقد دخلت أختها هذا المساء مصحة في منطقة بورتلاند لإجراء عملية داخلية،

الفصل الرابع

يمكن الإسهاب كثيراً في وصف ما تتحلى به فكتوريا من بهجة وانطلاق، بحيث لا تخطر لها للحظة واحدة إمكانية الفشل في الحصول على ما تريده، إنها امرأة لا تعرف اليأس، ولقد كان من المؤسف بالتأكيد أن يتبين لها في اللحظة التي وقعت فيها في حب ذلك الشاب الوعيم أنه على وشك المغادرة إلى مكان يبعد نحواً من ثلاثة آلاف ميل، ولو كان ذاهباً إلى بيرمنغهام أو بروكسل لكان الأمر.

أما أن تكون وجهته بغداد فقد رأت فكتوريا أن ذلك عائد لحظها التعمس! ومع ذلك، ورغم صعوبة الأمر فقد نوت الذهب إلى بغداد بشكل أو بآخر، مشت في شارع توتنهام كورت وهي تجيل في ذهنها الطرق والوسائل الممكنة. بغداد... ما هو العمل الممكن في بغداد؟ يقول إدوارد إنه «الثقافة»، أي يمكنها -يا ترى- أن تلعب لعبة الثقافة بشكل ما؟ اليونسكو مثلاً؟ كانت اليونسكو ترسل الناس دوماً إلى كل مكان في هذه الدنيا، وأحياناً ترسلهم إلى أجمل الأماكن. ولكن فكتوريا فكرت بأن من ترسلهم اليونسكو هم -في

وتم التأكد من ذلك من المصححة نفسها ومن دفتر مواعيد الجراح أيضاً. وتبدو زيارة أ.ش. بريئة تماماً وليس فيها ما يثير الشكوك. ولم يبدُ عليها أي ارتباك أو انتباه لملاحظتنا لها. وقد فهمت أنها ستقضي هذه الليلة في المصححة، وقد أبقّت على غرفتها في فندق سافوي. ستكون عودتها إلى نيويورك بواسطة الباخرة التي حجزت فيها مقعداً في الثالث والعشرين من الشهر.

توقف الرجل الذي أسمى نفسه «ساندرز صاحب النهر»، ثم أضاف ملاحظة استدرائية بدا وكأنه لا يريد تسجيلها رسمياً: ولئن سألتني عن رأيي لقلت إن الأمر كله خدعة وتضليل! إن كل ما تفعله هو إلقاء الأموال ذات اليمين وذات الشمال. اثنا عشر جنيهاً وثمانية عشر شلناً على الأزهار فقط؟ أمر عجيب!

* * *

العادة- نساء متفوقات ذوات شهادات جامعية التحقن بهذا المجال في وقت مبكر.

قررت فكتوريا أخيراً أن الأهم يأتي قبل المهم، فوجهت خطواتها نحو إحدى وكالات السفر، وهناك قامت بطرح أسئلتها. وقد بدا أن السفر إلى بغداد لا يتطوي على أية مصاعب؛ إذ يمكن للمرء أن يسافر جواً، أو بالطريق البحري الطويل إلى البصرة، أو بالقطار إلى مرسيليا ثم بالباخرة إلى بيروت ثم عبر الصحراء بالسيارة. يمكن للمرء الذهاب عبر مصر، كما يمكن له الذهاب بالقطار طوال الطريق إذا ما عزم على ذلك، ولكن التأتشات كانت صعبة وغير مؤكدة في الوقت الحاضر، وتكاد مدة صلاحيتها تنقضي - عملياً - عندما يستلمها المرء. خلاصة القول أن الوصول إلى بغداد لا يشكل أية صعوبة أبداً طالما أن لدى المرء مبلغاً يتراوح بين ستين جنيهًا ومئة جنيه في جيبه.

وبما أن فكتوريا لا تملك الآن إلا ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات (إلا تسعة بنسات)، بالإضافة إلى خمسة جنيهات واثنين عشر شلناً في صندوق توفير البريد، فإن سفرها بالطريقة البسيطة المستقيمة كان أمراً مستحيلاً.

قامت بتحريات حول إمكانية حصولها على وظيفة مضيئة جوية، ولكنها فهمت أن هذه الوظائف يكثر حولها التنافس ولها قوائم انتظار طويلة. بعد ذلك قامت فكتوريا بزيارة وكالة غيلدريك حيث فيها الآنسة سبينسر وهي تجلس بثقة خلف مكتبها. حينها

كمن يحيي شخصاً كتب عليه طول التردد إلى هذه الوكالة بين الحين والآخر.

- يا إلهي! الآنسة جوتز... لا تقولي إنك تركت عملك من جديد. لقد كنت أمل - حقاً - أن تكون هذه الوظيفة الأخيرة...

قامعتها فكتوريا بحزم قائلة: وظيفة مستحيلة تماماً، لا يمكنني أن أشرح لك ما اضطررت إلى معاشته فيها.

احمزت وجنتا الآنسة سبينسر الشاحبتان على نحو جميل وقالت: أمل أن لا يكون... أرجو فعلاً أن لا يكون... إنه لم يبدُ لي حقاً من ذلك النوع من الرجال، ولكنه رجل فقط بعض الشيء بالطبع. أرجو أن لا يكون...

قالت فكتوريا: "لا الأمر على ما يرام"، ثم احتالت لإخراج ابتسامة باهتة شجاعة وأصافت: "أستطيع الاعتناء بنفسى جيداً". ثم ابتسمت ثالثة ابتسامتها الجريئة.

راجعت الآنسة سبينسر سجلاتها ثم قالت: جمعية سينت ليونارد لمساعدة الأمهات تريد طابعة، ولكنهم لا يدفعون الكثير بالطبع.

سألت فكتوريا بسرعة: أتوجد أية فرصة في الحصول على عمل في بغداد؟

قالت الآنسة سبينسر بدهشة محبة: في بغداد؟!

رأت فكتوريا أن رد فعل الآنسة سبينسر يوحي بأنها

طلبت وظيفة في القطب الجنوبي. قالت: إنني أود كثيراً الذهب إلى بغداد.

- لا أكاد أرى... أنقصدين الذهب بوظيفة سكرتيرة؟

- بأية وظيفة كانت، ممرضة أو طبّاخة أو للعناية بمجنون... بأي شكل كان.

هزت الأنسة سينسر رأسها نفيّاً وقالت: أخشى أن لا يكون لديّ الكثير من الأمل في ذلك. كانت هنا سيّدة بالأمس لديها ابتتان صغيرتان وطلبت اصطحاب أحد معها إلى أستراليا.

نَحْتُ فكتوريا أستراليا بإشارة من يدها ونهضت قائلة: إذا سمعتُ بأي شيء، مقابل أجرة الطريق فقط... هذا كل ما أحتاجه.

ثم أجابت على الفضول في عيني سينسر بأن قالت شارحة: إن لديّ... قرية هناك. وقد سمعت عن وجود وظائف ذات دخل مرتفع، ولكن على المرء طبعاً أن يذهب إلى هناك أولاً.

وعندما خرجت فكتوريا من وكالة غيلديرك كررت قائلة لنفسها: نعم، لا بد للمرء أن يذهب إلى هناك.

وقد ظهر عامل إزعاج جديد لفكتوريا، فكما هو معتاد عندما يركز المرء انتباهه فجأة على اسم أو موضوع معين، بدا لها أن كل شيء قد تواطأ فجأة ليفرض فكرة بغداد على ذهنها. ففي صحيفة المساء التي اشتريتها رأت فقرة قصيرة تقول إن الدكتور باونسفوت جوتز، عالم الآثار الشهير، قد بدأ التنقيب عن مدينة موريك الأثرية

التي تقع على بعد مئة وعشرين ميلاً من بغداد، وأنى إعلان في الصحيفة على ذكر خطوط الشحن البحري إلى البصرة (ومن هناك بالقطار إلى بغداد والموصل وغيرها من المدن)... وفي الصحيفة التي فرشت بها أرضية درج الجوارب استرعت انتباهها بضعة أسطر تتحدث عن الطلبة في بغداد... وكان فلم «النص بغداد» يُعرض في دار السينما القريبة... وفي المكتبة الراقية التي يتردد عليها كبار المثقفين (وكانت فكتوريا غالباً ما تتحدق إلى واجهتها) كانت تُعرض سيرة حياة جذبة لهارون الرشيد، خليفة بغداد.

وبدا لها أن بغداد قد أصبحت -فجأة- في بؤرة اهتمام العالم كله. ومع ذلك، فحتى الساعة الثانية الأربعاً من بعد ظهر ذلك اليوم لم تكن قد سمعت ببغداد، ولم تكن قد فكرت فيها أبداً بالتأكيد.

كانت احتمالات الوصول إلى هناك ضعيفة، ولكن لم تكن لدى فكتوريا فكرة بالاستسلام. كان لها عقل خصب ونظرة متفائلة تؤمن بأنك إذا ما أردت عمل شيء فستجد دوماً طريقة ما لعمله.

وقد استغلّت ليئتها في وضع قائمة بالطرق التي يمكن اتباعها. وقد جاء في القائمة:

المحاولة مع وزارة الخارجية؟

وضع إعلان؟

المحاولة مع الهيئة الدبلوماسية العراقية؟

ماذا عن شركات التمور؟

أو شركات شحن التمور؟

المجلس البريطاني؟

مكتب سيلفريدج للاستعلامات؟

مكتب تقديم المشورة للمواطنين؟

ولكنها اضطرت للاعتراف بأن أيًا من هذه الحلول لم يكن واعدًا، وعندها أصافت إلى القائمة:

وضع اليد بطريقة أو بأخرى على منة جنيته؟

تأخرت فكتوريا في النوم بسبب جهود التركيز الذهني الكثيف الذي بذلته في الليلة السابقة، وربما بسبب قناعتها اللاشعورية بأنها لم تعد مضطرة للحضور إلى المكتب في تمام التاسعة صباحاً.

استيقظت في الساعة العاشرة وخمس دقائق، فقفزت مباشرة من سريرها وبدأت بارتداء ملابس الخروج، وقد كانت تجري آخر عملية تمشيط لشعرها الأسود المتمرد عندما رن جرس الهاتف. ذهبت إليه لتجد على الجانب الآخر الآنسة سبنسر وهي في حالة انفعال: أنا في غاية السرور لأنني وجدتك يا عزيزتي؛ إنها -حقاً- واحدة من أغرب المصادفات.

صاحت فكتوريا: نعم؟

- إنها مصادفة مخيفة كما قلت. لقد كسرت امرأة تدعى السيدة كليب ذراعها، وهي تنوي السفر إلى بغداد بعد ثلاثة أيام. وهي تحتاج إلى من يساعدها في رحلتها... لقد اتصلت بك على الفور.

إنني لا أعلم -طبعاً- إن كانت قد لجأت إلى وكالات أخرى...

- أنا في طريقني إليها. أين هي؟

- في فندق السافوي.

- وما هو اسمها السخيف الذي قلته؟ تريب؟

- لا، بل كليب يا عزيزتي.

ثم اختتمت الآنسة سبنسر حديثها بالقول (وكان من شأن ذلك أن يفسر كل شيء): وهي أمريكية.

- السيدة كليب في السافوي؟

- بل السيد والسيدة كليب. لقد كان الزوج هو الذي اتصل بي عملياً.

قالت فكتوريا لمحدثتها: "أنت رائعة... وداعاً". ثم نظفت بدلتها بسرعة باستخدام فرشاة وهي تمنى لو أنها لم تكن على هذا القدر من البلى، ثم مشطت شعرها ثانية بحيث يبدو أقل تشابهاً وأكثر ملاءمة لدور ملاك الرحمة ودور المسافر الخبير، ثم أخرجت التوصية التي كتبها لها السيد غرينولتز وهزت رأسها أسفاً وهي تنظر إليها وقالت لنفسها: ينبغي أن أكون أفضل من ذلك.

نزلت فكتوريا من الحافلة رقم ١٩ في غرين بارك ودخلت فندق ريتز. كانت فكتوريا قد استفادت من نظرة سريعة ألقنها من فوق كتف امرأة تقرأ صحيفة في الحافلة، ولذلك فقد دخلت غرفة الكتابة في الفندق وكتبت لنفسها بعض أسطر المديح السخية برغم أنها جاءتها

من الليدي سينثيا براديري التي كتبت الصحيفة تقول إنها قد غادرت إنكلترا لتوها في طريقها إلى شرقي أفريقيا. كتبت فكتوريا: "... وهي رائعة في التمريض، وباللغة الكفاءة في كل شيء".

غادرت فندق ريتز وقطعت الشارع ثم مشت قليلاً في شارع أليمارل حتى وصلت إلى فندق بالدرتون، المعروف بأنه مأوى لكبار رجال الدين وأرامل الطبقة الريفية العليا. وهناك كتبت توصية من أسقف لانغو كانت أقل من التوصية السابقة فخامة ومظهرية. ثم استقلت الحافلة رقم ٩ متسلحةً بتلك التوصيات ومضت إلى فندق سافوي.

وفي قسم الاستقبال سألت فكتوريا عن زوجة هاملتون كليب، وأعطت اسمها باعتبارها قادمة من وكالة غيلدريك. وفيما كان الموظف على وشك رفع سماعة الهاتف توقف فجأة ونظر أمامه قائلاً: ها هو السيد هاملتون كليب.

كان السيد كليب أمريكياً بالغ الطول شديد التحول رمادي الشعر، وكان أسلوبه يتسم بالتهذيب والانقضاء المتمهل للكلمات.

أخبرته فكتوريا باسمها وأشارت إلى وكالة التوظيف فقال: آه، نعم يا آنسة جوائز. الأفضل أن تصعدي مباشرة وترى السيدة كليب. إنها ما تزال في جناحنا في الأعلى، وأظنها تجري مقابلة مع شابة أخرى، ولكن ربما كانت الشابة قد ذهبت الآن.

اعتصر دعرٌ شديد قلب فكتوريا. أَيْفَدُرُ لأميتها أن تكون على هذه الدرجة من القرب، وعلى هذه الدرجة من البعد أيضاً؟

صعد الاثنان بالمصعد إلى الطابق الثالث، وفيما هما يسيران في الممر المقروش بالسجاد السميك خرجت فتاة من أحد الأبواب عند نهاية الممر وجاءت باتجاههما. وقد اتاب فكتوريا نوع من الهلوسة التي رأت معها أنها هي تلك الفتاة التي تقترب، وفكرت في أن ذلك ربما كان بسبب بدلة الفتاة المفصلة يدوياً والتي كانت تماماً ما تمنى فكتوريا أن ترتديه شخصياً. وقالت لنفسها فيما يشبه العودة إلى الوحشية الأنثوية الغريزية: "كما أن من شأن البدلة أن تناسب حجمي تماماً، إننا من نفس الحجم. لَكَمْ أتمنى أن أنزعها عنها بالقوة".

عبرت الشابة أمامهما. كانت تضع قبعة مخملية صغيرة مائلة قليلاً على شعرها الأشقر بحيث تغطي وجهها جزئياً، ولكن السيد هاملتون كليب التفت لينظر إليها بشيء من الدهشة، ثم ما لبث أن قال هامساً: ما هذا... من كان سبتخيل هذا؟ أنا شيل.

ثم قال كمن يشرح تصرفه: اعذرني يا آنسة جوائز. لقد دهشت إذ ميزت شابة كنت قد رأيته في نيويورك منذ أسبوع فقط، وهي سكرتيرة لواحد من أكبر المصارف العالمية عندنا.

توقف عن الكلام عند باب في الممر. كان المفتاح مثبتاً في القفل، وبعد طرفة صغيرة على الباب فتحه السيد هاملتون ووقف جانباً ليسمح بدخول فكتوريا إلى الغرفة.

كانت السيدة كليب تجلس على كرسي مرتفع المستند قرب النافذة، وقد جفلت عند دخولهما. كانت امرأة قصيرة في خفة الطير

إنجاز أية أعمال سكرتاريا أو مراسلات، فإني عملت سكرتيرة
لعمي لعدة أشهر.

ثم أضفت بتواضع: إن عمي هو أسقف لانغو.

- عمك أسقف إذن. كم هو متع.

ورأت فكتوريا أن كلا الزوجين قد أعجبا بها بالتأكيد (وهو
ما كان ينبغي أن يحصل بعد كل ما يذمه من عناء!).

أعطت السيدة كليب التوصيتين لزوجها وقالت بتأثر: "يدو
ذلك رائعاً حقاً. نعمة من السماء. إن حضورك كان استجابة لكثير
من الدعاء". وفكرت فكتوريا أن ذلك كان فعلاً استجابة لدعاء كثير،
ولكنه دعاؤها هي وليس العكس.

سألت السيدة كليب: أأنت ذاهبة لتولي وظيفة ما هناك، أم
لتتحقي بقرى لك؟

لقد نسيت فكتوريا - في حماسة لها لتزوير التوصيات - أنها
قد تضطر لتفسير أسباب سفرها إلى بغداد. أما وقد أخذتها السيدة
كليب على حين غرة فقد كان عليها أن تمثل ارتجالاً وبسرعة. تذكرت
الفقرة التي قرأتها بالأمس فقالت: سوف ألتحق بعمي هناك... الدكتور
باونسفوت جونز.

- حقاً؟ عالم الأناث؟

- نعم.

تساءلت فكتوريا - للحظة - إن كانت قد بالغت في إحاطة نفسها

ذات عينين صغيرتين حادثين، وكانت ذراعها اليمنى ملفوفة بجيرة
من الجص.

عزفها زوجها على فكتوريا فهتفت بحماسة: آه، لقد كان
الحادث كله مؤسفاً. لقد كنا هنا نستمتع برؤية لندن، وكانت كل
خططنا مكتملة وتذاكرنا محجوزة. إني مسافرة لزيارة ابنتي المتزوجة
في العراق يا آنسة جونز، فانا لم أرها منذ قرابة العامين، وفجأة قُدر
لي أن أقع. كان ذلك في كنيسة وستمنستر... وقعت وأنا أنزل درجاً
حجرياً، وها أنا ذا كما ترين. هرعوا بي إلى المستشفى وجيروا
الكسر. صحيح أن الأمر ليس مزعجاً جداً، ولكنني عاجزة بعض
الشيء. كما ترين ولا أدري كيف سأندبر أمر السفر. وزوجي جورج
مرتبط بعمله تماماً ولا يستطيع تركه قبل مضي ثلاثة أسابيع على
الأقل، ولذلك اقترح علي أحمد ممرضة معي إلى هناك. وأنا - في
الحقيقة - لن أحتاج إلى ممرضة بمجرد وصولي هناك، فإبنتي سادي
بوسعه القيام بكل ما هو ضروري، بالإضافة إلى أن اصطحاب
ممرضة سيعني دفع أجور عودتها أيضاً. ولذلك فقد فكرت في
الاتصال بوكالات التوظيف لأرى إن كان بوسعي العثور على مرافقة
تأتي معي مقابل أجور سفرها فقط.

قالت فكتوريا: أنا لسْتُ ممرضة بالضبط.

قالت ذلك بلهجة استطاعت فيها أن توحي بأنها ممرضة في
الواقع. ثم أضافت: ولكن لدي الكثير من الخبرة في التمريض.

أخرجت التوصية الأولى وقالت: وقد جاءت تلك التجربة من
العمل مع الليدي ميثيا براديري لأكثر من عام. وإن كنت ترغبين

بالعديد من الأعلام المتميزين المشهورين، ولكنها مضت قائلة:
إنني شديدة الاهتمام بعمله، ولكنني لا أملك -بالطبع- أية مؤهلات
خاصة، ولذلك كان من المستحيل أن تدفع بعثة الآثار أجور سفري،
فهي ليست في وضع مالي جيد. ولكن إن استطعت السفر على
حسابي الخاص أمكنني الالتحاق بهم والقيام بدور مفيد معهم.

قالت السيدة كليب: لا بد أنه عمل ممتع جداً، ولا شك أن
بلاد الرافدين حقل هائل للأنشطة الأثرية.

التفتت فكتوريا إلى السيد هاملتون وقالت: أخشى أن عمي
الأسقف مسافر إلى سكوتلاند في الوقت الحاضر، ولكنني أستطيع
إعطائك هاتف سكرتيرته، فهي في لندن حالياً، ورقمها هو ٨٧٦٩٣.
ستجدها هناك ما بين الساعة... (اختلست فكتوريا نظرة إلى الساعة
على رف الموقد) ١١،٣٠ فما فوق، إن كنت تريد الاتصال بها
وسؤالها عني.

قالت السيدة كليب: آه، إنني واثقة...

ولكن زوجها قاطعها قائلاً: الوقت قصير جداً؛ فتلک الطائرة
تغادر بعد غد. هل لديك جواز سفر يا آنسة جونز؟

- نعم.

حدثت فكتوريا الله على أن جواز سفرها كان مجدداً بسبب
إجازة قصيرة قضتها في فرنسا في العام الماضي. أضافت تقول: لقد
أحضرتة معي خشية الحاجة إليه.

قالت السيدة كليب باستحسان: هذا ما أسميه التصرف
العملي.

ولو كانت توجد أية مرشحة أخرى لهذه الوظيفة لثم استبعادها
الآن؟ فقد بدا واضحاً أن فكتوريا -بما تملكه من توصيات جيدة
وأعلام وجواز سفر جاهز- قد حققت المراد.

قالت السيدة كليب وهي تأخذ الجواز: سنتحاجن للتأشيرات
المطلوبة. سوف ألبأ إلى صديقنا، السيد بيرجن، في شركة أميريكان
إكسبرس، وسوف يتولى هو تأمين كل شيء. ربما كان من الأفضل أن
تأتي عصر اليوم بحيث يمكنك أن توقعي كل ما يحتاج إلى توقيع.
وهذا ما وافقت فكتوريا على القيام به.

وعندما أغلقت باب الغرفة خلفها سمعت السيدة كليب تقول
لزوجها: يا لها من فتاة لطيفة مستقيمة! إننا محظوظون حقاً.

تلطفت فكتوريا وتركت وجهها يحمز خجلاً. ثم عادت إلى
شقتها وزرعت نفسها قرب الهاتف مستعدة لتسلي اللهجة الجلييلة
المهذبة لسكرتيرة الأسقف المفترضة في حال سعى السيد كليب
للحصول على تأكيد لغدائها، ولكن بدا واضحاً أن السيدة كليب
قد أعجبت بشخصية فكتوريا المستقيمة إلى الحد الذي لا تريد معه
إزعاج نفسها بثلک الصغائر الفنية. فلم تكن الوظيفة لتعدو -في نهاية
الأمر- بضعة أيام من رفقة السفر.

بعد ذلك تم ملء الأوراق وتوقيعها والحصول على التأشيرات
الضرورية، وطلب من فكتوريا أن تقضي الليلة الأخيرة في فندق

سافوي بحيث تكون قرية جاهزة لمساعدة السيدة كليب في النهوض
عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي والذهاب إلى مركز خطوط
الطيران ومن ثم إلى مطار هينرو.

* * *

الفصل الخامس

تهادى على شط العرب المركب الذي غادر الأهوار قبل
يومين. كان التيار سريعاً، ولم يكن الرجل الذي يدفع المركب
بحاجة إلى القيام بجهد يذكر. كانت حركانه هادئة إيقاعية، وعيناه
نصف مغمضتين، ومن بين أسنانه كان يغني بكل رقة موالاً عربياً
حزيناً لا ينتهي:

اسري بليل يا جملي،

هذي لك يا بن علي.

وهكذا كان عبد السلیمان (وهو من عرب الأهوار) قد قطع
النهر في مناسبات سابقة لا حصر لها نزولاً إلى البصرة. وكان في
المركب رجل آخر، رجل ذو هيئة غالباً ما تُرى في هذه الأيام وقد
خالطت الشرق والغرب في ثيابه بشكل يدعو إلى الشفقة، فقد
ارتدى فوق رداءه الطويل من القطن المخفط سترة خاكية متروكة
قديمة ممزقة، وحشر تحت السترة البالية وشاحاً أحمر بهت لونه،
وعلى رأسه بدت من جديد غزة اللباس العربي، الكوفية التي لا بد
منها بلونيهما الأبيض والأسود التي يشنها العقال الحريري الأسود.

كان يسرح بعينه الشاردتين دون تركيز على ما حول النهر، وسرعان ما بدأ هو الآخر يدمم بنفس اللحن. كان رجلاً كآلاف الرجال الذين يصادفهم المرء في بلاد الرافدين. لم يكن فيه ما يوحي بأنه إنكليزي وبأنه يحمل معه سرّاً يسعى أصحاب نفوذ في كل بلد في العالم تقريباً إلى الحيلولة بينه وبين إيصاله، وإلى كتمه وكنم أنفاس من يحمله.

عاد بذهنه ليستعرض الأسابيع القليلة الماضية بشكل مشوش: الكمين في الجبال... برودة الثلج وهو يهوي فوق الوادي... قافلة الجمال... الأيام الأربعة التي قضاهائها على قدميه في الصحراء الجرداء ويصحبته رجلان يحملان «سينما» محمولة... الأيام التي قضاهما في الخيمة السوداء، وترحاله مع قبيلة غزّة التي يرتبط معها بصداقة قديمة. كانت كلها أياماً صعبة، أياماً محفوفة بالخطر... وهو يتلمص مرة بعد مرة من الطوق الأمني الذي تم نشره للبحث عنه واعتراض سبيله.

«هنري كارمايكل، عميل إنكليزي، عمره في نحو الثلاثين، شعره بني، عيناه سوداوان، طوله ١٧٦ سم. يتكلم العربية والكردية والفارسية والأرمنية والهندوستانية والتركية، بالإضافة إلى العديد من اللهجات الجبلية. له صداقات مع زعماء القبائل. خطير».

ولّد كارمايكل في كاشغار حيث كان أبوه موظفاً حكومياً، وكان لسانه قد درج وهو طفل على العديد من اللهجات وأساليب الكلام المحلية. كانت مربياته (وخدمه فيما بعد) من قوميات مختلفة، وله صداقات في كل مجاهل الشرق الأوسط تقريباً.

لم تكن صلاته وعلاقاته لتخذه إلا في المدن الكبيرة، وقد عرف الآن -وهو يقترب من البصرة- أن اللحظة الحرجة لمهمته قد أزفت. لا بد له -عاجلاً أو أجلاً- من الدخول ثانية إلى مناطق الحضر، ومع أن بغداد كانت وجهته النهائية، فقد قدر أن من الحكمة أن لا يأتي إليها مباشرة. في كل بلدة في العراق كانت تنتظره بيوت وأماكن تمت دراستها وإعدادها قبل أشهر عديدة، وقد تم الاتفاق على أن يُترك لتقديره الخاص أن يحدد أين سيحط رحاله، إذا صح التعبير. لم يكن قد أرسل أي خبر لرؤسائه، حتى من خلال القنوات غير المباشرة التي كان يوسعه استخدامها لذلك؛ فقد كان ذلك آمن له. كانت الخطة السهلة (التي تقضي بأن تنتظره الطائرة في الموعد المحدد) قد فشلت كما توقع لها، فقد عرف أعداؤه بذلك الموعد. التسرب... العلة دوماً في ذلك الأمر القاتل غير المفهوم... في التسرب.

وقد بلغ الأمر به حدّاً جعل مخاوفه من الخطر تتفاقم الآن. قهنا في البصرة، حيث المنظر الذي يوحي بالآمان، أحس بثقة غريزية بأن الخطر سيكون أكبر مما تعرض له خلال مجازفات رحلته الخطيرة. وأن يأتي ليفشل في المرحلة الأخيرة أمر لا يكاد يستطيع التفكير فيه.

وفيما كان العربي المعجوز يجذب بشكل إيقاعي، قال دون أن يلتفت: لقد اقتربت اللحظة يا بني... الله يحفظك.

تمنى -للحظة- لو أنه كان ذا دماء شرقية لا غربية، كيلا يقلق على فرص النجاح والفشل، وكيلا يحسب المخاطر مرات عديدة

وهو يسأل نفسه إن كان تخطيطه سليماً يتسم ببعد الرؤية، وحتى يقول لنفسه بثقة أهل الشرق: إن شاء الله سأنجح!

بمجرد ترديد الكلمات مع نفسه غمرته سكينه البلد وتسللها بالقدر، وقد رحب بهذا الشعور. إن عليه أن ينزل من القارب بعد لحظات، وأن يمشي في شوارع المدينة تحفّ به نظرات الأعين الثاقبة. لن يكون بوسع أن ينجح إلا إذا شعر بشعور العربي، ولم يكتب فقط بالظهور بمظهر العربي.

انعطف القارب بهدوء إلى يمين النهر، وهناك كانت جميع أنواع القوارب والمراكب مربوطة على الشاطئ، وكانت قوارب أخرى تدخل قبل مركبها وبعده. كان منظرًا جميلًا يكاد يماثل مناظر البندقية، حيث المراكب بمقدماتها المنتصبة المزركشة والألوان الهادئة الباهتة لدهانها. كانت هناك مئات من المراكب مربوطة بعضها قرب بعض.

سأل العجوزُ بسرعة: لقد حانت اللحظة، هل توجد ترتيبات مهيّنة لك؟

- نعم؛ الحقيقة أن خططي قد وُضعت. لقد جاءت ساعة مغادرتي.

- فليسهل الله لك طريقك، ولْيُطِل في عمرك.

جمع كارمايكل حوله أنواره المقلّمة وصعد الدرجات الحجرية الزلقة إلى الرصيف الذي كان ينتشر حوله الناس الذين يجدهم المرء عادة في الموانئ؛ صبية صغار، وباعة يرتقال يجلسون قرب صواني

بضاعتهم، ومشاة غارقون في تأملاتهم يسرون على غير هدى ويسعلون بصوت عالٍ من وقت لآخر، وهم يتجولون ومسابحهم تطلق في أيديهم. وفي الجانب الآخر من الشارع، حيث المحلات والمصارف، يمشي بسرعة شباب «أفندية» يرتدون بدلات أوروبية تميل ألوانها قليلاً إلى الحمرة. كما كان هناك أوروبيون أيضاً، من الإنكليز والأجانب. ولم يبد أي اهتمام واضح أو فضول لمجرد أن عربياً من ضمن خمسين غيره قد صعد ثلوه من القارب إلى الشاطئ.

مشى كارمايكل بكل هدوء في الشارع كمن لا هدف له، وعيناه تسوعبان المشهد بالقدر المناسب تماماً من الفرح الطقولي بما يراه حوله، وبين فينة وأخرى كان يسعل دون إصدار صوت مبالغ به، بل لمجرد وضع نفسه في إطار المشهد حوله.

وهكذا اقترب الغريب من المدينة، ووصل الجسر في أعلى الفناء فعبه ودخل السوق. وهنا كان الجو كله حركة وضوضاء؛ كان رجال القبائل النشيطون يشنون ويدفعون الآخرين عن طريقهم، والحمير المحملة تشق طريقها وأصحابها يصيحون بصوت عالٍ: "بالك... بالك..."، والأطفال يتشاجرون ويصرخون ويركضون خلف الأوروبيين وهم يتنادون بأمل: "بخشيش مدام، بخشيش... مسكين، مسكين...".

هنا كانت منتجات الغرب والشرق تُعرض للبيع جنباً إلى جنب: أوانٍ من الألمنيوم، وصحون وفناجين وأباريق شاي، وأوانٍ من النحاس المطروق، وتحف فضية، وساعات رخيصة، وأكواب

وقف كارمايكل هناك يتلمس الفروء، ثم سأل: بيش هذا؟

- سبعة ذنانير.

- هذا كثير.

قال الحاج: سنرسل لي السجادات إلى خاني؟

أجابه التاجر: بالتأكيد. هل ستسافر غداً؟

- نعم، فجراً إلى كربلاء.

قال كارمايكل: كربلاء مدينتي. لقد مرت خمس عشرة سنة منذ

أن رأيت قبر الحسين آخر مرة.

قال الحاج: إنها مدينة مقدسة.

قال التاجر وهو يلمظ إلى كارمايكل: توجد فروات أرخص

في الغرفة الداخلية.

- إنني أحتاج فروء بيضاء من فروات الشمال.

قال التاجر وهو يشير إلى باب في الجدار الداخلي: عندي

واحدة منها في الغرفة الأخيرة.

لقد مضت العملية بالطريقة المتفق عليها... حديث كأني حديث

يمكن أن يُسمع في أي سوق، ولكن التسلسل كان مضبوطاً تماماً...

كل الكلمات الأساسية كانت موجودة: كربلاء... الفروء البيضاء...

إلا أن كارمايكل -وهو يعبر داخلًا إلى الغرفة الداخلية- رفع

بصره إلى وجه التاجر، وعرف فوراً أن الوجه ليس هو الوجه الذي

مطلية بالمينا، وسجاد ذو نقشات بهيجة من إيران، وصناديق أمتعة من الكويت، ومعاطف وسراويل وملابس أطفال مستعملة، وكُحُف محلية الصنع، ومصاييح زجاجية ملونة، وكوم من الأباريق والجرار الفخارية... كل ما تنتجه الحضارة من البضاعة الرخيصة جنباً إلى جنب مع السلع المحلية.

كل شيء طبيعي جداً واعتيادي. لقد بدا هذا القدر من النشاط والفوضى غريباً لكارمايكل بعد الفترة الطويلة التي قضاها في القفار غير المأهولة، ولكن ذلك كله كان كما ينبغي له أن يكون. ولم يستطع أن يميز أي أمر غير طبيعي أو أي أثر للاهتمام بوجوده، ومع ذلك فقد كانت غريزته غريزة امرئ عرف لسنوات طويلة معنى أن يكون مطارداً، وقد أشعرته غريزته الآن بعدم ارتياح متزايد... بإحساس غامض بالخطر. لم يستطع العثور على أي شيء خارج عن المألوف. لم ينظر إليه أحد، كما كان واثقاً أن أحداً لا يتبعه ولا يضعه تحت المراقبة، ومع ذلك كان يتأهب ذلك اليقين الذي يصعب تعريفه بوجود الخطر.

التفت ودخل في زقاق معتم إلى يساره، ثم استدار إلى زقاق آخر شمالاً، وهنا وصل إلى مدخل خان يتصبب بين الأشكال. دخل من الباب إلى باحة الخان الداخلية التي كانت محاطة بالمحلات من كل جانب، ثم ذهب إلى محل منها كان يعلّق قطعاً من الفرو أشبه بالمعاطف المصنوعة من جلد خراف الشمال. وقف هناك يتفحص الفرواء بدقة. كان صاحب المحل يقدم القهوة لأحد زبائنه، وكان الزبون رجلاً طويلاً ملتحمياً ذا حضور رائع بلفّ قماشاً أخضر حول طربوشه مما يدل على أنه كان حاجتاً عاد لتوه من مكة.

توقع رؤيته. ورغم أنه لم يرَ ذلك الرجل تحديداً إلا مرة واحدة من قبل، إلا أن ذاكرته الحادة لم تكن مخبطة. يوجد شبه بين الاثنين، بل شبه كبير جداً، ولكنه لم يكن نفس الرجل.

توقف ثم قال بشيء من الدهشة الخفيفة: أين صلاح حسن إذن؟

- لقد كان أخي، وقد مات منذ أيام، وأنا أتولى شؤونه الآن.

نعم، ربما كان هذا أخاً، فالشبه قريب جداً. ومن الممكن أن يكون الأخ -أيضاً- مُستخدماً من قبل القسم؛ فالأجوبة كانت صحيحة دون شك. ومع ذلك فقد دخل كارمايكل الغرفة الداخلية بانبياهِ إضافي. وهنا أيضاً كانت البضاعة مكسبة على الرفوف؛ دلال قهوة، ومطاحن سكر نحاسية، وأوان إيرانية قديمة من الفضة، وأكوام من المظفرات والعباءات الملفوفة وأطقم شاي دمشقية مقطعة بالمينا.

كانت هناك فروة بيضاء ملفوفة بعناية بمفردها على طاولة شاي صغيرة. ذهب كارمايكل إليها وأخذها، وكانت تحتها بدلة أوروبية فاقعة اللون قليلاً كاد البلى يلحقها، وكانت المحفظة التي تحتوي على المال والأوراق الثبوتية موضوعة في جيب صدر البدلة. لقد دخل إلى المحل عربياً مجهولاً، ولن يلبث أن يخرج منه سيداً اسمه ولتر وليامز من شركة كروس للاستيراد والشحن لينتقم بعض المواعيد التي أعدت له مسبقاً. لقد كان يوجد رجل حقيقي باسم ولتر وليامز بالطبع. إلى هنا بلغ الحرص، وكان ذلك الرجل ذا ماضٍ

تجاري محترم ومعروف. كل شيء يسير -إذن- وفق الخطة. وبدأ كارمايكل يثقل أزراره سترته العسكرية متنهداً بارتياح، فكل شيء على ما يرام.

ولو كان الاختيار قد وقع على المسدس كسلاح لكانت مهمة كارمايكل قد انتهت هنا وفي هذه اللحظة، ولكن للسكين فوائدها... وأهمها عدم إصدار أصوات.

على الرف -أمام كارمايكل- وُضعت دلة كبيرة للقهوة، وكانت تلك الدلة قد نُشعت حديثاً بناءً على طلب زيون أمريكي كان سيأتي لأخذها، وهكذا انعكست النضاعة السكين على ذلك السطح اللامع المكون. انعكست على دلة القهوة صورة كاملة، مشوهة ولكنها واضحة. الرجل الذي انسل من بين الثياب المعلقة خلف كارمايكل والسكين الطويلة المنحنية التي استلها لنوه من بين ملباسه... وكان من شأن تلك السكين أن تنغرس بعد لحظة في ظهر كارمايكل.

استدار كارمايكل بلمح البصر، وبضراع صامت قصير استطاع أن يطرح الرجل أرضاً، وطارَت السكين عبر الغرفة. خلص كارمايكل نفسه بسرعة وفقر من فوق الرجل الممدد، ثم اندفع خارجاً عبر الغرفة الخارجية حيث لمس الوجه الحاقق المضغوط للتاجر والدهشة الهائلة للحاج السمين. ثم خرج عابراً البخان ليدخل من جديد إلى السوق المزدهم، ثم استدار في اتجاه معين، ثم في اتجاه آخر، وعاد الآن ليمشي دون إيذاء أية علامة للمعجلة في بلد تبدو فيه العجلة أمراً غير عادي.

وهكذا مشى على غير هدى تقريباً، متوقفاً بين حين وآخر

ليتفحص بضاعة معينة أو ليلمس قماشاً، بينما كان ذهنه يعمل بشكل محموم. لقد انهارت الخطة! وما هو مرة أخرى بمفرده في أرض عدوة. وقد كان مدركاً للمغزى السيء لما حدث قبل قليل.

إن ما يخشاه لم يكن أعداءه الذين يلاحقونه، ولا أولئك الأعداء الذين يسدون عليه سبل الوصول إلى الحضرة، ولكن كان ثمة أعداء عليه أن يخشاهم داخل المؤسسة نفسها! لأن كلمات السر قد عُرفت وجاءت الإجابات جاهزة صحيحة، وقد جاء توقيت الهجوم دقيقاً في نفس اللحظة التي يكون فيها قد أُستدرج للشعور بالاطمئنان. ربما لم يكن من المدهش وجود خيانة من الداخل. لا بد أن هدف الأعداء كان -دوماً- محاولة إدخال أحد عناصرهم إلى داخل المؤسسة أو ربما شراء الشخص الذي يحتاجونه. إن شراء رجل مسألة أسهل مما قد يخيل للمرء... ويمكن للمرء أن يشتري بأشياء أخرى غير المال.

حسناً، لقد حدث ذلك، بغض النظر عن طريقة حصوله. ها قد عاد للهروب والتنقل... لا معين له إلا إمكانياته الذاتية، دون مال، ودون مساعدة من شخصية أخرى، وبمظهره الذي غدا معروفاً. بل ربما كان أحد يتبعه في هذه اللحظة نفسها.

لم يلتفت، فما فائدة الالتفات؟ إن من يتبعونه لم يكونوا مبتدئين في هذه اللعبة. استمرّ في المشي بهدوء ودون هدف، ولكنه -خلف سلوكه الكسول الظاهر- كان يدرس احتمالات مختلفة. وأخيراً خرج من السوق وعبرَ الجسر الصغير فوق القناة، وظل يشي إلى أن رأى تلك اللوحة الكبيرة المكتوبة فوق المدخل: «القنصلية البريطانية».

نظر بمتة ويسرة إلى الشارع. لم يبدُ أن أحداً يعيره أي انتباه. وبدا له أن من السهل جداً أن يتسلل إلى القنصلية البريطانية. فكّر للحظة، فكّر بمصيدة فتران... مصيدة فتران منصوبة وفيها قطعة الجبن المغرية. تلك المصيدة أيضاً تراها الفأرة سهلة ميسورة!

ولكن لا بد من الإقدام على المجازفة. لم ير شيئاً آخر يوسعه أن يفعله، فدخل البوابة.



ذهب إلى فندق المطار وسأل عن كيفية الذهاب إلى الكويت
فقبل له إن طائرة تغادر في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي،
وإن يوسعه العودة في اليوم التالي، وهكذا كان كل شيء واضحاً
ميسوراً، باستثناء الإجراءات الشكلية التي لا بد منها، كتأشيرة
الخروج وتأشيرة الدخول إلى الكويت، ومن أجل تجاوز ذلك كان
عليه أن يلجأ إلى القنصلية البريطانية. وقد سبق لريتشارد أن التقى
في إيران -قبل بضع سنوات- بالقنصل العام الحالي للبصرة، السيد
كلايتون، ورأى أنه سيكون من المفرج أن يراه الآن مرة أخرى.

كانت للقنصلية مداخل عدة: بوابة كبيرة لدخول السيارات،
وبوابة صغيرة أخرى يمر الطريق إليها بحديقة القنصلية خروجاً إلى
الطريق الممتد على طول شط العرب. أما المداخل الرسمي (لأغراض
العمل) فكان على الشارع العام.

دخل ريتشارد، وأعطى ببطاقته إلى الموظف المناوب فقبل
له إن القنصل العام مشغول حالياً ولكنه سيفرج قريباً، ثم تم إدخاله
إلى غرفة انتظار صغيرة إلى يسار الممر الذي يخترق القنصلية من
مدخلها وصولاً إلى الحديقة في الطرف الآخر. وكان في غرفة
الانتظار -أصلاً- عدة أشخاص لم يكدر ريتشارد يغيرهم التفاتاً،
إذ نادراً ما كان يهتم بأفراد الجنس البشري، ولعل قطعة من الفخار
الأثري القديم كانت تثير فيه من الحماسة أكثر مما يثيره شخصٌ وُلد
في مكان ما في القرن العشرين بعد الميلاد.

سرح بأفكاره سعيداً يفكر في بعض ملامح أبجدية ماري
وفي تحركات القبائل المحلية عام ١٧٥٠ قبل الميلاد. ولعل من

الفصل السادس

جلس ريتشارد بيكر في المكتب الخارجي للقنصلية البريطانية
منتظراً فراغ القنصل من عمله.

كان قد نزل البر من المركب المسمى «إنديان كوين» في ذلك
الصباح وأشرف على إخراج أمتعته من الجمارك، وكان جل تلك
الأمثلة من الكتب، كما تم حشر بعض ثياب النوم والقمصان بين
الكتب وكأنها كان ذلك استدراكاً منه.

كان المركب قد وصل في وقته المحدد، ربما أن ريتشارد كان
قد استبق موعد عودته ببومين (تحسباً من التأخير الذي كان عادةً في
المراكب الصغيرة من طراز إنديان كوين) لذلك فقد وجد أمامه بومين
قبل أن يضطر لاستكمال طريقه -عبر بغداد- إلى وجهته النهائية،
وهي تل أشوؤ، موقع مدينة موريك الأثرية.

وكان قد وضع خططه أصلاً لنشاطه خلال هذين البومين؛
فقد أثار فضوله دوماً تلّ الشهير عنه احتواؤه آثاراً قديمة قرب شاطئ
الكويت، وقد جاءت هذه الفرصة من السماء للبحث في ذلك التل.

الصعب التحديد الدقيق للشيء الذي صحّاه على إحساس حي قوي بالحاضر وبإخوانه من بني البشر. كان الأمر -في البداية- شعوراً بسيطاً بالتململ وبشيء من التوتر، ورأى أن هذا الإحساس قد جاءه عبر أنفه، رغم أنه لم يكن واقعاً من ذلك. لم يكن شعوراً يمكن وصفه بكلمات محددة... ولكنه كان موجوداً بالتأكيد، وقد أعاده ذلك الشعور إلى أيام قضائها في الحرب الأخيرة. أعاده إلى مناسبة معينة بالتحديد هبط فيها -هو وإثنان من أصحابه- من الطائرة بالمظلات، وانتظر هو وأصحابه في ساعات الفجر الباردة حتى يحين موعد مهمتهم. كانت لحظة انخفضت فيها المعنويات وتمثلت لهم بكل وضوح المخاطر الكاملة لما هم مقدمون عليه، لحظة رعب خشية أن لا يكون المرء على مستوى مهمته، لحظة يقلص فيها الجسد. إن في الجو الآن نفس ذلك الإحساس الحاد المرير الذي لا يكاد يبين... راتحة خوف!

لبضع لحظات لم يتم تسجيل هذا الانطباع إلا في اللاشعور. كان نصف عقله يسعى -بغناد- لإبقاء تركيزه على ما قبل الميلاد، ولكن إلحاح الحاضر كان أعظم من أن يُجاهل.

إن أحد الموجودين في هذه الغرفة الصغيرة بحس برعب قاتل!

نظر حوله، فرأى رجلاً عربياً في سترته المخاكية البالية وأصابعه تعبت بكسل بحبات سبعة الكهرمان التي يحملها، ورجلاً إنكليزياً ذا شارب رمادي يعيل إلى البداية، كان من نمط التجار المتجولين وكان يسجل بعض الأرقام في دفتر ملاحظات وقد بدا غارقاً في ذلك

وموحياً بالأهمية، ورجلاً نحيلاً متعب الهيئة شديد السمره يتكن في كرسية إلى الخلف في جلسة هادئة ووجهه هادئ القسمات لا يوحي بأي اهتمام، ورجلاً بدا وكأنه موظف عراقي، وآخر إيرانياً كهلاً يرتدي ثياباً فضفاضة بيضاء كالثلج... جميعهم يبدون غير مهتمين.

انتظمت مطلقات كهرمان السبعة في إيقاع محدد، وبدا ذلك مألوفاً بطريقة غريبة. حرك ريتشارد نفسه ليشحذ انتباهه، فقد كان نصف نائم. معترضة... نقطة... معترضة... نقطة... إنها شيفرة مورس، الشيفرة البرقية التي ابتدعها مورس بالتأكيد. كان ذا خبرة بشيفرة مورس؛ فقد تعامل معها كجزء من واجبه أثناء الحرب، ويمكن له أن يترك رموزها بسهولة. ب.م.م... بومة... إي.ت.ون... إيتون... بومة إيتون! يا له من أمر غريب! نعم، هذا هو معناها! وقد تكررت... «بومة إيتون». كان ذلك هو الاسم الذي أطلق عليه عندما التحق بكلية إيتون وهو يضع نظارة ضخمة جداً ذات زجاج سميك، وها هو الاسم الآن يرسله (أو بالأحرى يقطعه) أعرابي جلف رث الثياب! ما هذا؟

نظر عبر الغرفة إلى العربي متأملاً كل صغيرة وكبيرة في هيئته: الثوب المخطط... والسترة المخاكية القديمة... والوشاح الأحمر المشوج باليد نسجاً سيناً مليئاً بالثرعات. لا يعدو ذلك أن يكون رجلاً مثقناً يرى المرء مئات منهم قرب الموانئ. والثقت عين الرجل بعينه بفراغ لا يدل على أي تمييز له، ولكن حبات السبعة استمرت تطلق: «فقير هنا، ساعدني، مشكلة».

فقير؟ فقير؟ نعم، بالطبع! الفقير كارماكل! تلك هي الصفة

بذراع الرجل البدين، أما الآخرون الذين كانوا في الغرفة فقد وقف أحدهم منفصلاً يرتعد، وظل الرجل الأسمر والإيراني الكهل يحدقان دون تحريك ساكن.

قال ريتشارد: ماذا تفعل يا رجل، ملوّحاً بمسدس على هذا الشكل؟

سادت لحظة صمت قصيرة، ثم قال الرجل السمين بلهجة لندنية شاكية: آسف يا صاحبي. كان ذلك مجرد حادث عرضي؛ سوء تصرف مني.

هراء. كنت تريد إطلاق النار على ذلك الرجل العربي الذي هرب لتوه.

لا، لا يا صاحبي، لم أرد إطلاق النار عليه. أردت تخويفه فقط. لقد ميزته - فجأة - بأنه الرجل الذي خدعني في تحفة ابتعتها منه. كانت مجرد تسليية.

كان ريتشارد يكرر رجلاً شديد التحرز يكره كل أنواع القضاة، وقد دفعته غريزته إلى تقبل ذلك التفسير على ظاهره وعلاته. إذ ما الذي يمكنه إثباته في نهاية الأمر؟ وهل من شأن كارمايكل الفقير أن يشكره على إثارة ضجة كبرى حول هذه القضية؟ الأرجح أن لا يشكره إن كان في مهمة سرية تتطلب الكتمان.

أرعى ريتشارد قبضته عن ذراع الرجل ملاحظاً أنه أصبح يسبح في عرقه، أما الخادم فتكلم بالتفاعل قائلاً إن إحضار أسلحة نارية إلى

التي ألحقوها باسم كارمايكل؛ لأنه وُلد في مكان نام ما من هذا العالم... تركستان أو أفغانستان؟

أخرج ريتشارد غليونه وسحب ذيله ثم نظر إلى تجويفه وأخذ ينقره في متفظة سجاثر قديمة وكأنه يريد تفريقه، وكانت نقرات الغليون تقول: «استلمت الرسالة».

بعد ذلك حدثت الأمور بسرعة كبرى، وقد نعب ريتشارد لاحقاً في محاولة ترتيبها؛ فقد نهض العربي ذو السترة الخاكية البالية وعبر الغرفة باتجاه الباب، وترنح وهو يمر بالقرب من ريتشارد، فامتدت يده وأمسكت بريتشارد لكي يوازن نفسه، ثم اعتدل واعتذر ومشى باتجاه الباب.

كان ما حدث عندها عذوهاً وسريعاً بحيث بدا الأمر لريتشارد أشبه بمشهد سينمائي منه بمشهد من الحياة الواقعية؛ فقد قذف التاجر المتجول السمين دفتر ملاحظاته وبحث عن شيء في جيب معطفه، ولكن بدائه وضيق معطفه عليه أخرجه بضع ثوانٍ عن إخراج ذلك الشيء. وفي هذه الثواني القليلة تصرف ريتشارد، فما أن أخرج الرجل المسدس حتى هاجمه ريتشارد فأوقع المسدس من يده، وانطلق المسدس لتستقر طلقه في أرض الغرفة.

كان العربي قد خرج من الغرفة واستدار باتجاه غرفة القنصل، ولكنه توقف فجأة ثم عاد وركض بسرعة في الاتجاه المعاكس ليخرج من الباب الذي دخل منه إلى الشارع المزدحم.

هرع خادم القنصل إلى جانب ريتشارد الذي كان يقف مسكناً

القنصلية البريطانية أمر خاطئ جداً وغير مسموح به، وإن القنصل سيغضب كثيراً لذلك.

قال الرجل البدوي: "إنني أعتذر. مجرد حادث صغير..." ثم دس بعض النقود في يد الخادم الذي أعادها إليه بسخط، فعاد الرجل ليقول: الأفضل أن أخرج من هنا... لن أنتظر رؤية القنصل.

ثم دفع فجأة ببطاقة إلى ريتشارد وقال: هذه بطاقتي، وأنا موجود في فندق المطار إن حدثت أية تطورات، ولكن الأمر كان مجرد حادث في الواقع... مجرد مزحة إن كنت تفهم ما أعنيه.

ويتردد راقبه ريتشارد وهو يخرج من الغرفة بشيء من عدم الارتياح ويمضي إلى الشارع. أمل أن يكون قد تصرف بالشكل الصحيح، ولكن كان من الصعب على الممرء أن يعرف التصرف الصحيح وهو يجهل كل شيء كما كان شأنه.

قال الخادم: "لقد فرغ السيد كلايتون الآن"، فبعثه ريتشارد في الممر، وكان ضوء الشمس يزداد كلما اقتربا من غرفة القنصل التي كانت آخر غرفة على الجهة اليمنى من الممر.

كان السيد كلايتون جالساً خلف مكتبه، وكان رجلاً هادئاً أشيب الشعر ذا وجه دائم التفكير. قال له ريتشارد: لا أدري إن كنت تتذكرني؟ لقد قابلتك في طهران قبل عامين.

- طبعاً أتذكر. كنت مع الدكتور باونسفوت، أليس كذلك؟ هل ستضئم إلي مرة أخرى هذا العام؟

- نعم، أنا ذاهب إليه الآن، ولكن لدي يومين لا عمل لي فيها، وقد أردت السفر إلى الكويت. أنظن أن في ذلك صعوبة؟

- آه، لا، ستقل طائرة صباح غد، ولا يستغرق الأمر أكثر من ساعة ونصف. سأبرق لأركي غوت... إنه الموظف المقيم لنا هناك، وسوف يستضيفك عنده، وستستضيفك نحن هنا الليلة.

قال ريتشارد بشيء من الاحتجاج: آه، لا أريد إزعاجكما أنت والسيدة كلايتون، بوسعي الذهاب إلى الفندق.

- إن فندق المطار مثلي عن آخره، وسوف يسعدنا أن نستضيفك هنا. أنا واثق أن زوجتي ستسعد بلقائك مرة أخرى. إننا نستضيف حالياً السيد كروسي من شركة النفط وشاباً مساعداً للدكتور راثبون جاء إلى هنا للتخليص على بعض صناديق الكتب في الجمارك. هيا إلى الطابق العلوي لترى روزا.

ثم نهض ورافق ريتشارد خروجاً من الباب إلى الحديقة المشمسة، ثم صعد الاثنان درجاً يقضي إلى جناح المعيشة في القنصلية. دفع جيرالد كلايتون باباً من السلك المشبك عند أعلى الدرج وقاد ضيفه إلى مدخل طويل معتم قليلاً على أرضيته سجاد جميل وعلى جانبيه أثاث يدل على الذوق، وقد ارتاح ريتشارد لدخوله هذه العنمة الباردة بعد وهج الشمس في الخارج.

نادى كلايتون زوجته التي كان ريتشارد يتذكرها كشخصية مرححة ذات حيوية فائقة، وسرعان ما خرجت السيدة كلايتون من غرفة في نهاية الممر.

- هل تذكرين السيد ريتشارد بيكر يا عزيزتي؟ لقد سبق له أن زارنا برفقة الدكتور باونسفوت جونز في طهران.

قالت السيدة كلايتون وهي ترحب بضيفها: بالطبع، وقد ذهبتنا معاً إلى السوق واشترت أنت بعض السجاد الرائع.

كانت السيدة كلايتون -عندما لا يتاح لها الشراء شخصياً- تجد لذة في حث أصدقائها ومعارفها على الشراء من الأسواق المحلية، وكانت لها خبرة هائلة في قيمة الأشياء، بالإضافة إلى كونها مفاوضة بارة في الشراء.

قال لها ريتشارد: لقد كانت تلك أفضل عملية شراء أبرمتها في حياتي، والفضل كله يعود إلى تطفلك عليّ بخدمة رائعة.

قال السيد كلايتون: يريد ريتشارد السفر جواً إلى الكويت غداً، وقد قلْتُ له إن بوسعنا استضافته هنا هذه الليلة.

قال ريتشارد معتذراً: ولكن إن كان في ذلك أي إزعاج...

قاطعتها السيدة كلايتون قائلة: لا يوجد أي إزعاج بالطبع. صحيح أننا لا نستطيع أن نوفر لك أفضل غرفة من غرف الضيوف (لأن الكابتن كروسي يشغلها)، ولكن بوسعنا أن نريحك تماماً. هل تنوي شراء واحد من تلك الصناديق الكوبية الرائعة لحفظ الثياب؟ إن جيرالد لا يدعني أشتري صندوقاً آخر لبيتنا هنا، رغم أنه سيكون مفيداً تماماً لحفظ البطانيات الزائدة فيه.

علق زوجها قائلاً بلطف: لديك ثلاثة منها يا عزيزتي! حسناً،

إنني اعتذر الآن يا بيكر، عليّ العودة إلى المكتب؛ إذ يبدو أن مشكلة قد حدثت هناك. فهبْتُ أن أحدهم أطلق النار من مسدسه.

قالت السيدة كلايتون: أحبه أحد الشيوخ المحليين. إنهم سريعو الانفعال كثيراً ويحبون الأسلحة النارية بشدة.

صاح ريتشارد قائلاً: 'على العكس. كان من أطلق النار إنكليزياً، ويبدو أن هدفه كان إطلاق النار على رجل عربي'. ثم أضاف بهذوء: وقد ضربت ذراعاه.

قال السيد كلايتون: "لقد كنت في المعمة إذن. لم أعرف ذلك". ثم أخرج من جيبه بطاقة وقرأ فيها: يبدو أن اسمه روبرت هول من شركة أكيل للتعهدات. لا أدري لماذا أراد رؤيتي. هل كان لئلاً؟

أجاب ريتشارد ببرود: لقد قال إنها كانت مجرد مزحة، وإن المسدس انطلق بالصدفة.

رفع كلايتون حاجبيه وقال: إن التجار المتجولين لا يحملون عادة مسدسات محشوة في جيوبهم!

رأى ريتشارد أن كلايتون لم يكن بالرجل المغفل. قال له: ربما كان عليّ أن أوقفه وأمنعه من الانصراف.

- من الصعب معرفة ما على المرء فعله في مثل هذه الحالات. هل أصيب الرجل الذي أطلق عليه النار؟

- لا.

- ربما كان من الأفضل ترك المسألة عند ذلك الحد إذن.

- إنني أتساءل عما وراء ذلك.

- نعم، نعم... أنا أتساءل أيضاً.

بدا كلايتون شاردأ قليلاً، ثم قال وهو يسرع بالذهاب: حسناً، ينبغي أن أعود لمكتبي.

اصطحبت السيدة كلايتون ريتشارد إلى غرفة الجلوس (وهي غرفة داخلية كبيرة ذات طناقي وستائر خضراء)، ثم سألتها إن كان يفضل مشروباً حاراً أو بارداً فاختار الأخير، وسرعان ما جاءه كوب من العصير المثلج.

سألتها عن سبب ذهابه إلى الكويت فأخبرها، وسألتها عن سبب عدم زواجه فقال لها إنه لا يرى نفسه من النوع الذي يمكن أن يوفر ما يحتاجه الزوج من الاستقرار، وجواباً على ذلك سارعت السيدة كلايتون إلى القول إن ذلك هراء وإن الأناريين يصبحون -عادة- أزواجاً رائعين. ثم سألتها إن كانت أي شابة ستأتي للعمل في موقع الحفريات في هذه السنة، فأجابها بأن واحدة ستأتي أو اثنتين، بالإضافة إلى زوجة الدكتور بانسفورت طبعاً.

بعد ذلك دخل الغرفة رجل قصير قوي البنية قدمته السيدة كلايتون على أنه الكابتن كروسي، وقالت له إن السيد ريتشارد يبكر عالم آثار ينقب ويستخرج تحفاً ثمينة جداً عمرها آلاف السنين.

قال الكابتن كروسي: أنا لم أستطع أن أفهم -أبدأ- كيف

يستطيع علماء الآثار أن يحددوا عمر هذه الآثار بدقة، ولقد رأيت دائماً أن علماء الآثار هؤلاء هم -دون شك- أكثر خلق الله كذباً، ها... ها... ها...

نظر إليه ريتشارد نظرة فيها شيء من السأم، فقال للكابتن كروسي: عفواً، ولكن كيف يستطيعون معرفة عمر كل أثر؟

أجابه ريتشارد بأن شرح ذلك يتطلب وقتاً طويلاً، وسارعت السيدة كلايتون إلى أخذ ريتشارد لرؤية غرفته، وهناك قالت: إنه لطيف، ولكن له عيوباً، ليست لديه أية فكرة عن الثقافة.

وجد ريتشارد غرفته -وقد انفرد بها بنفسه- مريحة جداً، وازداد إعجابه بالسيدة كلايتون كمضيفة ممتازة. ثم تحسس جيب معطفه فوجد فيه شيئاً، أخرجه فوجده ورقة متسخة مطوية. ونظر إليها مذهوشاً، فقد كان متأكداً أنها لم تكن في جيبه عند الصباح.

تذكر كيف أمسك العربي به عندما ترنح. إن من شأن رجل خفيف اليد أن يدس هذه الورقة في جيبه دون أن يحس هو بذلك. بعد ذلك فتح الورقة. كانت متسخة، وبدا أنها طويت ثم فتحت مراراً عديدة من قبل.

كان فيها ستة أسطر ذات خط سي، وموضوعها تركية من الميجر جون ويليرفورس لشخص يدعى أحمد محمد، بصفه فيها بأنه عامل مجدّ ونشيط وقادر على قيادة شاحنة والقيام بتصليبات نانوية، وأنه تزيه جداً... وكانت مؤرخة قبل ثمانية عشر شهراً، وهو أمر لا يعتبر مستهجنًا، إذ يحتفظ أصحاب تلك التراكيب بها بكل حرص ولفترة طويلة.

قطب ريتشارد جيته وأخذ يستعرض أحداث الصباح بطريقته الدقيقة المنظمة. لقد أصبح الآن متأكداً تماماً من أن الفغير كارمايكل كان خائفاً على حياته. كان مطارزاً قانذفع إلى القنصلية. لماذا؟ ليجد الأمن؟ ولكنه وجد - بدلاً من ذلك - خطراً أشد وأقرب؛ فقد كان العدو (أو ممثل عن العدو) بانتظاره. لا بد أن هذا التاجر الجوال كانت لديه أوامر محددة تماماً حتى يُقدم على المجازفة بإطلاق النار على كارمايكل في القنصلية وبحضور شهود. لا شك أن الأمر كان عاجلاً ومُلحاً جداً إذن، وقد التمس كارمايكل مساعدة صديقي دراسة قديم، واستطاع أن يمرر إليه هذه الورقة التي تبدو بريئة في ظاهرها. لا بد أن هذه الورقة شديدة الأهمية إذن، وإن استطاع أعداء كارمايكل أن يمسكوا به ويجدوا أنه لم يعد يمتلك هذه الوثيقة فلا شك أنهم سيجرون حساباتهم ثم يبحثون عن أي شخص أو أشخاص كان بوسع كارمايكل تمرير الوثيقة إليهم.

ماذا يفعل ريتشارد بيكر بهذه الورقة إذن؟ بوسعنا أن ندفعها إلى السيد كلايتون باعتباره ممثلاً لحكومة جلالة الملكة. أم تراه يحتفظ بها في حوزته حتى يأتي الوقت الذي يطلبها كارمايكل؟

بعد لحظات من التفكير قرر ريتشارد اعتماد الخيار الأخير، ولكنه اتخذ - بدايةً - بعض الاحتياطات. مزق نصف ورقة بيضاء من رسالة قديمة، وجلس ليكتب تركية لسانق شاحنة بنفس الصفات التي ذُكرت في الورقة الأصلية، ولكن بصياغة مختلفة... فإن كانت تلك الرسالة شيفرة معينة أمكن لهذه الجديدة أن تضلل من يقرأها... مع أنه كان ممكنًا - بالطبع - أن تكون رسالة مكتوبة بحبر سري ما.

ثم قام بتلطيح الرسالة التي كتبها بالتراب من باطن حذائه وفركها بين يديه، ثم طواها وأعاد فتحها عدة مرات حتى بدت في حال معقولة من القَدَم والانساخ، ثم كورها ووضعها في جيبه. أما الأصلية فقد نظر إليها لحظات وهو يفكر ويرفض العديد من الخيارات. وأخيراً ابتسم وراح يطوي الورقة حتى أصبحت مستطيلاً صغيراً، ثم أخرج من حقيقته إصبعاً من المعجون (الذي لا يسافر دونه لحاجته إليه في عمله) وبدأ بأن أحاط الرسالة المغطاة بقطعة من النايلون الذي لا يتفذ منه الماء اقتطعها من باطن حقيقته، ثم أحاطها بالمعجون تماماً. بعدها قام بدعك المعجون بشكل دائري، ثم سطّحه حتى غداً ذا سطح أملس. وعندها مرّز على سطح المعجون ختماً دائرياً محفوراً بحيث أخذ شكل الختم.

نظر إلى ما فعله باستحسان. كان الشكل تصميمياً محفوراً بشكل جميل لإله الشمس المدعو شَنَش المتسلح بسيف العدالة. وقال لنفسه: لنأمل أن يكون هذا فالاً حسناً.

في تلك الليلة، عندما بحث في جيب المعطف الذي كان يرتديه صباحاً، وجد أن الورقة الملفوفة التي كتبها قد اختفت.



مستخدِمتها التي صنفتها فكتوريا ثرثرة لا تصمت. كانت السيدة كليب تختتم سلسلة ملاحظاتها قائلة: ... وليس هناك شيء نظيف حقاً، إن كنت تفهمين قصدي، وأنا دائماً حذرة جداً جداً فيما أكله...

كانت فكتوريا تصغي إلى تلك الملاحظات المُحيطة من باب الواجب، ولكن شعورها الخاص بألئ الشرق ظل متوجهاً، فالقدارة والجرائيم لم تكن لتعني لها شيئاً في عمرها الشاب. وصلتا إلى مطار هيثرو وقامت فكتوريا بمساعدة السيدة كليب على النزول من الحافلة. وكانت قد تولت أصلاً مسائل الجوازات والبطاقات والنقود وغير ذلك. قالت لها السيدة كليب: إنه لمن المريح -بالتأكيد- اصطحابي إليك يا آنسة جونز. لا أدري ما الذي كنت سأفعله لو قُدر لي أن أسافر بمفردي.

رأت فكتوريا أن السفر جواً عملية تشبه الذهاب إلى وليمة مدرسية، فهناك يجد المرء الأساندة (اللطقاء رغم حزمهم) قرييين منه جاهزين للمساعدة في كل أمر، وهنا أيضاً تحوم المضيقات يزيهن الموحدة وهن يتصرفن بسلفية أشبه بسلطة مربية تتعامل مع طفل قاصر عقلياً، فيشرحن بلفظ ودقة ما يتعين على المرء فعله. ولقد أوشكت فكتوريا أن تتوقع منهن استهلال كلامهن بعبارة: "والآن يا أطفال..."

وفي المطار جلس شباب يبدو عليهم التعب من موظفي الجوازات خلف مكابثهم، يتأكدون من الجوازات بأسماء، ويسألون بصوت خافت عما يحمله كل مسافر من مال أو حلي. وقد أفلحوا في

الفصل السابع

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة: ها هي الحياة تفتح أمامي أخيراً! كانت تجلس في مقعدها في قاعة المطار، وما لبثت أن جاءت تلك اللحظة السحرية التي أطلق فيها النداء: "يرجى من المسافرين إلى القاهرة وبغداد وطهران أخذ أماكنهم في الحافلة".

أسماء سحرية، رغم أنها كلمات تعتقد بريقها بالنسبة إلى السيدة كليب؛ فقد استنتجت فكتوريا أن السيدة كليب قد قضت جزءاً كبيراً من حياتها وهي تغفر من السفن إلى الطائرات، ومن الطائرات إلى القطارات، مع استراحات قصيرة بين الرحلة والرحلة كانت تقضيها في أغلى الفنادق. أما بالنسبة لفكتوريا فقد كانت تلك العبارات تغييراً رائعاً عما اعتادت سماعه باستمرار: "ساملي عليك رسالة يا آنسة جونز... هذه الرسالة مليئة بالأخطاء وعليك كتابتها من جديد... الإبريق يغلي أينها البئات، مَنْ ستعدّ الشاي؟... سادلك على أحسن محل يصف الشعر... أحداث يومية تافهة مملة! أما الآن فبغداد والقاهرة وطهران... كل رومانسية الشرق العظيم (وفوق ذلك كله إدوارد)!

عادت فكتوريا من شرودها إلى أرض الواقع لتسمع حديث

بث شعور بالذنب لدى من وُجِّهت لهم تلك الأسئلة. ولقد شعرت فكتوريا - وهي التي تأثرت بالإيحاء بطبيعتها - بشوق مفاجئ إلى وصف ذلك الديبوس الرخيص الذي تملكه بأنه نحفة ألاماسية تساري عشرة آلاف جنيه، وذلك لمجرد رؤية التعبير الذي سيظهر على وجه الشاب الضمير... ولكن تفكيرها بإدوارد منعها من ذلك.

وبعد اجتياز العديد من الحواجز جلس المسافرون في قاعة كبيرة تطل مباشرة على مدرج المطار، وفي الخارج كان هدير طائرة وهي تزيد تسارع محركاتها يكمل رسم الجو العام للمكان. أما السيدة كليب فقد كانت منشغلة الآن - بسعادة - في إطلاق تعليقات سريعة على بقية المسافرين: ألا يبدو هذان الطفلان هناك في غاية الذكاء؟ ولكن منفر العراء بمفرده مع طفلين محنة لا توصف، أظنهما بريطانيين، ولكن البدلة التي تلبسها أهمما جيدة التفصيل، مع أنها تبدو متعبة بعض الشيء. ذلك الرجل وسيم، يبدو كالإسبان أو الإيطاليين. ما تلك المربعات ذات اللون الصارخ التي يرتديها ذلك الرجل؟ أحسب ذلك ذوقاً سيئاً جداً. أظنه رجل أعمال! أما ذلك الرجل هناك فهو ألمانى؛ كان يقف أمامنا تماماً عند بوابة التفتيش. تلك العائلة هناك إما تركية أو إيرانية كما أظن. لا يبدو أن هناك أي أمريكيين. أحسبهم يسافرون على متن خطوط بان أميركان على الأغلب. رأي أن أولئك الرجال الذين يتحدثون هناك من العاملين في شركات النفط، ماذا تقولين؟ إنني أحب النظر إلى الناس والتساؤل عن أمورهم. يقول السيد كليب لي إن لدي ولعاً بقطاع النفس البشرية. يبدو لي أن من الطبيعي تماماً أن يهجم المرء بإخوته

من بني البشر، ألا تعتقدن أن معظم الفرو ذاك قد كلف أكثر من ثلاثة آلاف دولار؟

وأخيراً انتهت السيدة كليب بعدما فرغت من تأمل زملائها المسافرين. بدأت تتأمل، ثم قالت: بودي لو أعرف ما الذي ننتظره بهجستنا هذه. لقد هدرت تلك الطائرة أربع مرات لتسخين محركاتها ونحن كلنا هنا. لماذا لا يمتصون قُدماً في أمورهم؟ من المؤكد أنهم لا يلتزمون بموعدهم.

- أترغبين في كوب من القهوة يا سيدة كليب؟ أرى مقصفاً في نهاية القاعة هناك.

- لا، شكراً يا آنسة جوتز. لقد تناولت القهوة قبل انطلاقنا، ومعدتي مرتبكة الآن بحيث لا أستطيع تناول شيء، ولكن بودي أن أعرف ما الذي ننتظره؟

جاءت الإجابة على سؤالها هذا قبل أن تفرغ من طرحه؛ فقد انفتح فجأة الباب المؤدي من قسم الجمارك والجوازات إلى القاعة ودخل منه رجل طويل القامة كما تدخل هبة ريح قوية، وهرع موظفو المطار والخطوط الجوية حوله. وكان ثمة موظف يحمل كيسين ضخمين مختومين.

اعتدلت السيدة كليب في جلستها متيقظة وقالت: إنه رجل ذو أهمية بالتأكيد، وقالت فكتوريا لنفسها: "وهو يعرف ذلك تماماً".

كان في ذلك المسافر الأخير ما يوحي بشيء من تعمد الإثارة الحسية المحسوبة؛ فقد ارتدى ما يشبه رداء سفر رمادياً غامقاً ذا

غطاء ضخيم للرأس يتدلى من الخلف، أما رأسه فكان مغطى ببقية كانت - في الحقيقة - كتيبات المكسيك العريضة، ولكن لونها كان رمادياً فاتحاً. وقد تدلى شعره الفضي الملتف طويلاً بعض الشيء، وكان شاربه الفضي الجميل يتعكف صعوداً عند طرفه. وهكذا أعطى شكله العام انطباعاً أقرب إلى ممثل يؤدي دور قاطع طريق أكثر.

نظرت فكتوريا إليه بعدم استحسان، إذ كانت تكره الذين يتخذون سمات الممثلين في تصرفاتهم. وقد لاحظت - باستياء - أن موظفي الطيران كانوا يزدحمون حوله مذممين: نعم يا سير روبرت، طبعاً يا سير روبرت، ستقلع الطائرة فوراً يا سير روبرت.

وبلغة لرداته السابغ عبر السير روبرت الباب المغضي إلى أرض المطار وتأرجح الباب بقوة وراءه. تمتصت السيدة كليب قائلة: السير روبرت... من عساه يكون يا ترى؟

هزت فكتوريا رأسها خيرة، رغم أن شعوراً غامضاً قد انتابها بأن الوجه والمظهر العام لم يكونا غريبين عنها. قالت السيدة كليب: ربما كان شخصاً مهماً في حكومتكم.

- لا أظن ذلك.

كان العدد القليل من رجال الحكومة الذين انتقمهم فكتوريا قد أعطوها انطباعاً بأنهم رجال يكادون يعتذرون حتى عن كونهم أحياء، ولم يكونوا يمثلون دور الواعظ المتبجح إلا على منصات الخطابة.

قالت المضيفة المتأنفة بروح مربية تخاطب أطفالها: والآن

رجاء، ستأخذون أمانتكم في الطائرة. من هنا رجاء... بأسرع ما يمكنكم رجاء.

كاد موقفها يوحي بأن الأطفال الأشقياء قد أعاقوا كثيراً الكبار الصابرين. ونهض الجميع وخرجوا إلى أرض المطار حيث كانت الطائرة الضخمة في الانتظار ومحركها يهدر كزئير أسد ضخم يعبر عن رضاه.

تعاونت فكتوريا مع مضيفة لإدخال السيدة كليب ووضعها في مقعدها، ثم جلست فكتوريا بجانبها باتجاه العمر الفاصل بين صغى المقاعد بعدما تأكدت من جلوس السيدة كليب في مقعدها بشكل مريح وربطت حزام مقعدها، وعندها - فقط - أتيح لها الوقت لتلاحظ أن الرجل العظيم يجلس أمامهما.

أغلقت الأبواب، وبعد بضع ثوان بدأت الطائرة تتحرك ببطء على المدرج. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها بانفعال: إننا ننتقل حقاً. آه! أليس هذا مخيفاً؟ ماذا لو لم تستطع الطائرة الإقلاع عن الأرض؟ إنني لا أفهم حقاً كيف يمكنها أن تقلع!

وخلال فترة بدت دهرأ كاملاً دارت الطائرة حول المدرج، ثم استدارت ببطء وتوقفت. تصاعد هدير المحرك بشكل رهيب، وتم توزيع العلك والقطن. ثم تعالي الصوت أقوى فأقوى، وأشد فأشد، ثم تقدمت الطائرة مرة أخرى، ببطئ في البداية، ولكنها أخذت تتسارع خاطفة أرض المدرج.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "إنها لن تقلع أبداً، وسوف نُقتل!"

ولكن الطائرة تسارعت أكثر... ولم تعد ترتج أو تهتز، فقد أقفلت عن الأرض مرتفعة، ثم ارتفعت أكثر ليبدو تحتها قطار صغير تافه ينث دخانه وبيوت كيبوت الدمى ودمى سيارات على الشوارع، ثم ارتفعت أكثر... وفجأة فقدت الأرض في الأسفل ما كانت تلقاه من اهتمام، فلم تعد فيها مظاهر الحياة والإنسانية، بل غدت مجرد خريطة ضخمة منبسطة عليها خطوط ودوائر ونقاط.

في داخل الطائرة حل المسافرون أحزمة الأمان، وأشعلوا لفافات النع، وفتحوا المجلات. أما فكتوريا فقد كانت في عالم جديد... عالم طوله العديد من الأقدام وعرضه بضعة أقدام قليلة، يسكنه نحو من عشرين إلى ثلاثين شخصاً. وفيما عدا ذلك، لم يكن أي شيء موجوداً بالنسبة لها.

أطلت -ثانية- من النافذة الصغيرة فوجدت تحتها سحاباً، طبقات من الغيوم كأنها زغب الفطن. هناك في مكان ما -تحت الغيوم- كان يرقد العالم الذي عرفته فكتوريا حتى الآن. اعتدلت وتمالكت نفسها. كانت السيدة كليب تتكلم، ونزعت فكتوريا الفطن من أذنيها ولفشت إليها بانباء.

في المقعد أمامها نهض السير روبرت ونزع قبعة ذات الحواف العريضة فوضعتها على الرف فوق رأسه، ثم غطى رأسه بالغطاء الملحق بأعلى رداؤه واسترخى في مقعده. قالت فكتوريا لنفسها بتحيز لا مبرر له: يا له من حمام متبجح!

كانت السيدة كليب مستقرة في مقعدها وأمامها مجلة مفتوحة، وكانت تنبه فكتوريا -بين الحين والآخر- بحركة خفيفة من مرفقها،

وعندما حاولت قلب الصفحة بيدها السليمة انزلقت المجلة ووقعت على الأرض.

نظرت فكتوريا حولها، ثم رأت أن السفر جواً مسألة مملة حقاً. فتحت مجلة، فوجدت أمامها مباشرة دعابة تقول: «هل تريدن زيادة كفاءتك كطيارة اختراة؟» فارتعدت وأغلقت المجلة، ثم استندت ظهرها إلى مسند مقعدها وبدأت تفكر بإدوارد.

هبطت الطائرة بمسافريها في مطار كاستيل بينيتو في طرابلس الغرب أثناء عاصفة من الأمطار. وكانت فكتوريا قد غدت الآن مريضة بعض الشيء، ولذلك فقد احتاجت لاستجماع كل طاقتها للقيام بإجبتها تجاه مستخدمتها. وقد جيء بسيارة قادتهم وسط المطر المنهمر إلى الاستراحة. أما السير روبرت العظيم فقد لاحظت فكتوريا أن ضابطاً برندي بدلة رسمية وأشرطة حمراء قد كان في استقباله، وأنه أخذ على عجل بسيارة عسكرية إلى بيت أحد المقتدرين في المدينة.

خُصصت لهم غرف، وساعدت فكتوريا السيدة كليب في الاغتسال وتبديل الثياب، ثم تركتها لترتاح (في ثياب النوم) حتى يحين وقت الوجبة المسائية وعادت إلى غرفتها فتمددت وأغمضت عينيها وهي تشعر بالامتنان؛ إذ وفرت عليها الظروف عناء السفر بحراً والتأرجح في سفينة طوال الطريق.

استيقظت بعد نحو ساعة من ذلك وقد تحسن حالها ونشطت معنوياتها، وذهبت لمساعدة السيدة كليب. وسرعان ما جاءت مضيفة أكثر تسلطاً لنقل إن السيارات في انتظارهم لنقلهم إلى حيث وجبة

العشاء. وبعد العشاء انخرطت السيدة كليب في حديث مع بعض رفاق السفر، ويبدو أن الرجل الذي يرتدي معطفاً ذا مربعات صارخة اللون قد أعجب بفكتوريا، وقد أخبرها -بشكل مطول- بكل تفصيلات صناعة أفلام الرصاص.

بعد ذلك أُعيد المسافرون إلى دار الاستراحة وقيل لهم إن عليهم أن يكونوا جاهزين للمغادرة في الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي. قالت فكتوريا بشيء من الحزن: ولكننا لم نر الكثير من طرابلس، أليس كذلك؟ أمكذا يكون السفر بالطائرة دائماً؟

أجابتها السيدة كليب: نعم، هو كذلك كما أظن. إن طريقة إيقافهم للمرة في أول الصباح طريقة سادية تماماً. وبعد ذلك غالباً ما يتركوك تسكعين في المطار لساعة أو ساعتين! بل إنني أذكر أنهم أيقظونا مرة في روما عند الساعة الثالثة والنصف فجراً، وتناولنا الإفطار في المطعم في الساعة الرابعة، ولما ذهبنا إلى المطار لم نغادر عملياً إلا في الساعة الثامنة. ومع ذلك كله، فالجيد في سفر الجو هو أنهم يوصلونك إلى وجهتك مباشرة دون لف ودوران في مختلف الأصقاع.

تنهدت فكتوريا، فقد كان يسعدها الكثير من اللف والدوران؛ فهي تريد رؤية العالم. ومضت السيدة كليب تقول بانفعال: أتدريين يا عزيزتي؟ تعرفين ذلك الرجل ذا المظهر المثير، الرجل البريطاني؟ ذلك الذي يدور اللغظ كله حوله. لقد اكتشفتُ مَنْ يكون. إنه السير روبرت كروفتن لي، الرحالة المعروف. لا شك أنك سمعتِ به.

نعم، تذكرتُ فكتوريا الآن إذ كانت قد رأت العديد من الصور

في الصحف قبل نحو ستة أشهر. كان السير روبرت عالماً حُجَّةً في ما يخص جغرافية الصين الداخلية. كان واحداً من القلائل الذين زاروا التبت ورأوا لاسا، وكان قد جال في المناطق المجهولة من كردستان وآسيا الصغرى. وقد حققت كتبه مبيعات عالية لأنها كُتبت بأسلوب رشيقي ذكي. ولئن كان في سلوك السير روبرت ما يوحي بالبداعة للذات فقد كان له سبب وجيه يبرر له ذلك. وتذكرت فكتوريا الآن أن رداءه الطويل ذا غطاء الرأس الذي يتدلى خلفه وقبعته العريضة كانا طرازاً خاصاً ومقصوداً اختاره لنفسه.

تساءلت السيدة كليب -بكل حماسة صائدي الأسود- بينما كانت فكتوريا تعذل أغطية السرير حول جسدها المتمدّد: أليس هذا مثيراً؟

وافقتها فكتوريا على أن ذلك كان مثيراً جداً، ولكنها قالت لنفسها إنها تفضل كتب السير روبرت على شخصيته، فقد رأت فيه ما يسميه العامة «متفاحاً»!

كانت البداية مرتبة في صباح اليوم التالي. كان الجو قد صفا والشمس قد أشرقت، وقد ظلت فكتوريا تشعر بشيء من خيبة الأمل لأنها لم تَرَ إلا القليل من طرابلس. ومع ذلك فقد كان مخطئاً أن تصل الطائرة إلى القاهرة وقت الغداء، فيما لن تكون المغادرة إلى بغداد إلا في صباح اليوم التالي، ولذلك سيكون بمقدورها على الأقل أن ترى شيئاً من مصر في فترة ما بعد الظهر.

كانت الطائرة تطير فوق البحر، ولكن سرعان ما غطت الغيوم منظر البحر الأزرق فتمددت فكتوريا في مقعدها وهي تتنأب،

الذكيين، متلهفة تماماً على الذهاب للأهرامات أيضاً، وتلك افترحت عليها أن تذهب معاً... إن كان ذلك يناسبك؟

كل شيء يناسب فكتوريا طالما أنها سترى العالم. وهكذا قالت السيدة كليب: حسناً إذن، من الأفضل أن تغادروا الآن مباشرة.

كانت فترة العصر عند الأهرامات ممتعة تماماً، ورغم أن فكتوريا كانت تحب الأطفال عموماً، إلا أنها كانت تستمتع بهذه الرحلة أكثر لو لم يكن طفلاً السيدة كيشن موجودتين؛ فالأطفال يصبحون مصدر إعاقة في أية نزهة يكون الهدف منها رؤية المناظر أو الآثار، وقد غضب الطفل الأصغر كثيراً لأن العرائن عادتوا إلى الفندق في وقت أبكر مما كانوا تعتزماته.

رمت فكتوريا نفسها على السرير متثالية، تمتعت كثيراً لو أنها استطاعت المكوث في القاهرة لمدة أسبوع... وربما السفر إلى أعالي النيل. ولكنها سألت نفسها بازدرار قائلة: "وماذا تصنعين لتغطية نفقاتك يا فتاتي؟" ألا يكفي أن معجزة قد تدخلت لتأمين سفرها إلى بغداد دون مقابل؟ سألهما صوت داخلي واقعي: "وماذا ستفعلن عند نزولك في بغداد وليس في جيبك إلا بضعة جنيهات؟"، ولكن فكتوريا نحتت هذا السؤال جانباً؛ إذ ينبغي لإدوارد أن يجد لها عملاً. وإذا لم يستطع فإنها ستجد هي عملاً لنفسها. فلماذا القلق؟

أغلقت عينيها بهدوء بعد أن بهرهما ضوء الشمس الساطع. ثم نهضت على صوت قرع تخيلت على باب غرفتها. صاحبت: "ادخل"، ولما لم تجد جواباً نهضت عن السرير وقطعت الغرفة إلى الباب وفتحته. ولكن الطريقة لم تكن على بابها، بل على الباب الذي يليه

وأمامها كان السير روبرت قد غط في النوم. كانت القلنسوة قد سقطت عن رأسه الذي اتحنى للأمام مهتزاً بين الحين والآخر، ولا حظت فكتوريا -بشيء من المتعة الحاقدة- أن له بشرة متورمة تبدأ عند مؤخرة عنقه. أما سبب استمتاعها بتلك الحقيقة فقد كان عصبياً على التفسير... ربما لأن ذلك جعل الرجل العظيم يبدو أكثر إنسانية وضعفاً، فما هو لا يختلف عن غيره من الناس... عرضة لإزعاجات الجسد الصغيرة. ويمكن القول إن السير روبرت قد حافظ على سلوكه المتعالي ولم يأبه قيد شعرة برفاق سفره. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: من تراه يظن نفسه؟

ولكن الجواب كان واضحاً، فقد كان السير روبرت كروفتن لي، رجلاً شهيراً... وكانت هي فكتوريا جونز، طابطة أختزال لا يهيه لها وليست لها أية قبعة.

عند الوصول إلى القاهرة تناولت فكتوريا والسيدة كليب الغذاء معاً، ثم أعلنت الأخيرة أنها ستأخذ قيلولة حتى الساعة السادسة، وأشارت إلى أن فكتوريا ربما أعجبتها أن تذهب لرؤية الأهرامات. ثم قالت: لقد رتب لك أمر سيارة تكون معك -يا آنسة جونز- لأنني أعرف أنك لا تستطيعين صرف أية أموال هنا بسبب تعليمات وزارة المالية البريطانية.

أحست فكتوريا (التي لم يكن معها أصلاً مال لتنفقه) بالامتنان، وعبرت عن امتنانها بشيء من الخجل، فقالت السيدة كليب: ليس هذا بشيء أبداً. لقد كنت لطيفة جداً جداً معي، وإن سفرنا بالدولار يجعل كل شيء سهلاً بالنسبة لنا. إن السيدة كيشن، صاحبة الصبيين

في الممر. كانت واحدة أخرى من أولئك المضيفات اللاتي لا مهرب
منهن، ذات شعر أسود وزّي مرتب، تفرع باب غرفة السير روبرت.
وقد فتح الباب في الوقت الذي أطلت فيه فكتوريا من بابها وقال
بصوت متزعج ناعس: ما الأمر؟

تمتمت المضيفة بصوت ناعم: إنني آسفة جداً على إزعاجك
يا سير روبرت، ولكن هل لك أن تأتي إلى مكتب شركة الطيران؟
إنه على بعد ثلاثة أبواب من هذا الممر. الأمر مجرد قضية صغيرة
تخص رحلتنا غداً إلى بغداد.

- آه، حسناً.

انسحبت فكتوريا إلى غرفتها، وقد أصبحت أقل ناعماً الآن.
نظرت إلى ساعتها فوجدتها لم تتجاوز الرابعة والنصف بعد؛ أي أن
أمامها ساعة ونصفاً قبل أن تحتاجها السيدة كليب. قررت الخروج
والمشي في القاهرة، فالمشي لا يحتاج نقوداً على الأقل.

أصلحت من هيتها وارتدت حذاءها الذي شعرت أنه ضاق
على قدميها (لقد سببت الرحلة إلى الأهرامات ورماً فيهما)، ثم
خرجت من الغرفة ومشّت في الممر باتجاه القاعة الكبيرة للفندق.
وبعد ثلاثة أبواب عبرت مكتب خطوط الطيران الذي عُثِّقَت على بابه
لوحة تؤكد ذلك، وفيما هي تعبر أمامه انفتح الباب وخرج منه السير
روبرت مسرعاً بحيث تجاوزها في خطوتين ومضى أمامها وردأه
بطير خلفه، وحُيِّل لفكتوريا أنه متزعج من شيء ما.

كانت السيدة كليب في مزاج معكر بعض الشيء عندما جاءتها

فكتوريا في الساعة السادسة. قالت: إنني قلقة بشأن الزيادة في وزن
أمتعتي يا آسة جونز. لقد كنت أظن أنني دفعت أجور الأمتعة لكامل
الرحلة، ولكن يبدو أن ما دفعته كان أجور شحن الأمتعة إلى القاهرة
فحسب. سسافر غداً على متن الخطوط الجوية العراقية. إن بطاقتي
تغطي كامل الرحلة، ولكنها لا تغطي الزيادة في وزن الأمتعة. هل
لك أن تذهبي لتري إن كان الأمر حقاً كذلك؟ لأنني قد أضطر إلى
صرف شيكٍ سياحي آخر.

وافقت فكتوريا على الاستفسار عن ذلك. ولم تستطع -في
البداية- العثور على مكتب الخطوط الآخر، ثم وجدته أخيراً في
الممر الآخر البعيد، في الجانب الآخر من القاعة، وكان مكتباً
ضيقاً. وقد افترضت أن المكتب الآخر كان صغيراً ولا يُستخدم
إلا خلال استراحة ما بعد الظهر. وقد تبين أن مخاوف السيدة كليب
بشأن الزيادة في وزن الأمتعة كانت في مكانها، وهو ما أزعج السيدة
كليب كثيراً.



- لقد دخلتُ إلى تلك المصححة. أخبرتك بذلك من قبل، فقد كانت أختها تخضع لعملية.

- نعم، ويعد ذلك؟

- مضت العملية بشكل جيد. وقد توقعنا عودة أ. ش. إلى فندق سافوي من جديد، إذ كانت قد أبقت على حجز جناحها... ولكنها لم تعد! وقد أبقينا رقابة على المصححة وكنا متأكدين تماماً أنها لم تغادرها. افترضنا أنها ما تزال هناك.

- وهي ليست هناك؟

- لقد اكتشفنا -لئون- أنها قد غادرت المصححة، في سيارة إسعاف، وذلك في اليوم الذي أعقب العملية.

- لقد خدعتمكم عامدة، اليس كذلك؟

- يبدو الأمر كذلك. ولكنني مستعد لأن أقسم بأنها لم تعرف أن أحداً يتعقبها؛ فقد أخذنا كل الاحتياطات، وكان يتبعها ثلاثة منا... و

- دع عنك المبررات. أين أخذتها سيارة الإسعاف؟

- إلى مستشفى الجامعة.

- وماذا قالوا لك في المستشفى؟

- قالوا إن مريضة قد أُدخلت برفقة ممرضة. لا شك أن

الفصل الثامن

في الطابق الخامس من مجمع للمكاتب في مدينة لندن تقع مكاتب شركة فالهالا للغراموفون. كان الرجل الجالس خلف المكتب هناك يقرأ كتاباً في الاقتصاد، ورن جرس الهاتف فرفع السماعه وقال بصوت هادئ يخلو من العاطفة: شركة فالهالا للغراموفون.

- هل ساندرز هنا؟

- ساندرز صاحب النهر؟ أي نهر؟

- نهر دجلة. بخصوص أ. ش. لقد فقدنا أثرها.

سادت لحظة صمت، ثم تكلم الصوت الهادئ من جديد، ولكن بنبرة فولاذية قاسية: أتواني سمعتُ ما قلته بشكل صحيح؟

- لقد فقدنا أثر أنا شيل.

- لا تستخدم أسماء. هذه غلظة خطيرة جداً منك... كيف

حدث ذلك؟

الممرضة كانت أنا شيل، ولا يدرون أين ذهبت الممرضة بعد أن أدخلت المريضة.

- وماذا عن المريضة؟

- المريضة لا تعرف شيئاً؛ فقد كانت تحت التخدير.

- إذن فقد خرجت أنا شيل من مستشفى الجامعة بزي ممرضة، وربما كانت الآن في أي مكان؟

- نعم، ولكن إن عادت إلى فندق سافوي...

قاطعها الآخر قائلاً: إنها لن تعود إلى السافوي.

- هل نبحث في الفنادق الأخرى؟

- نعم، ولكنني أشك في إمكانية وصولكم إلى أية نتائج؛ فهذا ما ستوقع منكم فعله.

- هل من تعليمات أخرى في هذه الحالة؟

- فتشوا في الموائى... في دوفر، وفوكستون وغيرها. فتشوا في الخطوط الجوية، وخصوصاً دققوا في كل الحجوزات إلى بغداد في الأسبوعين القادمين. إن البطاقة لن تُحجَر باسمها نفسه، ولذلك دققوا في جميع المسافرين ممن تتقارب أعمارهم مع عمرها.

- ولكن أمتعتها ما تزال في الفندق. ربما عادت لأخذها.

- لن نقوم بأي تصرف من هذا القبيل. ربما كنت أنت مغفلة، ولكنها ليست بالمغفلة. هل تعرف أختها شيئاً؟

- إننا على اتصال بممرضتها الخاصة في المصلحة. يبدو أنها ترى أن أ. ش. في باريس تعقد صفقات لمصلحة مورغانثال، وهي تقيم في فندق ريتز. وهي ترى أن أ. ش. ستعود إلى الوطن في الثالث والعشرين من الشهر.

- أي أن أ. ش. لم تخبرها شيئاً. نعم، ما كانت لتخبر أحداً. دققوا لنا في أمر حجوزات الطيران تلك. إنها أملنا الوحيد. إنها مضطرة للذهاب إلى بغداد... والسفر جواً هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن توصلها في زمن قصير. ثم... اسمع يا ساندروز.

- نعم؟

- لا أريد حالات فشل أخرى. هذه فرصتك الأخيرة.



هذا الانفعال والضجة بشأن هذا الرجل حتى العاملون في المجال الأمني منفعلون بشأنه. إنه واحد من أولئك الجواله حول العالم، تراه دوماً في أماكن نائية على جملته. لا أدري لماذا يكون بمثل هذه الأهمية، ولكن يبدو واضحاً أنه شديد التميز في اختصاصه، ومطلوب مني أن أتي أدنى رغبة له. ربما غضب كثيراً إذا ما واصلت الطائرة طريقها وأخذته إلى البصرة. لا أدري ما هي الترتيبات التي يحسن بي إجراؤها. أأذهب إليه بالطيار الليلية؟ أم أجعل القوة الجوية الملكية تحضره غداً؟

تتهاد السيد شريفنهام مرة أخرى مع تعمق إحساسه بالغبن والمسؤولية، فمئذ وصوله إلى بغداد قبل ثلاثة أشهر ظل حظه سيئاً باستمرار، وقد شعر بأن من شأن تائب آخر يتلقاه من رؤسائه أن يفسد حياة مهنية كان يمكن لها أن تكون واعدة جيدة.

انحدرت الطائرة فوقهما مرة أخرى. وقال شريفنهام: "من الواضح أن الطيار يرى صعوبة في الهبوط". ثم أضاف بانفعال: "آه، أظنه يهبط".

بعد ذلك بلحظات كانت الطائرة قد حطت بهدوء في مكانها، ووقف شريفنهام جاهزاً لتحية ضيفه الكبير. لاحظت عيته غير الخبيثة "فئة جميلة بعض الشيء". قبل أن يقفز إلى الأمام لتحية الرجل الذي يشبه القرصان بردائه المتطاير. وفكر قائلاً لنفسه باسمئزاز: "إنه زي غريب للتفاخر" فيما كان يقول لضيفه في نفس الوقت: السير روبرت كروفث لي؟ أنا شريفنهام، من السفارة.

رأى أن السير روبرت كان مقتضباً بعض الشيء في كلامه بشكل

الفصل التاسع

نقل السيد شريفنهام، الشاب العامل في السفارة البريطانية، ثقله من إحدى قدميه إلى الأخرى ونظر إلى الأعلى فيما كانت الطائرة تميل متجهة نحو مطار بغداد. كانت زويزة وملية كبيرة تتقدم مغلقة البيوت والناس وأشجار النخيل بغلالة بيضاء كثيفة، وقد جاءت تلك العاصفة فجأة دون مقدمات. قال بأسى عميق: الأرجح أن لا يستطيعوا الهبوط هنا.

سأله صديقه هارولد: ماذا سيفعلون إذن؟

- أظنهم سيمضون في الطيران إلى البصرة. سمعت أن الجو صافٍ هناك.

- أنت في استقبال شخصية كبيرة، أليس كذلك؟

دمدم الشاب شريفنهام مرة أخرى يتذمر قائلاً: إنه سوء طالعٍ؛ فالسفير الجديد تأخر في الالتحاق بعمله، والمستشار لانزداون في إنكلترا، ورايس (المستشار للشؤون الشرقية) مريض في فراشه؛ مصاب بأنفلونزا معدية وحرارة مرتفعة إلى حدٍ خطير. وببست في طهران، وها أنا ذا بمفردي أتحمل كل شيء. لا أدري سبباً لكل

حافظ شريفنهام على مظهر الاحترام الصامت، وسأله السير روبرت: أفن أن رايس هنا، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، إنه المستشار للشؤون الشرقية.

- إنه رجل قدير ويعرف الكثير من الأمور. سيسعدني أن أراه

ثانية.

تنحى شريفنهام وقال: الحقيقة - يا سيدي - أن رايس مريض وقد أخذه إلى المستشفى لمراقبة حالته. أصابته حالة من التهاب المعدة والأمعاء... حالة أسوأ قليلاً - كما يبدو - من أمراض المعدة التي تحدث في بغداد عادة.

التفت السير روبرت بخدة وقال: ما هذا المرض؟ التهاب معدى معوي سيء... همسم. جاءه فجأة، أليس كذلك؟

- أول أمس يا سيدي.

قبط السير روبرت جيبه. سقطت عنه مظاهر الأبهة المصطنعة وغدا رجلاً أكثر بساطة... غدا رجلاً قلقاً بعض الشيء. قال: إني لأسألك... نعم، إني غير مرتاح لذلك.

نظر إليه شريفنهام مثلاً بأدب، فقال السير روبرت: إني أسألك إن كان يُحتمل أن تكون هذه حالة من حالات شيل غرين؟

بقي السيد شريفنهام ساكناً وقد أصابته الحيرة. واقتربت السيارة من جسر فيصل، ثم انعطفت إلى اليسار باتجاه السفارة البريطانية. وفجأة انحنى السير روبرت إلى الأمام وقال بخدة: هل لك أن تقف

يكاد يوحى بالوقاحة، ولكن ربما كان ذلك مفهوماً بعد ما تعرض له من عناء الدوران حول المدينة دون التأكد من إمكانية الهبوط. قال شريفنهام: يوم سيء. لقد شهدنا الكثير من هذه الأحوال الجوية هذا العام. آه، لقد جاءت حقائبك. هل لك أن تتبعني يا سيدي؟ الترتيبات كلها مهينة.

قال شريفنهام وهما يغادran المطار بالسيارة: ظننت - للملاحظات - أنكم ستضطرون للذهاب إلى مطار آخر يا سيدي. ثم يبدو أن الطيار قادر على الهبوط. لقد ظهرت هذه العاصفة الرملية فجأة.

نفخ السير روبرت أوداجه تعبيراً عن أهميته وقال: كان من شأن ذلك أن يكون مأساوياً... مأساوياً تماماً. إني أؤكد لك أيها الشاب أن برنامجي - لو أفسد - لكانت له نتائج بالغة الأهمية وبمعدة المدى إلى أقصى الحدود.

خاطب شريفنهام نفسه بازدياء: "يا له من طاووس متبحر! إن أصحاب المنزلة الرفيعة هؤلاء يظنون أن مسائلهم النافذة هي التي تجعل العالم يدور". أما بصوته العالي فقد قال باحترام: أحسب ذلك صحيحاً يا سيدي.

- هل تعلم متى سيصل السفير إلى بغداد؟

- لا يوجد شيء مؤكد - بعد - يا سيدي.

- سأشعر بالأسف إن قاتنتي رؤيته. لم أراه منذ... منذ رؤيتي

له في الهند عام ١٩٣٨.

لحظة؟ نعم، على الجانب الأيمن، حيث تلك الأواني هناك.

تهادت السيارة باتجاه الرصيف الأيمن وتوقفت. وكان هناك محل للأواني الفخارية تكومت فيه مختلف أنواع الخزاي والأباريق، وكان ثمة رجل أوروبي قصير القامة قوي البنية يتحدث مع صاحب الدكان، وما لبث أن تحرك باتجاه الجسر عند اقتراب السيارة. وقد ظن شريفنهام أن الرجل هو كروسيبي الذي سبق له أن التقاه مرة أو مرتين.

قفز السير روبرت من السيارة ومضى إلى محل الفخاريات، ثم أخذ إحدى الجرار وشرع في حديث باللغة العربية مع صاحب المحل. وكانت سرعة الحديث أكبر من أن يستطيع شريفنهام فهمه بعربيته التي كانت -حتى الآن- بطيئة قليلة المفردات ويكلفه الحديث بها عتلاً عظيماً.

كان صاحب المحل يتسم ماداً ذراعيه وهو يؤثر ويشرح بإسهاب. وأمسك السير روبرت بعدة أوانٍ فخارية، وبدأ أنه يطرح أسئلة عنها. وأخيراً اختار إبريق ماء ذا قم صيق، وأعطى الرجل بعض النقود المعدنية وعاد إلى السيارة قائلاً: أسلوب تشكيلي مميز. إنهم يصنعون هذه الفخاريات منذ آلاف السنين، لها نفس الشكل الذي رأيت لأثنية في إحدى حضاب أرمينيا.

أدخل إصبعه في فوهة الإبريق الضيقة وأخذ يتحسس الفتحة من الداخل. وقال شريفنهام دون تأثر: صناعة بدائية تماماً.

- آه، ليست لها قيمة فنية! ولكنها مهمة من الناحية التاريخية.

أثرى مكان أذني الإبريق هنا؟ إن يوسعك التقاط الكثير من المعلومات والحقائق التاريخية من ملاحظة الأشياء البسيطة في الحياة اليومية. إن لدي مجموعة من هذه الفخاريات.

انعطفت السيارة ودخلت بوابة السفارة البريطانية. وطلب السير روبرت أن يتم أخذه إلى غرفته مباشرة، وقد استمتع شريفنهام بملاحظة أن السير روبرت -وقد انتهت محاضرتة عن آنية الفخار- قد تركها في السيارة دون اهتمام. وقد تعتمد شريفنهام أن يحملها إلى الطابق العلوي ويضعها -بكل حرص- على الطاولة قرب سرير السير روبرت قائلاً: إبريقك يا سيدي.

- ماذا؟ آه، شكرًا يا بني.

بدأ السير روبرت شاردأ، وقد غادره شريفنهام بعد أن كرر على مسامعة أن الغداء سيكون جاهزاً بعد قليل. وعندما غادر الشاب الغرفة ذهب السير هنري إلى النافذة وفتح الورقة الصغيرة التي كانت معلقة في عتق إبريق الفخار. مشدداً حتى استوت، وكان فيها سطران من الكتابة. قرأهما بتمعن أكثر من مرة، ثم أحرق الورقة بعود ثقاب. وبعد ذلك استدعى خادماً.

- نعم يا سيدي؟ هل أخرج أمتعتك من الحقائق؟

- لا، ليس الآن. أريد رؤية السيد شريفنهام... هنا.

جاء شريفنهام وشي من ملامح الخشية تلوح عليه، وقال: هل من خدمة أستطيع تقديمها يا سيدي؟ هل يوجد خطأ؟

- سيد شريفنهام، لقد حدث تغير كبير على خططي، إنني
أستطيع طبعاً الاعتماد على كتمانك، أليس كذلك؟

- آه، بكل تأكيد يا سيدي.

- لقد مر وقت طويل منذ أن جئت إلى بغداد آخر مرة، بل
إنني لم آت إلى هنا منذ الحرب عملياً. أظن أن الفنادق موجودة غالباً
على الجانب الآخر من النهر، اليس كذلك؟

- بلى يا سيدي؛ في شارع الرشيد.

- وظهرها إلى نهر دجلة؟

- نعم. وفندق قصر بابل هو أكبرها، وهو الفندق الرسمي
تقريباً.

- ماذا تعرف عن فندق يدعى فندق تيو؟

- آه، كثير من الناس يذهبون إلى هناك؛ طعامه جيد، ويديره
رجل ذو شخصية رائعة يدعى ماركوس تيو. إنه رجل مشهور تماماً
في بغداد.

- أريد منك أن تحجز لي غرفة هناك يا سيد شريفنهام.

قال شريفنهام بخشية مرتبكة: أنعني... أنك لن تقيم في مقر
السفارة؟ ولكن الأمور كلها معدة على هذا الأساس يا سيدي.

صاح السير روبرت: ما أُعِدَّ يمكن إلغاؤه.

- آه، طبعاً يا سيدي. إنني لم أفصد...

توقف شريفنهام، كان ينتابه شعور بأن أحداً ما سيلومه في
المستقبل. ولكن السير روبرت مضى قائلاً: لدي بعض المفاوضات
الحساسة بعض الشيء، وقد فهمت أنها لا يمكن أن تتم انطلاقاً من
السفارة. أريد منك أن تحجز لي غرفة الليلة في فندق تيو، وأرغب
في مغادرة السفارة بشكل لا يلفت الأنظار. أي أنني لا أريد الذهاب
إلى الفندق بسيارة تابعة للسفارة، كما أنني أريد حجز مقعد على
الطائرة المغادرة إلى القاهرة بعد غد.

بدا شريفنهام أكثر خشية وأسى وقال: ولكنني فهمت أنك
ستبقى خمسة أيام...

- لم يعد الأمر كذلك. من الأهمية البالغة أن أصل القاهرة
حالما ينتهي عملي هنا. لن يكون بقائي أكثر من ذلك مسألة أمانة.

- أمانة؟!

ابتسم السير روبرت ابتسامة مفاجئة غيرت ملامح وجهه
وأزاحت عنه تلك السمة التي كان شريفنهام يشهها بسمه ضابط
تدريب بروسى. فجأة أصبح سحر الرجل ظاهراً وقال: أتفق معك
على أن الأمان لم يكن من مشاغلي عادة، ولكن - في هذه القضية
بالذات - ليست سلامتي الشخصية فقط هي ما ينبغي علي التفكير
فيه... فسلامتي هنا تعني سلامة الكثير من الناس أيضاً. ولذلك قم
بإجراء تلك الترتيبات لي. وإذا ما تعذر الحجز على متن الطائرة
فتقدم بطلب أولوية. سأبقى في غرفتي إلى أن يحين موعد مغادرتي
الليلة.

وعندما فتح شريفنهام فاه ليتكلم أضاف السير روبرت: رسمياً

قل إنني مريض. عدوى ملاريا، بحيث لن أحتاج إلى طعام.

- ولكننا نستطيع أن نرسل لك...

قاطع السير هنري قائلاً: إن صيام أربع وعشرين ساعة عن الطعام لا يعني شيئاً بالنسبة لي. لقد جعلت لفترات أطول من ذلك في بعض رحلاتي. اصنع فقط ما أقوله لك.

في الطابق السفلي جاء زملاء شريفنهام يحيونه ويتساءلون، ودمدم هو مجيباً على تساؤلاتهم: إنها قصة دسائس وتجسس على مستوى كبير. لا أستطيع أن أفهم تماماً تبجح السير روبرت كروفتن لي. هل سلوكه هذا أصيل أم مجرد تصنع وتمثيل. الرداء المتطايير وقبة الأشقياء... إلى آخر تلك المظاهر. لقد أخبرني بعض من قرووا كتيه بأنه -رغم مبالغته في الدعاية لنفسه- قد قام فعلاً بكل تلك الأمور وذهب إلى كل تلك الأصقاع. ولكني لا أدري... ليت توماس رايس قد شفي من مرضه ليتعامل مع هذا الأمر. وبالمناسبة، لقد ذكّرتوني، هل سمعتم بشي يدعى شبل غرين؟

قال صديقه متجهماً: إنه مادة كيماوية... مما تستخدمه الزوجات لقتل أزواجهن، أو العكس.

انكفأ شريفنهام إلى حالة من الصمت المدعور؛ فقد بدأت تنضح له بعض الحقائق الكريهة. لقد أشار كروفتن لي إلى أن توماس رايس، مستشار السفارة للشؤون الشرقية، ربما لم يكن يعاني من التهاب المعدة والأمعاء، بل من تسمم بالزرنيخ. ويضاف إلى ذلك أن السير روبرت أشار إلى أن حياته هو في خطر، وقد أدى قراره بعدم تناول أطعمة وأشربة مُحضّرة في مطبخ السفارة البريطانية إلى

هو روح النزاهة البريطانية عند شريفنهام من الأعماق. لم يستطع تخيل معنى لهذا الأمر كله.

هذه اللقافة الغريبة؟... (أيها الحمقى، لا تحملوا الحقائق بهذا الشكل! أغبياء! لا تخرج ذلك المعطف!)... ولكن يا عزيزتي، كيف وصلتم في مثل هذا اليوم؟ لقد ظننت أن الطائرة لن تهبط أبداً؛ فقد ظلت تدور وتدور، وقلت لنفسي: "إياك والسفر جواً يا ماركوس"... لماذا كل هذه العجرفة؟ وما قد أحضرت شاة معك... من الرائع دوماً رؤية شاة جديدة في بغداد... لماذا لم يأت السيد هاريسون لاستقبالك؟ لقد توقعت مجيئه أمس... ولكن هيا، ينبغي أن تشربا شيئاً على الفور.

الفصل العاشر

لم يكن انطباع فكتوريا الأول عن بغداد إيجابياً وهي تتنفس تراباً أصفر خائفاً. ومن المطار وحتى فندق تيو كانت أذناها عرضة لضجيج مستمر متصاعد: أبواق السيارات تزعق بإصرار مجنون، وأصوات تصيح، وصفارات تصفر، وفوق ذلك أبواق الدراجات النارية التي تقسم الأذان. وفوق ضجيج الشارع كله كان يأتيها صوت السيدة كليب الرقيق المستمر وهو يتكلم. وهكذا وصلت فكتوريا إلى فندق تيو في حالة ذهول ووجوم.

كان هناك زقاق صغير يتفرع من شارع الرشيد باتجاه دجلة، وبعد ذلك عدة درجات تؤدي إلى مدخل الفندق. وعند ذلك المدخل وقف لتحيتهما شاب شديد السمرة ذو ابتسامة عريضة كاد (مجازياً على الأقل) أن يأخذهما بالاحضان. وقدّرت فكتوريا أن هذا هو ماركوس... أو بالأحرى تيو، صاحب الفندق.

اختلطت كلمات ترحيبه بالأوامر التي كان يطلقها بصوت عالٍ للحمالين الذين كانوا يقلون الأمتعة: ها أنتِ قد شرفتنا مرة أخرى يا سيدة كليب... ولكن ما بال ذراعك... لماذا تضعينها في

والآن ها هي فكتوريا تقف وهي تحس بشيء من الدوار في غرفة جدرانها مبيضة بماء الكلل فيها سرير نحاسي ضخّم، وطاولة زينة فرنسية حديثة الطراز، وخزانة ملابس قديمة فكتورية الطراز، وكريسيان منجدان بقمماش ذي ألوان بهيجة. وها هي أمتعتها المتواضعة تستقر عند قدميها، وعجوز هرم جداً ذو وجه أصفر وشعر أبيض على وجته يحييها ويومن لها وهو يضع مناشف جديدة في الحمام ويسألها إن كانت تريد أن يسخن لها الماء للاستحمام.

وحين انسحب الشيخ بانسامة أبوية جلست فكتوريا على السرير ومررت كفها على شعرها، فوجدته ملبداً بالغباء، فيما تعمّر وجهها واغبرّ لونه. نظرت إلى نفسها في المرأة فرأت أن التراب قد غبرّ لون شعرها من الأسود إلى لون بني محمّر غريب. وفتحت الستارة قليلاً ونظرت إلى الشرفة الواسعة التي تطل على نهر دجلة، ولكن لم يكن هناك ما يمكن رؤيته من النهر سوى غمامة صفراء كثيفة. قالت فكتوريا لنفسها وقد داهمتها كآبة عميقة: يا له من مكان كريه!

قالت السيدة كليب بارتياح: ربما كنت -إذن- قد أخطأت في تذكر الاسم... ولكنها بالتأكيد فتاة رائعة وقديرة جداً.

قالت الأخرى بأسلوب من لا يريد إبداء رأي: ها!

قررت فكتوريا أن تبعد عن هذه المرأة قدر إمكانها؛ فقد شعرت بأن اختراع قصص لإقناع هذا النوع من السيدات ليس بالأسهل. عادت إلى غرفتها وجلست على السرير معلقة لنفسها عتاشاً التأمل بوضعها الراهن. إنها تقيم في فندق تيو، وهي واثقة تماماً أنه ليس بالفندق الرخيص، وهي لا تمتلك بحوزتها سوى أربعة جنيهات وسبعة عشر شلناً. وقد تناولت غداء دسماً لم تدفع ثمنه بعد، وكسبت السيدة كليب مجبرة على دفع ثمنه؛ فقد كانت أجور السفر إلى بغداد هي ما عرضته السيدة كليب، وقد اكتملت الصفقة، ووصلت فكتوريا إلى بغداد. وقد تلقت السيدة كليب الرعاية المحترقة من ابنة أخ أسقف وممرضة سابقة وسكرتيرة قديرة، وانتهى كل ذلك بما يرضي الطرفين. ستغادر السيدة كليب بقطار المساء إلى كركوك... وبذلك ينتهي كل شيء. تسلت فكتوريا بشيء من الأمل في أن السيدة كليب ربما أصبحت على منحها هدية بمناسبة انتهاء خدماتها على شكل دفعة نقدية، ولكنها تخلت عن الفكرة بتردد باعتبارها فكرة غير محتملة، فقد لا تعرف السيدة كليب أبداً أن فكتوريا في حاجة ماسة للمال.

ما الذي ستفعله فكتوريا إذن؟ جاءها الجواب فوراً: "العثور على إدوارد بالطبع". وعندئذ أدركت -بشيء من الانزعاج- أنها لا تعرف أبداً اسم عائلة إدوارد. كل ما تعرفه هو إدوارد و... بغداد.

نهضت وعبرت استراحة الدرج ثم طرقت باب السيدة كليب. سيطلب منها الأمر هنا تقديم خدمات عديدة مطولة للسيدة كليب قبل أن تنفرغ هي لتنظيف نفسها واستعادة مظهرها.

وبعد أن اغتسلت وتناولت غداءها وأخذت قيلولة طويلة، خرجت فكتوريا من غرفتها إلى الشرفة ونظرت إلى دجلة باستحسان. كانت العاصفة الرملية قد تلاشت، وبدل الغمامة الصفراء ظهر على النهر ضوء صافٍ باهت اللون، وخلف النهر انتصبت ظلال رقيقة لأشجار النخيل والبيوت المبعثرة دونما انتظام.

تناهت إلى مسامع فكتوريا أصوات من الحديقة أمغل منها، فتقدمت إلى طرف الشرفة ونظرت تحتها. كانت السيدة كليب (تلك المتكلمة التي لا تتعب) قد تعرفت -بسرعة- على امرأة إنكليزية من أولئك النسوة اللاتي سمعتن بشرتهن الأنواء الجوية ولا يكاد المرء يحزر لهن عمراً محدداً، ويمكن للمرء أن يرى مثيلاتها في أية مدينة غربية. كانت السيدة كليب تقول: ... ولا أدري ما الذي كنت سأفعله دونها. إنها أعذب فتاة يمكن لك تصورها. كما أنها ذات صلات واسعة مرموقة؛ إنها ابنة أخ أسقف لانغو.

- أسقف ماذا؟

- أسقف لانغو كما أفطن.

قالت الأخرى: هراء، لا يوجد مثل هذا الشخص.

قطبت فكتوريا جبينها؛ فقد ميزت في هذه المرأة نموذج المرأة الإنكليزية الريفية التي لا تتخضع بذكر أساقفة مزيفين.

إذن ينبغي عليها العثور على إدوارد فوراً، وينبغي على إدوارد أن يعثر لها على عمل... فوراً أيضاً.

إنها لا تعرف اسم عائلة إدوارد، ولكنه جاء إلى بغداد كمسكرتير لشخص يدعى الدكتور راثنون، ويُفترض أن هذا الرجل مهم وذو مركز مرموق. وهكذا أصلحت فكتوريا زيتتها ومشطت شعرها ثم نزلت الدرج بحثاً عن المعلومات.

كان ماركوس، ذو الانتماء العريضة، يعبر صالة الفندق فحياها قائلاً: آه، الأتسة جونز. ما رأيك في القدوم معي لشرب الشاي معاً يا عزيزتي؟

وافقت فكتوريا بسعادة (وهي التي لا تعارض الضيافة المجانية أبداً). جلسا على طاولة في المقصف، وبدأت بحثها عن المعلومات: هل تعرف شخصاً يدعى الدكتور راثنون جاء إلى بغداد لتوه؟

أجاب ماركوس تيو بمرح: أنا أعرف كل من في بغداد، وكل من في بغداد يعرفون ماركوس. إن ما أقوله لك صحيح. آه! إن لدي الكثير الكثير من الأصدقاء.

- أنا واثقة من ذلك. هل تعرف الدكتور راثنون؟

- في الأسبوع الماضي نزل عندي في الفندق قائد القوة الجوية الذي يتولى قيادة الشرق الأوسط كله. وقد قال لي: "أيها الشقي ماركوس، لم أرك منذ عام ١٩٤٦، وأنت لم تخف شيئاً من وزنك!". إنه رجل رائع جداً، أحبه كثيراً.

- وماذا عن الدكتور راثنون؟ أهو رائع أيضاً؟

- تلك السيدة هاميلتون كليب... يا له من اسم! تلك التي جئت معها، أمريكية، أليس كذلك؟ إنني أحب الأميركيين. ولكنني أحب الإنكليز أكثر. هل تعرفين السيد سامرز؟ إنه يشرب كثيراً عندما يأتي إلى بغداد بحيث يذهب لينام ثلاثة أيام متواصلة!

- أرجوك أن تساعدني.

بدأ ماركوس مذهوئاً وقال: بالطبع سأساعدك. إنني أساعد دوماً أصدقائي. قلني ماذا تريد... وسيفقد في الحال شريحة لحم مميزة، أم ديك حبش مع الأرز والزبيب، أم تفضلين الفواريح الصغيرة؟

قالت: "لا أريد فواريح صغيرة"، ثم أضافت بشيء من الوقاحة: ليس الآن على الأقل... أريد العثور على هذا الدكتور راثنون. الدكتور راثنون. لقد وصل لتوه إلى بغداد. مع... مع سكرتير له.

- لا أدري؛ إنه لا يقيم في تيو.

كانت الإشارة واضحة إلى أن كل من لا يقيم في فندق تيو ليس له وجود بالنسبة لماركوس. ألحقت فكتوريا قائلة: ولكن توجد فنادق أخرى؟ أو ربما كان له بيت خاص؟

- آه، نعم. توجد فنادق أخرى. قصر بابل، وسنجاريب، وفندق زبيدة... وهي فنادق جيدة، ولكنها ليست مثل تيو.

طمأنته فكتوريا قائلة: أنا واثقة أنها ليس كفندق تيو، ولكن

ألا تعرف إن كان الدكتور رايبون يقيم في أي منها؟ إنه يدير جمعية ما... شيئاً ذا علاقة بالثقافة والكتب.

غداً ماركوس شديد الجدية لذكر الثقافة وقال: إنها ما نحتاجه. يجب أن يكون لدينا الكثير من الثقافة. فن وموسيقى... أمور رائعة، رائعة جداً. أنا - شخصياً - أحب السوناتات التي تُعزف على الكمان، إن لم تكن طويلة جداً.

وفي حين كانت فكتوريا توافق على كل شيء، وخاصة على عبارته الأخيرة، أدركت أنها لا تقترب أبداً من هدفها. رأت أن الحديث مع ماركوس مسألٌ جداً، وأن ماركوس شخص جذاب بحماسة الطفولية للحياة، ولكن الحديث معه ذكرها بسعي «أليس في بلاد العجائب» للعثور على درب يقودها إلى التلة؛ فقد كان كل موضوع ينتهي إلى نقطة انطلاقه الأولى... ماركوس!

نهضت حزينه وخرجت إلى المصطبة الخارجية ووقفت قرب سياجها تنظر إلى النهر، ثم ما لبثت أن سمعت صوتاً من خلفها يقول: غفواً، ولكن من الأفضل أن تذهبي وترتدي معطفاً. أظن أن الجو يبدو لك صيفياً كونك قادمة من إنكلترا، ولكنه يبرد كثيراً عند الغروب.

كانت تلك هي المرأة الإنكليزية التي رأتها فكتوريا تتكلم مع السيدة كليب قبل قليل. كان صوتها أجش خشناً كما لو كانت معتادة على تدريب كلاب صيدٍ تديم الصباح فيها، وكانت ترتدي معطفاً من القرو وتضع بطانية على ركبتيها.

قالت فكتوريا: آه، شكراً لك، وكانت على وشك الانسحاب

بسرعة، ولكن نواياها لم تفلح، إذ قالت لها المرأة: ينبغي أن أعرفك بنفسي. أنا السيدة كارديو ترينتس. أظن أنك وصلت مع السيدة... ما اسمها؟ السيدة كليب.

- نعم، هذا صحيح.

- لقد أخبرتني أنك ابنة أخ أسقف لانغو.

استجمعت فكتوريا قواها وسألت بالقدر المناسب من العجب اللاهي: أوحفاً قالت ذلك؟!!

- أيمكن أن تكون قد أخطأت في الاسم؟

قالت فكتوريا: "يميل الأمريكيون لحفظ بعض أسمائنا بشكل خاطئ. ولكن الاسم يشبه قليلاً اسم لانغو". ثم قالت وهي ترتجل بسرعة: إن عمي هو أسقف لانغاو.

- لانغاو؟!!

- نعم... في أرخبيل المحيط الهادئ؛ إنه أسقف المستعمرة هناك بالطبع.

قالت السيدة ترينتس وقد خفت نبرة صوتها ثلاث درجات صوتية على الأقل: آه، أسقف المستعمرة؟

وكما توقعت فكتوريا فإن السيدة ترينتس كانت جاهلة تماماً بأساقفة المستعمرات. أضافت السيدة ترينتس قائلة: "هذا يفسر

الأمر"، وفكرت فكتوريا بفخر بأن هذا يفسر الأمر بشكل رائع بالنسبة إلى كذبة كانت مرتجلة من وحي اللحظة!

سألت السيدة تريتش بذلك الود اللطيف الذي لا يقاوم، والذي يخفي خلفه فضولاً طبيعياً: وماذا تفعلين أنت هنا؟

إن جواباً من قبيل: "أبحث عن شاب تحدثت معه لعدة دقائق في حديقة عامة في لندن" لا يكاد يكون جواباً يمكن لفكتوريا أن تجيب به. تذكرت ذلك المقطع الذي قرأته في الصحيفة وما قالته للسيدة كليب بناء عليه ثم قالت للسيدة تريتش: إنني سألتحق بعمي! الدكتور باونسفوت جونز.

- آه، تلك هي أنت إذن؟

بدا سرور السيدة تريتش واضحاً لتمكّنها من "تحديد موقع" فكتوريا، وأضافت: يا له من رجل ضئيل رائع! رغم أنه شارد الذهن قليلاً. ومع ذلك أظن أن الشroud مسألة متوقعة منه. لقد سمعته يحاضر السنة الماضية في لندن. كانت محاضرة رائعة... رغم أنني لم أفهم حرفاً مما قيل فيها. نعم، لقد مرّ من بغداد قبل نحو أسبوعين، وأظنه أشار إلى فتيات سيلتحقن به في وقت لاحق.

سارعت فكتوريا -وقد رشّخت الآن هويتها ومكانتها- إلى طرح سؤال: هل تعلمين إن كان الدكتور رايبون هنا في بغداد؟

- لقد جاء لنوه. أظنهم طلبوا منه إلقاء محاضرة في المعهد يوم الخميس القادم، محاضرة عن "الأخوة والعلاقات الدولية"... أو موضوعاً من هذا القبيل. وهذا كله هراء إن أردت رأيي. كلما حاول

المرء التقريب بين الناس كلما ازدادت شكوكهم بعضهم ببعض. كل هذا الشعر والموسيقى وترجمة شكسبير إلى العربية والصينية والهندوسية... إلى آخر ذلك. ما فائدة هذا كله؟

- هل تعرفين أين بقيم؟

- أظنه في فندق القصر البابلي، ولكن مقر عمله قرب المتحف. إنه يسمى «غصن الزيتون»... اسم سخيف، وهو مليء بالفتيات ذوات السراويل العريضة والنظارات والرقاب المسخخة.

- إنني أعرف سكرتيره معرفة بسيطة.

- آه، نعم... ما اسمه؟ إدوارد. إنه شاب لطيف، وهو أفضل من أن يُحسّر في عمل نسائي كعمل السكرتاريا. سمعت أنه أبلى بلاءً حسناً في الحرب، ومع ذلك فالعمل هو العمل. إنه شاب وسيم، ويخيل لي أن وجوده نعمة على أولئك الفتيات هناك.

شعرت فكتوريا بوخز غير مدمرة وقالت: «غصن الزيتون».. أين قلت مكانه؟

- هناك بعد متعطف الجسر الثاني، في أحد فروع شارع الرشيد... غير بعيد عن سوق النحاس. ولكن كيف حال السيدة باونسفوت؟ هل ستأتي قريباً؟ سمعت أن صحتها كانت سيئة؟

ولكن بعد أن حصلت فكتوريا على المعلومات التي تريدها لم تعد راغبة في المجازفة بالمزيد من القصص المخترعة. نظرت إلى الساعة في معصمها وهتفت: آه، يا إلهي! لقد وعدت بإيقاظ

السيدة كليب في الساعة السادسة والنصف ومساعدتها في التحضير للرحلة. عليّ أن أذهب بسرعة.

كان العذر صحيحاً تماماً، رغم أن فكتوريا قد استبدلت الساعة السادسة والنصف بالساعة السابعة. هرعت صاعدة على الدرج بحبوبة ثامة، إذ أنها سترى إدوارد غداً في «غصن الزيتون». فتيات جادات متسخرات الرقاب! هذا يوحي بأنهن أبعد ما يكنّ عن الجاذبية... ومع ذلك فكرت فكتوريا بقلق بأن الرجال أقل ملاحظة وانتقاداً للرقاب المتسخة من النساء الإنكليزيات الكهلات اللاتي يولين عناية خاصة للنظافة العامة من أمثال السيدة ترينتش!

مرّ المساء سريعاً، وتناولت فكتوريا وجبة مبكرة في غرفة الطعام مع السيدة كليب التي لم تترك موضوعاً لم تخض فيه بالتفصيل. وقد حشت فكتوريا على الذهاب لزيارتها يوماً ما في كركوك... وقد كتبت فكتوريا العنوان بعناية (لأن المرأة لا يدري ما تأتي به الأيام)، ثم رافقت السيدة كليب إلى محطة بغداد الشمالية واطمأنت على جلوسها بارتياح في مقصورتها.

هدر محرك القطار بصيحات عالية كثية، ومرت السيدة كليب بمغلف بين يدي فكتوريا قائلة: "هذه مجرد ذكرى بسيطة يا آنسة جونز لرفقتنا السعيدة جداً، وأرجو أن تقبلها مع خالص شكري وعرفاني".

قالت فكتوريا بصوت فرح: هذا -حقاً- مبالغ في اللطف من طرفك يا سيدة كليب.

أصدر محرك القطار صيحة ألم رابعة وأخيرة، ثم تحرك ببطء

خارج المحطة. واستقلت فكتوريا سيارة أجرة من المحطة عائدة إلى الفندق، إذ لم تكن لديها أدنى فكرة عن كيفية العودة بوسيلة أخرى ولم تعرف من يمكن أن تسأله. ولدى عودتها لفندق تيو هرعت إلى غرفتها في الطابق العلوي وفتحت المغلف بلهفة فوجدت داخله زوجاً من جوارب النايلون النسائية.

كان من شأن فكتوريا -في أية مناسبة أخرى- أن تفتتن بهذه الهدية؛ فقد كانت جوارب النايلون دوماً سلعة لا تملك شراءها، ولكنها -في هذه اللحظة بالذات- كانت تمنى مبلغاً نقدياً. لقد كانت السيدة كليب من الرقة واحترام مشاعر الآخرين بحيث لم تفكر في إعطائها ورقة من فئة خمسة دنانير، ولكن فكتوريا تمت من كل قلبها لو لم تكن السيدة كليب على هذا القدر من الرقة.

على كل حال، غداً ستكون مع إدوارد. أوت إلى سريرها لتغظ في سبات عميق خلال خمس دقائق، حاملة بأنها كانت تنتظر إدوارد في أحد المطارات، ولكن فتاة تضع نظارات منعت من اللحاق بها بأن أمسكت به بإحكام من عنقه بينما بدأت الطائرة تتحرك ببطء...



- أتعرفه معرفة جيدة؟

- لا، هذه أول مرة أراه فيها. لقد أحضره إلى هنا ليلة أمس السيد شريفتهام العامل في السفارة البريطانية. والسيد شريفتهام رجل لطيف جداً أيضاً، وأنا أعرفه هو حتى المعرفة.

الفصل الحادي عشر

تساءلت فكتوريا - وهي ذاهبة لتناول الإفطار - إن كان ثمة شخص واحد لا يعتبره ماركوس لطيفاً جداً؛ فقد بدا لها الرجل سخياً جداً في عواطفه.

استيقظت فكتوريا على صباح مشمس بهيج. وبعد أن ارتدت ملابسها خرجت إلى الشرفة العريضة لغرفتها. نظرت قرأت على إحدى الشرفات القريبة رجلاً جالساً وظهروه باتجاهها وشعره الأشيب طويل على شكل خصللات دائرية تمتد نزولاً إلى رقبته السمراء المحمرة. وعندما أدار الرجل رأسه أدركت فكتوريا - بإحساس من الدهشة - أنه السير روبرت كروفتن لي. وما كان بوسعها أن تفسر سبب دهشتها الكبيرة تلك، ولكن ربما كان ذلك لأنها افترضت - تسليماً - بأن شخصاً بارزاً مثل السير روبرت كان من شأنه أن يقيم في السفارة لا في فندق. ومع ذلك ها هو يجلس هناك يتحدث إلى دجلة بشي من التركيز الشديد. بل إنها لاحظت أن لديه منظراً مقرباً وضعه على الكرسي بجانبه، ولذلك رأت فكتوريا أنه ربما كان من هواة مراقبة الطيور ودراساتها.

نزلت فكتوريا إلى الطابق السفلي فالتقت بماركوس ثيو في طريقها وقالت له: أرى أنكم تستضيفون السير كروفتن لي هنا.

- آه، نعم. إنه رجل لطيف... لطيف جداً.

بعد الإفطار بدأت فكتوريا مهمة البحث عن «غصن الزيتون». وباعتبارها من أهل لندن، فإنها لم تكن تعرف شيئاً عن مصاعب العثور على مكان محدد في مدينة كينغداد حتى بدأت مهمة البحث تلك. فقد التقت بماركوس ثانية عند خروجها وطلبت منه أن يدلها على المتحف فقال مبتسماً: إنه متحف رائع جداً. نعم، مليء بالأشياء المثيرة القديمة جداً جداً. صحيح أنني لم أزره شخصياً، ولكن لدي أصدقاء من علماء الآثار الذين يقيمون هنا دوماً عند مرورهم من بغداد. السيد ريتشارد بيكر مثلاً... هل تعرفه؟ والبروفسور كاشمان، والدكتور باونسفوت جونز، والسيد مانتاير وزوجته... جميعهم يأتون إلى الفندق، وهم يخبروني عما هو موجود في المتحف، وهي أمور مثيرة جداً جداً.

- أين هو المتحف وكيف أصل إليه؟

- تسيرين على طول شارع الرشيد... وهي مسافة طويلة، وتعبرين التقاطع الذي يقضي إلى جسر فيصل كما تعبرين شارع البنوك... هل تعرفين شارع البنوك؟

- لا أعرف شيئاً.

- ثم تجدين هناك شارعاً آخر... وهو يقضي أيضاً إلى جسر،
وتجدين المتحف هناك إلى يمينك. أسألي عن السيد يتون إيفانز،
فهو مستشار إنكليزي هناك، وهو رجل لطيف جداً. وزوجته لطيفة
جداً أيضاً، جاءت إلى هنا بروتة عريف في قسم النقل خلال الحرب
أه، إنها لطيفة جداً جداً.

- أنا لا أريد حقاً الذهاب إلى المتحف تحديداً، ولكنني أريد
العثور على مكان... جمعية أو نادٍ يُدعى «غصن الزيتون».

- إن كنتِ تريدين زيتوناً أعطيتكِ زيتوناً رائعاً من نوعية جيدة
جداً، وهم يحتفظون به خصيصاً لي... أو لفندق تيو. سأرسل لك
بعضاً منه إلى طاولتك اللبنة.

قالت له فكتوريا: «هذا لطف كبير منك»، ثم نجت منه لتذهب
إلى شارع الرشيد، فقال لها وهي ذاهبة: سيري على اليسار لا على
اليمين. ولكنه طريق طويل؛ من الأفضل أن تأخذي سيارة أجرة.

- وهل يعرف سائقو سيارات الأجرة أين يقع «غصن
الزيتون»؟

- لا؛ إنهم لا يعرفون أي مكان! أنت تقولين لهم: شمالاً،
يميناً، مباشرة، توقف... إلى أن تصلي مبتغاك.

- من الأفضل أن أمشي في هذه الحالة.

وصلت شارع الرشيد وانعظفت شمالاً كانت بغداد تختلف

كلياً عن الفكرة التي كانت في ذهنها عنها. شارع كبير مكتظ
بالناس، وسيارات تطلق أبواقها بشدة، وأناس يتصايحون، وبضائع
أوروبية للبيع في واجهات المحلات. ما من أشكال شرقية غامضة.
وكان الرصيف -تحت قدميها- غير مستوٍ تملؤه الحفر بين مسافة
وأخرى.

تابعت طريقها وقد أحست -فجأة- بأنها غريبة ضائعة بعيداً
عن وطنها. لا يوجد هنا بريق للسفر، لا يوجد إلا القوضى. وأخيراً
وصلت إلى جسر فيصل فغيرته واستمرت في المشي. وقد أسرها
-رغم أنها- ذلك المزيج الغريب للأشياء في واجهات المحلات؛
إذ توجد هنا أحدى الأطفال وملابسهم الصوفية، ومعجون الأسنان
ومواد التجميل، والمصابيح الكهربائية البدوية وأواني وفناجين
البورسلان... وكلها معروضة معاً على صعيد واحد. بدأ نوع من
الافتتان يسيطر عليها، افتتان بال بضائع الآتية من كل أنحاء العالم
لتلبي الحاجات الغربية المتنوعة لمجتمع متنوع.

وجدت المتحف ولكنها لم تجد «غصن الزيتون»، وبدأ لها
-وهي المعتادة على العثور على طريقها في لندن- أن من الغريب
تماماً أن لا يوجد من تستطيع أن تسأله، فلم تكن تعرف العربية،
وأولئك من أصحاب المحلات الذين كلموها بالإنكليزية ترويجاً
لبضائعهم قابلوها بوجوه تائهة عندما سألتهم عن الطريق إلى «غصن
الزيتون».

لو كان بمقدور المرأة فقط أن يسأل شرطياً! ولكنها أدركت وهي
تنظر إلى رجال الشرطة وهم يلوحون بأيديهم ويطلقون صافرتهم بأن
ذلك لن يكون حلاً هنا.

دخلت إلى مكتبة عرضت في واجهتها كتباً إنكليزية، ولكن سألها عن «غصن الزيتون» لم يُقابل إلا برفع الكتفين وهز الرأس تأسفاً، وكان مؤسفاً أنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا المكان. بعدها تنأهت إلى أذنها - وهي تمشي في الشارع - أصوات طقطقة وطرق قوي فاطلّت إلى زقاق طويل قليل الإضاءة، وتذكرت قول السيدة كارديو ترتيتش إن «غصن الزيتون» قريب من سوق النحاس. ها هو إذن - على الأقل - سوق النحاس.

دخلته فكتوريا، ونسيت «غصن الزيتون» تماماً خلال ثلاثة أرباع الساعة التي تلت ذلك. لقد فتحتها سوق النحاس... الأنابيب القاذقة للنار لأغراض اللحام، والمعدن الذائب، والصنعة البديعة، كلها جاءت بمثابة رؤيا تكشفت لتلك اللندنية المعتادة فقط على البضائع الجاهزة المكدسة لأغراض البيع. تجولت في السوق على غير هدى، ثم خرجت من جانبها الآخر لتأتي إلى حيث سروج الخيل المقلّمة، وأغطية الأسرة القطنية. هنا تكتسب البضائع الأوروبية مظهراً مختلفاً تماماً، ففي العتمة الباردة للزقاق المسقوف تصبح لهذه البضاعة الصفة الغريبة التي تميز شيئاً جاء مما وراء البحار، شيئاً غريباً ونادراً. أكوام من الملابس القطنية الملونة بألوان زاهية فرحة تسر الناظر إليها.

مشيت فكتوريا كما لو كانت في حلم سعيد. هذه هي - حقاً - رؤية العالم. في كل منعطف في عالم السوق المسقوف الرطب هذا يقابل المرء شيئاً لم يكن يتوقعه أبداً... زقاق للحياطين، يجلسون وهم يدرزون الثياب وخلفهم صور لبدلات أنيقة يرتديها رجال أوروبيون. مع ساعات وحلي رخيصة. أثواب ملفوفة من قماش

المخمل وغيره... ثم تتعطف فجأة لتري نفسك في زقاق للملابس الأوروبية الرخيصة المستعملة، سترات باهتة الألوان تثير الشفقة، وصدریات طويلة مطّيت حتى فقدت شكلها الأصلي. وبين الحين والآخر تكاد تلمح فتحات تقضي إلى باحات واسعة هادئة مفتحة على السماء.

وصلت إلى صف طويل من خياطي السراويل الرجالية، والعديد من التجار يجلسون متريعين في تلك الفسحات المربعة الصغيرة أمام دكاكينهم.

جاء من خلفها حمار حُمِّل أكثر من طاقته فجعلها تفصح له المجال وتدخل زقاقاً ضيقاً غير مسقوف تعرّج بين بيوت عالية. وفيما كانت تمشي في ذلك الزقاق اهتدت - بمحض الصدفة - إلى بعيتها؛ فقد نظرت من خلال إحدى الفتحات في الزقاق إلى باحة مربعة صغيرة، وفي الطرف البعيد من الباحة كان باب عُلق فوقه لوحة كبيرة كتب عليها «غصن الزيتون»، وبجانبها عصفور من الجص سيء المنظر يحمل في منقاره غصناً غريب الشكل.

أسرعت فكتوريا - بفرح - لعبور الباحة، ثم دخلت الباب لتجد نفسها في غرفة قليلة الإضاءة فيها طاولات مليئة بالكتب والمجلات، فيما اصطف المزدحم من الكتب على الرفوف. بدت الغرفة أشبه بمكتبة لبيع الكتب لولا وجود عدد من الكراسي التي اصطفت هنا وهناك. ومن العتمة جاءت إلى فكتوريا شابة قالت لها بلغة إنكليزية حذرة: بماذا أستطيع مساعدتك، لطفاً؟

نظرت إليها فكتوريا. كانت ترتدي بنطالاً قطنياً سميكاً وفميصاً

برتقالياً، وكان شعرها أسود تم قصه ليصبح قصيراً فوق الرقبة.

قالت فكتوريا: أهذا... أهذا... هل الدكتور راثبون هنا؟

من المثير للجنون أن لا نعرف اسم عائلة إدوارد حتى الآن! حتى السيدة كارديو تريتش أسمته إدوارد فقط. قالت الفتاة: نعم. هل ترغبين بالانضمام إلينا؟ سيكون ذلك رائعاً.

- ربما... إنني... هل أستطيع رؤية الدكتور راثبون رجاء؟

ابتسمت الشابة ابتسامة متعبة وقالت: نحن لا نزعجه. إن لديني استمارة وسأشرح لك كل شيء، وبعد ذلك توقعين الاستمارة. ثمها ديناران رجاء.

قالت فكتوريا وقد هالها ذكر الدينارين: لست والثقة - بعد - من عزمي على الانضمام إليكم. أرغب برؤية الدكتور راثبون... أو سكرتيره. تكفي مقابلة السكرتير.

- أنا سأشرح لك، سأشرح لك كل شيء. نحن كلنا أصدقاء هنا، أصدقاء معاً، أصدقاء من أجل المستقبل... نقرأ كتباً تربوية رائعة جداً... نشهد الأشعار بعضنا على بعض.

قالت فكتوريا بصوت عالٍ وواضح: سكرتير الدكتور راثبون. لقد أوصاني تحديداً بأن أسأل عنه.

اكتسب وجه الفتاة شيئاً من التكد المعاند وقالت: ليس اليوم. أنا أشرح...

- لماذا ليس اليوم؟ أليس موجوداً؟ أليس الدكتور راثبون هنا؟

- بلى، إنه هنا... في الطابق العلوي، ولكننا لا نزعجه.

اكتسح فكتوريا نوع من الغضب وقالت بشرة تكاد تكون نيرة السيدة كارديو تريتش نفسها: "لقد وصلت لتوي من إنكلترا وعندي رسالة مهمة جداً للدكتور راثبون ينبغي علي تسليمها له شخصياً. يرجى أن تأخذيني إليه على الفور! إنني أسفة على إزعاجه، ولكنني مضطرة لرؤيته". ثم أضافت لتنتهي الموضوع: على الفور!

استدارت الفتاة فوراً وقادتني إلى مؤخرة الغرفة، ثم صعدت بها درجاً، وقادتني عبر ممر يطل على الباحة. وهناك توقفت أمام أحد الأبواب وطرقته، فجاء من الداخل صوت رجل قائلاً: ادخل.

فتحت الفتاة الباب وأشارت لفكتوريا بالدخول قائلة: إنها سيدة من إنكلترا جاءت لرؤيتك.

دخلت فكتوريا. ونهض رجل لتحييتها من خلف مكتب ضخم تغطيه الأوراق. كان رجلاً كهلاً مهيب المنظر في نحو الستين من عمره ذا جبين عالٍ مقوس وشعر أبيض، وكانت الإنسانية والطف والسحر أبرز خواص شخصيته. وكان من شأن مخرج مسرحي أن يستدل إليه - دون تردد - دور المحب العظيم للشبوة، العامل من أجلها.

حيا فكتوريا بابتسامة دافئة ويد ممدودة وقال: لقد جئت لتوك من إنكلترا إذن. أهي زيارتك الأولى للشرق؟

- نعم.

- إني لأسألك عن رأيك به الآن... لا بد أن تخبريني برأيك يوماً ما. والآن لأفكر، هل سبق لي مقابلتك من قبل؟ إنني أعاني من قصر نظر شديد، وأنت لم تعطيني اسمك.

- أنت لا تعرفني، ولكنني صديقة لإدوارد.

- صديقة لإدوارد. هذا رائع. وهل يعرف إدوارد أنك في بغداد؟

- لم يعرف بعد.

- ستكون هذه مفاجأة سارة له عندما يعود.

قالت فكتوريا بصوت من أسقط بيده: يعود؟

- نعم؛ إدوارد في البصرة حالياً، اضطورت لإرساله إلى هناك لاستلام بعض صناديق الكتب التي جاءتنا. لقد حدثت تأخيرات مزعجة جداً في الجمارك فلم نستطع التخليص عليها. لا حل لذلك إلا بالحضور الشخصي هناك، وإدوارد بارع في مثل تلك الأمور ولن يهدأ له بال حتى ينتهي من الأمر. إنني أقدر إدوارد كثيراً.

ثم رمش بعينه وقال: ولكن لا أظنني بحاجة لمندح إدوارد على مسامعك يا فتاتي.

سألت فكتوريا بصوت واهن: متى... متى سيعود من البصرة؟

- هذا ما لا أستطيع تحديده الآن. لن يأتي قبل أن ينجز مهمته... ولا يستطيع المرء استعجال الأمور كثيراً في هذا البلد. أخبريني أين تقيمين وسأجعله يتصل بك بمجرد عودته.

قالت فكتوريا بياس وهي تدرك محتنتها المالية: كنت أتساءل... كنت أتساءل إن... إن كان بوسعي القيام بعمل ما هنا؟

قال الدكتور راثبون بحرارة: هذا ما أقدره. نعم، بوسعك طبعاً. إننا بحاجة إلى كل العاملين، إلى كل العون الذي يمكننا الحصول عليه، وخاصة الفتيات الإنكليزيات. إن عملنا يسير بشكل رائع، بشكل رائع تماماً، ولكن لدينا الكثير مما ينبغي فعله. ومع ذلك فأناس متحمسون. إن لدي الآن ثلاثين مساعداً مطوعاً... ثلاثين... وكلهم شديداً الحماسة! وإذا ما كنت جادة بالفعل فيمكن أن تكوني قيمة جداً بالنسبة لنا.

وقعت كلمة «مطوع» وقوعاً سيئاً على مسامع فكتوريا فقالت: لقد أردت - في الواقع - وظيفة بأجر.

بدت الغيبة على وجه راثبون وقال: آه! هذه مسألة أصعب. إن ملاكنا العامل بأجر صغير جداً، وهو كافٍ تماماً حالياً، مع ما نحصل عليه من مساعدة تطوعية.

قالت: "لا يسمح وضعي المالي إلا بالحصول على وظيفة بأجر". ثم أضافت دون أي خجل: إنني طابعة اختزال قديرة.

- أنا واثق أنك قديرة يا فتاتي العزيزة. إنك تشقين كفاءة إذا صح التعبير، ولكن قضيتنا هي قضية نقص الأموال. ولكن حتى إن

لم تملك فكتوريا إلا أن تشعر بأن الدكتور رايبون كان يبالغ في تناوله واقتراضه بأن كل هذه العناصر المتنافرة التي تلتقي بسحب بعضها بعضاً بالضرورة؛ فهي وكاثرين -مثلاً- لم تحب إحداهما الأخرى أبداً، وقد كانت مقتنعة بأن زيادة عشرينهما لن تؤدي إلا إلى زيادة الكراهية بينهما.

قال الدكتور رايبون: إن إدوارد رائع، فهو يتسجم بسرعة مع الجميع، وهو وكاثرين منسجمان جداً بشكل خاص.

قالت فكتوريا بيرود: "حقاً؟"، وازدادت حدة كراهيتها لكاثرين.

قال رايبون وهو يتسهم: حسناً، تعالى لمساعدتنا عندما نستطيعين.

كانت عبارته إشارة إلى انتهاء المقابلة، وخرجت فكتوريا من الغرفة نازلة الدرج. كانت كاثرين واقفة قرب الباب تتحدث مع فتاة كانت قد جاءت لتوها حاملة حقيبة صغيرة بيدها. كانت فتاة سمراء جميلة، وتحيل لفكتوريا -لحظة فقط- أنها رائتها من قبل في مكان ما، ولكن الفتاة نظرت إليها دون أن تبدو عليها أي إشارة تنيد بأنها تعرف فكتوريا. كانت الفتاتان تتحدثان بلهفة معاً بلغة لا تعرفها فكتوريا، وعندما وصلت سكتتا وبقينا صامتتين ننظران إليها. مشيت وعبرتهما متجهة إلى الباب، وأجبرت نفسها وهي خارجة على أن تقول لكاثرين بأدب: "وداعاً".

شقت طريقها من الزقاق إلى شارع الرشيد، ومشيت ببطء عائدة إلى الفندق وهي تكاد لا ترى حشود الناس حولها. حاولت أن

حصلت على وظيفة في مكان آخر فإني أمل أن تساعدني في أوقات فراغك. معظم العاملين معنا لهم أعمالهم الخاصة التي يعيشون منها. أنا واثق أنك ستجدين مساعدتك لنا أمراً يثير الحماسة ويسمو بالروح. لا بد من وضع نهاية لكل الوحشية في العالم ولكل الحروب وسوء الفهم والشكوك. إن ما نحتاجه جميعاً هو أرضية مشتركة تجتمع عليها. الدراما، الفن، الشعر... عظام الروح... لا مكان هناك للكراهية والأحقاد الصغيرة.

قالت فكتوريا ياريتاب: "نعم". وتذكرت أصدقاء لها كانوا ممثلين وفنانين وبدت حياتهم كلها أحقاداً على أنه الأسباب، وكراهية كأشد ما تكون الكراهية. مضى الدكتور رايبون قائلاً: لقد ترجمنا مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف» إلى أربعين لغة مختلفة، أي أن أربعين مجموعة مختلفة من الشباب يستجيبون ويفعلون جميعاً بعمل أدبي رائع واحد. الشباب... هذا هو السر. لا فائدة ترجى عندي إلا من الشباب؛ فبمجرد أن تقسو وتتجحر العقول والأرواح يكون الوقت قد فات. نعم، الشباب هم من ينبغي عليهم التوحد. خذي -مثلاً- تلك الفتاة التي استقبلتك في الطابق السفلي. إنها سورية من دمشق، وربما كتبت أنت وهي من عمر واحد، إنكما لن تلتقيا في الأحوال العادية، إذ لن يكون بينكما شيء مشترك، أما هنا في «غصن الزيتون» فإنكما مع غيركما من العراقيات والتركيات والأرمنيات والمصريات والإيرانيات تلتقين جميعاً، ويحب بعضكن بعضاً، وتقرآن نفس الكتب، وتناقشن الأفلام والموسيقى، ولكنكن تكتشفن أشياء وتنفعلن بنباد أفكار ووجهات نظر مختلفة... هذا ما ينبغي أن يكون عليه حال العالم.

تشغل عقلها عن التفكير بمحتتها الخاصة (كمفلسة في بغداد) وذلك بتركيز تفكيرها على الدكتور راثنون ومجمل تركيبة «غصن الزيتون». لقد كانت لدى إدوارد في لندن فكرة بأن في هذا الأمر شيئاً مريباً. ما هو المريب؟ الدكتور راثنون؟ أم «غصن الزيتون» نفسه؟ لا تكاد فكتوريا تصدق أن في الدكتور راثنون شيئاً مريباً؛ فقد بدا لها واحداً من أولئك المتحمسين المُضللين الذين يصرون على رؤية العالم بأسلوبهم المثالي الخاص بصرف النظر عن الواقع.

ما الذي عناه إدوارد بكلمة مريب؟ لقد كان غامضاً جداً في هذه النقطة. وربما لم يكن يدري هو الآخر. أيمن أن يكون الدكتور راثنون محتالاً كبيراً من نوع ما؟ هزت فكتوريا رأسها نفياً، وهي الخارجة لنوها من سحر أسلوبه المهدئ. لقد تغير أسلوبه بالتأكيد (ولو بشكل خفيف لا يكاد يلاحظ) عندما طرحت فكرة دفع راتب لها. من الواضح أنه يفضل عمل الناس له دون أجر.

ولكن فكتوريا رأت في ذلك أمراً طبعياً يدل على فطرة سليمة. لقد كان من شأن السيد غرينهولتر -على سبيل المثال- أن يشعر بنفس شعور الدكتور راثنون في هذا الأمر.

* * *

الفصل الثاني عشر

وصلت فكتوريا إلى فندق تيو وقد ورمت قدمها بعض الشيء ليحييها ماركوس بحماسة وهو يجلس على المصطبة العشبية الخارجية التي تطل على النهر ويتحدث مع رجل نحيل في أواسط عمره يرتدي ثياباً بالية بعض الشيء. هتف ماركوس لها قائلاً: تعالي واجلسي معنا يا آنسة جوتز. أعرفك على السيد داكين... الآنسة جوتز من إنكلترا. والآن يا عزيزتي، ماذا تشرين؟

قالت فكتوريا إنها تريد كأساً من عصير الليمون البارد، ثم أضافت (وهي تتذكر أن الفستق مادة مغذية): وهل لي بشيء من ذلك الفستق اللذيذ؟

قال: "أتحبين الفستق؟ يا إلهي!". ثم أعطى الأمر بالعريّة. وقال السيد داكين -بصوت حزين- إنه سيحضر عصير ليمون أيضاً.

صاح ماركوس وقد جاءتهم السيدة تريتش: آه، ها هي السيدة كارديو تريتش.

قالت مخاطبة فكتوريا: يبدو عليك الحر.

- لقد كنت أتجول لرؤية المدينة.

بعد ذلك جاء رجل قصير القامة قوي البنية وصعد الدرج ليجييه ماركوس بدوره ويقدمه لفكتوريا على أنه الكابتن كروسي، وقد سألتها قائلاً: هل جئت لتوك؟

- بالأمس.

- كنت أفكر بأنني لم أرك هنا من قبل.

قال ماركوس بابتهاج: إنها بالغة اللطف والجمال، أليس كذلك؟ نعم، من الرائع أن تكون الأنسة فكتوريا معنا هنا. سأقيم لها حفلاً... حفلاً رائعاً جداً.

قالت فكتوريا بأمل: وتقدم فيه فرايح؟

- نعم، نعم... وغير ذلك من لذيذ الطعام، وربما الكافيار. ثم إن لدينا طبقاً لذيذاً جداً من السمك... سمك دجلة مع الصلصة والفطر. والديك الحبشي المحشوق على الطريقة المتبعة في بيتي، بالأرز والزبيب والبهارات... وكل ذلك يُشوى كما هو! أو - إذا كنت ترغبين - يمكنك تناول شريحة من اللحم، شريحة كبيرة جداً وطرية، وسوف أشرف عليها بنفسي.

قالت فكتوريا بصوت واهن: سيكون ذلك رائعاً.

جعلها وصف تلك الأطباق تشعر بجوع شديد. ونساءت إن كان ماركوس ينوي - حقاً - إقامة تلك الحفلة، وإن كان الأمر كذلك فمتى سيقمها؟

قالت السيدة تريتش للكابتن كروسي: ظننتك ذهبت إلى البصرة.

أجابها كروسي: لقد عدتُ بالأمس. ثم نظر إلى شرفة فوقه وقال: من ذاك الرجل صاحب الملابس الغربية والقبعة العريضة؟

أجابها ماركوس: هذا السير روبرت كروفتن لي يا عزيزي. أحضره السيد شريفهام من السفارة البريطانية ليلة أمس. إنه رجل لطيف جداً، ورحالة مرموق تماماً. يجوب الصحارى على ظهور الجمال، ويتسلق الجبال... إن نمط الحياة هذا مزيج جداً وخطير جداً. ما كنت لأحب مثل هذه الحياة شخصياً.

كروسي: آه، هذا هو إذن؟ لقد قرأت كتابه.

فكتوريا: لقد كان في الطائرة معنا في القنوم.

نظر كلا الرجلين إليها باهتمام، أو هكذا حُيل إليها. ولكنها أردفت قائلة: إنه متبحر جداً ومعجب بنفسه.

السيدة تريتش: كنت أعرف عمته في سيملا. العائلة كلها هكذا. أذكياها جداً، ولكنهم لا يملكون إلا التبحر بذلك.

علقت فكتوريا بشيء من الاستياء: إنه جالس هناك منذ الصباح لا يفعل شيئاً.

ماركوس: ذلك بسبب معدته؛ إنه لا يستطيع تناول أي طعام.

أكمل السيد داكين كأس عصير الليمون ثم ذهب بهدوء، فيما ذهب كروسبي أيضاً إلى غرفته. ونظرت السيدة تريتش إلى داكين وهو يمضي مبتعداً وقالت: يا له من مسكين! لم ينجح أبداً... لقد أبقى -بالكاد- على وظيفته.

قال السيد ماركوس السخي بعواطفه: ولكنه رجل لطيف جداً.

السيدة تريتش: ها! إنه شخص ضعيف؟ يتسكع من مكان إلى آخر... لا عزم لديه، ولا جدية في مواجهة الحياة. مجرد إنكليزي آخر أتى إلى الشرق وفقد كل تأثير وتماسك.

شكرت فكتوريا السيد ماركوس على ضيافته وصعدت إلى غرفتها، حيث نزعَت حذاءها وتمددت على السرير لتعوط في بعض التفكير الجدي. رأت أن ما بقي لديها من الجنيهاً التي تربو قليلاً على الثلاثة أصبحت من حق ماركوس أصلاً مقابل إقامتها وطعامها في الفندق، وبسبب طبيعته السخية ربما أمكنها حل مشكلة التغذية خلال الأيام القليلة القادمة إن استطاعت أن تعيش بشكل كامل على العصيرات التي يمكن أن تلتهم معها بعض الفستق والزيتون ورقائق البطاطا. كم سيمضي من الوقت قبل أن يقدم لها ماركوس كشف حسابها، وكم سيسمح ببقاء ذلك الكشف غير مدفوع؟ لم تعرف. رأت أنه لم يكن ذلك الرجل الذي لا يابه لمصالح عمله. عليها أن تعثر على مكان أرخص تقم فيه بالطبخ، ولكن كيف ستعرف الطريق إلى العنور على مثل ذلك المكان؟ عليها أن تجد لنفسها عملاً... وبسرعة. ولكن أين يتقدم المرأة بطلب عمل؟ من عساها تسأل ليدلها

على كيفية العنور على عمل؟ كم هو قائل لقدرات المرأة أن يحشر -وهو مفلس عملياً- في مدينة غريبة لا يعرف أساليبها وأسرارها! ومع ذلك فقد شعرت فكتوريا -كعادتها- بالثقة بأنها قادرة على تدبير أمرها بقليل من معرفة البلد.

ينبغي لها أن تحصل على بعض المال أو تحصل على عمل... أي عمل، رعاية أطفال، لصق طوابع في مكتب بريده، الخدمة في مطعم... وإلا فسوف يرسلونها إلى قنصل بلاده، وسوف يتم ترحيلها إلى إنكلترا، ولن تستطيع رؤية إدوارد ثانية.

عند هذا الحد أغضت فكتوريا وقد أُنجمها التفكير.



استيقظت بعد عدة ساعات وقررت أنها لن تتأثر -وهي الغريبة- بالليل، وهكذا نزلت إلى المطعم حيث لم تترك صفراً على قائمة الطعام المتنوعة إلا أكلت منه، وعندما فرغت من ذلك شعرت -نوعاً ما- بأنها أشبه بأفعى ضخمة ابتلعت فريسة كبرى، ولكنها شعرت بالنشاط الأكيد. وفكرت مع نفسها قائلة: لا فائدة من القلق بعد الآن. سأترك كل شيء حتى الغد، فربما ظهر جديد، أو ربما فكرتُ في شيء، أو ربما عاد إدوارد.

وقبل أن تذهب إلى النوم خرجت إلى المصطبة القريبة من النهر، وبما أن الجو كان بالنسبة إلى المقيمين في بغداد جو شتاء قطعي فلم يكن على المصطبة الخارجية أحد آخر باستثناء خادم في الفندق كان يتكئ منحنياً على السياج محدقاً إلى الماء أسفل منه،

وقد قفز الخادم متعبداً كمن يشعر بالذنب عندما ظهرت فكتوريا وهرع عائداً إلى الفندق من باب الخدم.

بدأ الجو بالنسبة لفكتوريا (القادمة من برد إنكلترا) أشبه بجو ليلة صيف عادية في ريحها لسعة برد خفيفة، وقد سحرها منظر دجلة تحت ضوء القمر وضفتها البعيدة تبدو غامضة شرقية بحواشيها من شجر النخيل. قالت فكتوريا لنفسها تنهز من كriebها: حسناً، لقد وصلت إلى هنا على أية حال، وسوف أتدير أمري بشكل ما، فلا بد أن يظهر شيء جديد.

وبهذه العبارة المطمئنة صعدت لثنام، وأنسل الخادم -بهدهوء- إلى الخارج مرة أخرى وعاد لمتابعة مهمته المتمثلة في ربط حبل ذي عُقد بحيث يتدلى نزولاً إلى حافة النهر. وسرعان ما خرج من بين الظلال شيخ شخص آخر وانضم إلى الخادم. قال السيد داكين بصوت منخفض: أكل شيء على ما يرام؟

- نعم يا سيدي، ثم أُر ما يريب.

ويعد أن أكمل مهمته بما يرضيه عاد السيد داكين إلى الظلال، واستبدل بالمعطف الأبيض لخادمه معطفه الأزرق الذي لا يبين له شكل، ثم أخذ يمشي بهدهوء على طول المصطبة حتى وقف وخلفه صفحة الماء توظّر شكله العام تماماً حيث يوجد الدرج الصاعد من الشارع أسفل منه.

قال كروسيي وهو يخرج ويتقدم للانضمام إليه: أصبح الجو

شديد البرد في الليل هذه الأيام، ولكني أظن أنك لا تشعر كثيراً بذلك، وأنت القادم من طهران.

وقف الرجلان هناك للحظات يتحدثان، ولم يكن بمقدور أحد سماع حديثهما إلا عندما يرفعان صوتيهما. قال كروسيي بهدهوء: من هي تلك الفتاة؟

- يبدو أنها ابنة أخ عالم الآثار باونسفوت جونز.

- حسناً... يُفترض -والحالة هذه- أن نكون على ما يرام، ولكن حضورها في نفس الطائرة التي أتى بها كروفتن لي...

- من الأفضل أن لا نسلم جدلاً بأي شيء بالتأكيد.

وقف الرجلان بصمت للحظات قال بعدها كروسيي: أظن حقاً أن من الحكمة نقل ذلك الشيء من السفارة إلى هنا؟

- أظن ذلك، نعم.

- رغم أن الأمر كله قد تم فهمه تماماً بأدق تفصيلاته.

- لقد تم فهمه بأدق تفصيلاته في البصرة... وقد فشل ذلك.

- آه، أعرف. لقد شُتم صلاح حسن بالمناسبة.

- نعم... كان ذلك متوقعاً. هل بدت أية علامات على تقرب أو لجوء إلى القنصلية؟

قال كروسيي: "ربما حدث ذلك كما أظن. وقد حدثت مشكلة هناك، فقد أشهر رجل مسدسه". سكّت قليلاً ثم أضاف: وقد أمسك به ريشارد بيكر ونزع منه مسدسه.

سأل داكين وهو يفكر: ريتشارد بيكر؟

- أنعرفه؟ إنه...

- نعم، أعرفه.

ساد شيء من الصمت، قال بعده داكين: الأرئجال... هذا ما أتوي فعله. إن كان كل شيء لدينا قد فهم كما نقول، وأصبحت عخططنا معروفة، فإن من السهل على الطرف الآخر أن يفهم حركاتنا نحن أيضاً. إنني أشك كثيراً في أن يكون الأمر قد وصل بكارمايكل حتى إلى التقرب من السفارة... وحتى لو وصلها...

ثم هز رأسه حيرة.

- هنا، الواعون لما يجري هم أنت وأنا وكروفتن لي فقط.

- سيعرفون أن كروفتن لي قد انتقل إلى هنا من السفارة.

- آه، طبعاً، كان ذلك أمراً حتمياً. ولكن ألا ترى يا كرومسي

أن أي خطة يضعونها لمواجهة ما سنرتجله ينبغي أن تكون مرجلة هي الأخرى؟ لا بد أن تكون خطة تبتكر وتعد بسرعة، ولذلك ينبغي أن تأتي من الخارج إذا صح التعبير. فلا مجال هنا لشخص مستقر في فندق تيو ينتظر منذ ستة أشهر مضت. فالفندق لم يكن أبداً في الصورة حتى الآن. لم توجد أية فكرة أو اقتراح باستخدام فندق تيو كمكان اللقاء.

نظر إلى ساعته وقال: سأصعد الآن وأرى كروفتن لي.

لم تكن يد داكين المرفوعة بحاجة للطرق على باب السير روبرت، فقد انفتح الباب بهدوء ليدخل. ولم يكن مضاًة في غرفة الرحالة إلا مصباح قراءة صغير، وقد وضع كرسيه بجانبه. وفيما هو يجلس ثانية وضع على مقربة منه على المائدة مسدساً آلياً صغيراً ثم قال: ما الجديد يا داكين؟ أظنه سيأتي؟

- أظنه سيأتي، نعم يا سير روبرت. أنت لم تقابله من قبل، أليس كذلك؟

هو الآخر رأسه بانفي وقال: نعم؛ لم أقابله. إنني أطلع لرويته الليلة. لا بد أن ذلك الشاب يتمتع بشجاعة كبيرة يا داكين.

قال داكين بصوته الرتيب: آه، نعم. لديه جرأة كبيرة.

بدأ أنه مدهوش قليلاً من حاجة هذه الحقيقة للتأكيد. قال السير روبرت: لا أعني الشجاعة وحدها، فالكثير من الشجاعة يوجد في زمن الحرب، وهي مسألة رائعة. ولكنني أعني...

- الخيال؟

- نعم؛ أن تمتلك الشجاعة على تصديق شيء أبعد ما يكون عن الاحتمال... أن تخاطر بحياتك للتحقق من أن إحدى القصص السخيفة ليست سخيفة أبداً. إن هذا يتطلب ميزة لا تتوفر لشباب اليوم. أرجو أن يأتي.

- أظنه سيأتي.

نظر إليه السير روبرت بحدة وقال: هل أعددت لكل شيء

عدته؟

- كروسي على الشرفة، وسأراقب أنا الدرج. وعندما يصلك
كارمايكل انقر على الجدار فأدخل أنا.

أوما كروفنن لي برأسه موافقاً. وخرج داكين من الغرفة بهدوء
وسار إلى اليسار حتى وصل إلى الشرفة وذهب إلى طرفها البعيد.
وهنا أيضاً كان حبل فيه عُقد يتدلى من طرف الشرفة ليصل إلى
الأرض محاذياً لشجرة كاليثوس ولبعض الأغصان الأخرى.

عاد السيد داكين ليعبر غرفة السير روبرت ويذهب إلى غرفته
الخاصة التي تقع بعد غرفة السير روبرت. كان لغرفته بابٌ ثانٍ يفضي
إلى الممر الذي يقع خلف الغرف، ويقع الباب على بعد بضعة أقدام
من رأس الدرج. ترك داكين ذلك الباب نصف مفتوح وجلس ليؤدي
دوره في المراقبة.

بعد نحو أربع ساعات من ذلك نزلت القفّة إلى النهر بهدوء
(ذلك الابتكار البدائي المستخدم لعبور دجلة) واقتربت من الشاطئ
الطيني أسفل فندق تيو. وبعد ذلك بدقائق تسلق جسم نحيل الحبل
المتدلي واختبأ بين أغصان الشجرة.

الفصل الثالث عشر

كانت فتورنيا تنوي الذهاب إلى فراشها والنوم وترك كل
المشكلات حتى الصباح، ولكنها -وقد نامت أصلاً طوال فترة بعد
الظهر- وجدت نفسها أرقّة مفتوحة العينين.

وفي النهاية أشعلت الضوء وأنتهت قصة في إحدى المجلات
كانت قد بدأت قراءتها في الطائرة؛ ثم رقت جوربها، وجربت
جوارب التايلون الجديدة، ثم كتبت العديد من الإعلانات المختلفة
التي تطلب فيها عملاً (ويمكنها عدّاً أن تسأل أين يمكن نشر تلك
الإعلانات). وبعد ذلك كتبت ثلاث رسائل تجريبية أو أربعاً إلى
السيدة كليب وضعت في كل واحدة منها مجموعة مختلفة من
الظروف العبقريّة المبتكرة غير المحسوبة التي أدت إلى «انقطاع
السيّل» بها في بغداد، ووضعت مسودة لبرقية أو اثنتين تستغيث فيهما
طالبية العون من قريبها الوحيد الباقي على قيد الحياة، وهو رجل
مسن جداً وكريه صعب المراس يعيش في شمال إنكلترا ولم يسبق له
أن ساعد أحداً في حياته. بعد ذلك جربت تسريحة جديدة لشعرها،
وأخيراً نثّاءمت فجأة وقررت أنها قد نمت وغدت جاهزة للنوم.

في هذه اللحظة بالذات ودون سابق إنذار فُتح باب غرفتها

بسرعة وانسل رجل إلى الغرفة وأقفل الباب خلفه بالمفتاح وقال لها بالحاح: يا لله عليك خبيثي في مكان ما... بسرعة...

لم تكن فكتوريا في أي وقت مضى بطيئة في ردود أفعالها، وبطرفة عين لاحظت أنفاس الرجل التي يسحبها بصعوبة وصوته المتلاشي، ورأت كيف يمسك بشدة ويبد يائسة وشاحاً قديماً أحمر يستجمعه إلى صدره بقوة. ونهضت بسرعة استجابة لنداء المغامرة.

لم تكن في الغرفة مخائب كثيرة، فبها خزانة الملابس، وصندوق ذو أدراج، وطاولو، وطاولو زينة نوحى بشيء من الأبهة. كان السرير ضخماً... يكاد يكون مزدوجاً، وقد جاءت ذكريات الطفولة عن لعبة الاختفاء والتفتي لتجعل رد فعل فكتوريا سريعاً. قالت: "بسرعة..."، ثم أزعجت الوسائد والغطاء والبطانية ليتمدد الرجل على عرض السرير من الأعلى مكان الوسائد. أعادت فكتوريا الغطاء والبطانية إلى مكانهما فوق الرجل، وحشرت الوسائد فوقه وجلست هي على طرف السرير.

لم تكد تفعل ذلك حتى سمعت طرقاً خفيفاً ملحاً على الباب، فنادت بصوت ضعيف مذعور: من هناك؟

جاءها صوت رجل من الخارج يقول: أرجو أن تفتحي الباب، رجاءً. نحن الشرطة.

عبثت فكتوريا الغرفة باتجاه الباب، وفيما هي كذلك لاحظت وشاح الرجل الأحمر ملقى على الأرض فالتفتته ودمسته في أحد

الأدراج، ثم أدارت المفتاح وفحت باب غرفتها قليلاً وأطلت منه وعلى وجهها علامات الذعر.

كان يقف خارج الباب شاب أسود الشعر ذو بدلة بتفسيجية مخططة، ووراءه رجل يرتدي الزي الرسمي للشرطة. سألت فكتوريا تاركة شيئاً من الرعدة في صوتها: ما الأمر؟

ابتسم الشاب ابتسامة ذكية وتكلم بلغة إنكليزية سليمة تؤدي الغرض: أنا أسف جداً - يا آنستي - على إزعاجك في مثل هذه الساعة، ولكن لدينا مجرماً هارباً، وقد دخل الفندق. ينبغي أن نبحث في كل الغرف... إنه رجل خطير جداً.

قالت فكتوريا: يا إلهي!

ثم تراجعت وهي تفتح الباب واسعاً وقالت: ادخلا وابتحنا. يا له من أمر مخيف! ابتحنا في الحمام رجاءً. أما وخزانة الملابس... وهل لكما أن تنظرا تحت السرير أيضاً؟ ربما كان هناك منذ أول الليل.

كان التفتيش سريعاً، ثم قال: لا، إنه ليس هنا.

- آتسنا متأكدان أنه ليس تحت السرير؟ ولكن كلا، يا لي من سخيفة! لا يمكن أن يكون هنا أبداً؛ فقد أقفلت الغرفة عندما نمت.

- شكراً لك يا آنسة، وطابت ليلتك.

انحنى الشاب ثم انسحب مع معاونيه ذوي البدلة الرسمية. وقالت

فكتوريا وهي ترافقه إلى الباب: من الأفضل أن أقفل الباب مرة أخرى، أليس كذلك؟ حتى أكون في مأمن.

- نعم، سيكون ذلك أفضل شيء بالتأكيد. شكراً لك.

أعادت فكتوريا إقفال الباب ثم وقفت قربه لبعض الوقت. سمعت ضباط الشرطة يقرعون -بنفس الطريقة- الباب المقابل لها في الممر، وسمعت الباب يفتح، وتبادل الحديث، ثم صوت السيدة تريتش الخشن الغاضب، ثم سمعت صوت خطواتهما تتحرك إلى آخر الممر. وقد جاءت الفرقة التالية من مكان أبعد بكثير.

استدارت فكتوريا وعبرت العرفة إلى السريـر، ولقد راودها شعور بأنها ربما تصرفت بمتهمتي المحاكمة؛ فقد انساقت لروحها الرومانسية المغامرة فمدت يد العون فوراً لرجل قد يكون مجرمًا شديد الخطورة. إن الشغف بالوقوف إلى جانب المُطارَد لا إلى جانب المُطارَد قد يجر على المرء عواقب وخيمة في بعض الأحيان، ولكن فكتوريا فكرت بأن ما حصل قد حصل وأصبحت مجبرة على التعامل مع الأمر الآن كائنًا ما كان! وقفت قرب السريـر وقالت باقتضاب: انهض.

لم تكن هناك أية حركة، وقالت فكتوريا بحدة ولكن دون أن ترفع صوتها: لقد ذهبوا! يمكنك القيام الآن.

ولكن رغم ذلك لم تبدر حركة من تحت كومة الوسائد العالية قليلاً، فقامت فكتوريا بإزاحتها جميعاً بتقاد صبر. كان الشاب ممدداً كما تركته تماماً. ولكن وجهه كان الآن ذا لون رمادي غريب، وكانت عيناه مغمضتين.

وعندها لاحظت فكتوريا شيئاً آخر جعلها تشفق بحدة... فقد كانت بقعة حمراء فاتحة اللون تنفذ إلى البطانية. قالت فكتوريا وكأنها تستغيث بأحد: آه، لا... آه، لا... لا!

فتح الرجل عينيه وكأنه يفتحهما استجابة لتلك الاستغاثة. حدق إليها كما يحدق المرء من بعيد إلى شيء لم يكن متأكدًا تمامًا من رؤيته. ثم انفرجت شفاهه... وكان صوته ضعيفاً إلى حدٍّ لم تكن فكتوريا تسمعه. انحنت عليه قائلة: ماذا؟

سمعت هذه المرة، قبضوعة بالغة قال الشاب كلمتين. ولم تعرف فكتوريا إن كانت قد سمعتهما بشكل صحيح أم لا، فقد بدتا لها سيخفتين تماماً لا معنى لهما. كان ما قاله هو: «الشیطان... البصرة!»

سقط الجفتان ورفرفا على العيتين الواسعتين القلقتين، ثم قال كلمة واحدة أخرى... قال اسماً ثم ارتجف رأسه إلى الخلف قليلاً وهذا دون حراك.

وقفت فكتوريا ساكنة وقلبها يخفق بعنف. كانت مقنعة الآن بشاعر كثيفة من الشفقة والغضب، ولم تعرف ما الذي تفعله بعد ذلك. لا بد لها من استدعاء أحد؛ فهي وحيدة هنا مع جثة رجل ميت، وسيطلب الشرطة تفسيراً لتلك عاجلاً أو آجلاً.

وفيما كان عقلها يفكر في الأمر بسرعة سمعت صوتاً بسيطاً جعلها تلثنت. رأت أن المفتاح قد سقط عن باب غرفتها، وفيما هي تنظر إلى الباب سمعت صوت مفتاح يدور في القفل. وانفتح الباب

ودخل السيد داكين الغرفة مغلقاً الباب خلفه بكل حرص، ثم جاء إليها قائلاً بهدوء: لقد أحسنت صنعاً يا عزيزتي. لقد فكرت بسرعة. كيف حاله؟

قالت فكتوريا وفي صوتها غصة: أظنه... أظنه مات.

رأت وجهه يتغير، ولمحت التماعة غضب شديد في عينيه، ثم عاد وجهه كما رآته بالأمن... باستثناء أن التردد والضعف اللذين كانا يبدوان على الرجل بالأمن قد تلاشيا الآن وحل محلها شيء مختلف تماماً. انحنى على الرجل، ثم فلك سترته العسكرية البالية بهدوء، ثم قال وهو يرفع جسده: لقد طُعن بكل دقة وصولاً إلى القلب. لقد كان فني شجاعاً... وذكيّاً أيضاً.

وجدت فكتوريا صوتها أخيراً فقالت: لقد جاء الشرطة وقالوا إنه مجرم. هل كان مجرمًا؟

- لا، لم يكن مجرمًا.

- وهل كانوا... هل كانوا من الشرطة؟

قال: "لا أدري. ربما كانوا من الشرطة، ولكن لا فرق أبداً". ثم سألها: هل قال شيئاً... قبل وفاته؟

- نعم.

- ماذا قال؟

- قال: «الشيطان»... ثم: «البصرة». ثم ذكر اسماً بعد

فترة صمت، وقد بدا اسماً فرنسياً، ولكن ربما لم أفهمه بشكل صحيح.

- ماذا كان الاسم تقريباً؟

- أظنه كان «لوفارج».

قال داكين متأملاً: لوفارج؟

سألت: "ماذا يعني هذا كله؟"، ثم أضافت بشيء من الأسى: وماذا عساي أفعل؟

- ينبغي أن نخرجك من هذا الأمر قدر الإمكان، أما بالنسبة لمعنى هذا الأمر كله فسأعود لاحقاً وأخبرك. أول ما ينبغي أن تفعله هو الوصول إلى ماركوس. فالفندق فندقه، وهو يتمتع بعقل واهج، مع أن المرأة لا يدرك ذلك دائماً عندما يتحدث إليه. سوف أذهب إليه، لا أظنه نام الآن؟ فلم تبلغ الساعة إلا الواحدة والنصف، وهو نادراً ما ينام قبل الثانية. عدلي أنت من مظهرك قبل أن آتي به، فماركوس ضعيف جداً أمام الجمال المنكوب.

غادر الغرفة، ومشت هي - كما لو كانت في حلم - إلى طاولة الزينة فمشطت شعرها وطلت وجهها ليصبح ذا شحوب مناسب وارتمت على كرسي لتسمع صوت الخطوات تقترب. دخل داكين دون قرع الباب ودخل خلفه ماركوس نيو.

كان ماركوس جدياً هذه المرة، ولم تكن تعلو وجهه ابتسامته المعهودة. قال له داكين: «والآن يا ماركوس، ينبغي عليك فعل

فصية لا بأس بها بالنسبة إليك، فقد طعن الرجل في الشارع قبل دخول الفندق.

- أتعني أن زوج אחتي يأخذ الجثة... فيما يغادر الشاب الذي مثل دور القنبل يهدوء عند الصباح؟
- هذه هي الفكرة.

- وبذلك لا تكون في فندقي أية جثة ولا تتعرض الأنسة جونز لأي قلق أو إزعاج؟ أظن يا عزيزي أن هذه فكرة رائعة.

- حسناً إذن. تأكد لنا من خلّو الجو، وسوف أنقل الجثة إلى غرفتي. إن خدمك هؤلاء يتسكعون في الممرات كل الليل. اذهب إلى غرفتك وأعمل مشكلة ما. اجعلهم يهرعون إليك جميعاً وكلفهم بإحضار أشياء لك.

أوماً ماركوس برأسه موافقاً وغادر الغرفة. وقال داكين للفتاة: أنت فتاة قوية. أنتستطيعين مساعدتي في حمله عبر الممر إلى غرفتي؟

أومات فكتوريا موافقةً، ورفع الاثنان بينهما الجسد المترهل وحملاه عبر الممر المهجور وهما يسمعان من بعيد صوت ماركوس يهدير بغضب، ثم وضعها الجثة على سرير داكين الذي قال: أأنتك مقص؟ حسناً، اأفقطعي -إذن- طرف الغطاء الداخلي للسرير حيث بقعة الدم. لا أظن البقعة وصلت إلى الفراش نفسه؛ فقد امتصت سترته العسكرية معظم الدم. سأأتي إليك في غضون ساعة تقريباً.

ما تستطيعه إزاء هذا الأمر. لقد كان ذلك صدمة هائلة للفتاة المسكينة. لقد اقتحم الرجل الغرفة وانهار... وهي ذات قلب رقيق جداً، ولذلك أخفته عن الشرطة. وها هو ميت الآن. ربما ما كان عليها أن تفعل ذلك، ولكن الفتيات رقيات القلب عادة.

قال ماركوس: وماذا الآن؟

- نريد فقط أن ننقل الجثة بعيداً يهدوء.

- هذا رائع جداً يا عزيزي؛ فأنا أيضاً لا أريد جثة في فندقي. ولكن الأمر -كما قلت- ليس بهذه السهولة.

- أظن أن بالإمكان تدبيره. لديك طبيب في أسرتك، أليس كذلك؟

- بلى؛ زوج אחتي طبيب، وهو فنى لطيف جداً. ولكنني لا أريد تعريضه للمتاب.

- لن يتعرض لشيء. اسمع يا ماركوس، سننقل الجثة من غرفة الأنسة جونز إلى غرفتي. وهذا يخرجها من الأمر. ثم أقوم باستخدام هاتفك، وفي غضون عشر دقائق ستجد شاباً يتدفع إلى الفندق من الشارع. سيكون ثملاً جداً، وهو يمسك جانيه بيده بقوة، وسيقوم بطلي أنا بأعلى صوته. يدخل متمايلاً إلى غرفتي وينهار، ثم أخرج أنا وأناذيك وأطلب طبيباً. وهكذا تأتي بزواج أختك الذي يرسل في طلب سبابة إسعاف ويضعده فيها مع صديقي التمل هذا. وقبل أن يصل المستشفى يموت صاحبي، إذ يكون قد طعن. هذه

انتظري لحظة، اشربي قليلاً من عصير الليمون في قارورتني تلك،
وستشعرين بتحسن.

أطاعته فكتوريا، فقال: فتاة شاطرة. والآن عودي إلى غرفتك
وأطفئي النور. سأتيك - كما قلتُ - بعد نحو ساعة.

- وهل ستخبرني عن معنى هذا كله؟

حذق إليها طويلاً وبشكل غريب، ولكنه لم يجب على
سؤالها.

* * *

تمددت فكتوريا في سريرها والضوء مطلقاً، تستمع من خلال
الظلمة. سمعت أصواتاً عالية لشجار مخمور، وسمعت صوتاً يقول:
"كان علي أن أبحث عنك يا صاحبي. لقد تشاجرت مع أحدهم في
الخارج. ثم سمعتُ أجراًساً تُقرع، وأصواتاً أخرى، وكثيراً من
الجلبة. ثم حلت فترة من الصمت النسبي، باستثناء صوت موسيقى
عربية ينطلق من جهاز غراموفون بعيد في إحدى الغرف. وبعد أن
تُخِل إليها أن ساعات عديدة قد مرت، سمعت باب غرفتها يُفتح
بلطف، فجلست في سريرها وأثارت المصباح على الطاولة قريبا.

قال داكين مستحسناً: "هذا مناسب"، ثم أتى بكرسي إلى جانب
سريرها وجلس عليه، وأخذ ينظر إليها كطبيب يريد تشخيص حالة
مريض لديه. قالت: أخبرني كل شيء عن هذا الأمر.

- ماذا لو أخبرتني أنت كل شيء عن نفسك أولاً؟ ماذا تفعلين
هنا؟ لماذا جئت إلى بغداد؟

لسب ما لم تتخرط فكتوريا - كماداتها - في ابتكار كذبة مبدعة
كاملة التفصيلات لتبرير وجودها في بغداد، إما بسبب أحداث تلك

الليلة أو بسبب شيء ما في شخصية داكين (وقد رأت فيما بعد أن ذلك كان لهذا السبب الأخير). أخبرته كل شيء بساطة وبشكل مباشر، أخبرته عن لقاءها بإدوارد وتصميمها على الحضور إلى بغداد، وعن معجزة العنور على السيدة كليب، وعن محتتها المالية. وعندما أكملت قال داكين: فهمت.

ثم سكت قليلاً قبل أن يقول: ربما كنت أرغب بإيقاظك خارج هذا الموضوع، لست واثقاً من ذلك. ولكن القضية هي أنه لا يمكن إيقاظك خارجاً؛ فأنت في صلب القضية سواء أحببت ذلك أم لا! وطالما أنك في صلب الموضوع، فمن الأفضل أن تعمل لي لصالحها.

اعتدلت فكتوريا في سريرها وقد تورّد خداهما بحماسة الترقب وقالت: ألدليك وظيفة لي؟

- ربما، ولكنها ليست من نوع الوظائف التي تفكرين بها. هذه وظيفة جديّة يا فكتوريا، وهي خطيرة أيضاً.

قالت باهتمام: آه، لا بأس بذلك. ثم أضافت بارتياح: ولكنها لا تنطوي على غش واحتيال، أليس كذلك؟ لأنني -رغم معرفتي بأنني أكذب بشكل فظيع- إلا أنني لا أحب حقاً القيام بأي شيء ينطوي على الغش وعدم الأمانة.

ابتسم داكين قليلاً وقال: من الغريب أن مقدرك على اختراع كذبة مقنعة بسرعة هي إحدى موهباتك لهذه الوظيفة. ولكن كلا، لا ينطوي هذا العمل على غش. على العكس، فسيتكوبن في صف الدفاع عن القانون والنظام. سوف أضعك في صورة الموضوع...

ولكن بطريقة عامة فقط، وبحيث يمكنك أن تفهمي بشكل كامل ما الذي تفعلينه وما هي المخاطر بالضبط. إنك تبدين شابة عاقلة ولا أطنك فكرت كثيراً بالسياسة العالمية... وهذا أفضل؛ فكما يقول هاملت في كلماته الحكيمّة: "ليس من شيء جيد أو سيء، ولكن التفكير يجعله كذلك".

قالت فكتوريا: أعرف أن الجميع يقولون إن حرباً أخرى ستقع عاجلاً أو آجلاً.

- بالضبط. ولماذا يقول الجميع ذلك يا فكتوريا؟

قطبت حاجبها وقالت: "لأن روسيا.. الشيوعيين.. وأمريكا...". ثم توقفت.

- أرايت؟ هذه ليست كلماتك، بل أنت التقطعتها من الصحف والأحاديث العابرة والراديو. توجد قوتان تتحكمان بأجزاء مختلفة من العالم، هذا صحيح تماماً. وهما تتمثلان -بشكل عام- في أذهان الناس باعتبارهما "روسيا والشيوعيين" من جهة و "أمريكا" من جهة أخرى، وإن الأمل الوحيد للمستقبل -يا فكتوريا- يكمن في السلام وفي الأنشطة البناءة لا في الأنشطة المدمرة، ولذلك فإن كل شيء يعتمد على أولئك الذين يسيطرون على هذين المعسكرين المختلفين، إما بالاتفاق على الاختلاف وإقناع كل منهما نفسه بالمجال الحيوي لأنشطته، أو بإيجاد أسس مشتركة للاتفاق، أو التسامح والتعايش على الأقل. ولكن -بدلاً من ذلك- فإن العكس هو الذي يحدث؛ حيث يُدق إسفين طووال الوقت لإجبار المجموعتين اللتين تشك كل واحدة منهما بالأخرى على التباعد أكثر فأكثر، وثمة أمور معينة قادت

شخصاً أو شخصين إلى الاعتقاد بأن مثل هذا النشاط التخريبي يأتي من طرف أو مجموعة ثالثة تعمل بالسر ولا يشك بها أحد في العالم حتى الآن. فكلما سنحت فرصة للتوصل إلى اتفاق أو إلى مؤشر لتبديد الشكوك وقع حادث ما ليجعل هذا الطرف ينكفي إلى شكوكه من جديد، أو يدفع ذاك الطرف إلى خوف هستيري شديد. وهذه الأمور ليست مجرد حوادث عرضية يا فكتوريا، بل هي مضمّنة عمداً للوصول إلى نتيجة محسوبة.

- ولكن لماذا تظن ذلك، ومن الذي يقوم بذلك الأعمال؟

- أحد الأسباب التي تدفعنا لهذا الاعتقاد هو المال؛ فالمال يأتي من مصادر غير طبيعية. إن المال -يا فكتوريا- هو دوماً المؤشر الأعظم الذي يدلّك على ما يحدث في العالم. وكما يقيس الطبيب نبضك ليأخذ فكرة عن حالتك الصحية، كذلك المال الذي يشكل دم الحياة الذي يغذي أية حركة أو قضية، ومن غيره لا تستطيع أية حركة أن تتقدم. والآن فإن أموالاً هائلة يتم تداولها، ورغم أن تلك الأموال يتم تمويلها بشكل شديد الذكاء والبراعة، إلا أنه يوجد -بالتأكيد- أمرٌ غير طبيعي في مصدر تلك الأموال وفي مآلها الذي تنتهي إليه. إضرابات كثيرة جداً تقوم بشكل غير رسمي... وتتلقى الحكومات الأوروبية التي تُبدي مؤشرات على تصحيح اقتصادها تهديدات عديدة على يد الشيوعيين، وهم عاملون جديون من أجل قضيتهم... ولكن الأموال التي تدفع للقيام بمثل هذه الأعمال لا تأتي من مصادر شيوعية، وعندما يتبعها المرء بعدها قد جاءت من مصادر غربية جداً وغير متوقعة. وبغض النظر، تتصاعد موجة خوف هستيري من الشيوعية في أمريكا وفي غيرها من البلدان، وهنا أيضاً لا تأتي

الأموال من المصادر المتوقعة... فهي ليست أموال الرأسماليين، رغم أنها تمر في أيدي رأسمالية طبعاً. وثمة نقطة ثالثة، وهي أن أموالاً طائلة هائلة يبدو أنها تخرج تماماً من التداول، والأمر أشبه ما يكون بحالة تصرفين فيها راتبك كل أسبوع على شراء أغراض ثم تختفي تلك المشتريات بعد ذلك أو تخرج من دائرة التداول العادي أو حتى من دائرة الرؤية. لقد استشرى في كل أنحاء العالم طلب عظيم على الألماس والأحجار الكريمة الأخرى، وهذه الحلي تنتقل بين عشرات الأيدي حتى تختفي أخيراً ويستحيل تتبع مصيرها.

هذه مجرد صورة عامة مبهمة بالطبع. قصارى القول هو أنها توجد في مكان ما مجموعة ثالثة من الناس هدفها غامض حتى الآن ولكنها تثير الاضطرابات وسوء الفهم، وتتعامل بصفقات مالية وصفقات جواهر مموهة بشكل ذكي وصولاً إلى أغراضها الخاصة. ولدنيا من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن لهذه المجموعة عملاء في كل بلد، وبعضهم مستقر في تلك البلدان منذ سنوات طويلة. بعض هؤلاء العملاء يحتلون مناصب رفيعة محترمة، وآخرون يؤدون أدواراً متواضعة، ولكنهم يعملون جميعاً للوصول إلى هدف يضعونه نصب أعينهم ولا نعرفه نحن. وهذه المجموعة -في جوهرها- أشبه ما تكون بأنشطة الطائور الخامس في بداية الحرب الأخيرة، إلا أنها تأخذ بعداً عالمياً واسعاً هذه المرة.

سألت فكتوريا: ولكن من هم هؤلاء الناس؟

- إنهم لا يتشبهون -فيما نرى- إلى أية جنسية بعينها، وأخشى أن يكون ما يدعون إليه هو تحسين العالم! إن الوهم القاتل إن بإمكان

أناس أن يفرضوا بالقوة عصراً ذهبياً سعيداً على الجنس البشري إنما هو من أخطر الأوهام.

سعل قليلاً ثم أكمل يقول: حسناً، لا ينبغي لي أن ألقي عليك موعظة. دعني أشرح لك فقط ما نعرفه بالفعل. توجد عدة مراكز للنشاط؛ في الأرجنتين، وفي كندا، ومركز أو أكثر في الولايات المتحدة، وأظن (وإن لم أكن متأكدًا تمامًا) أنه يوجد مركز في روسيا. والآن نأتي إلى ظاهرة مثيرة جداً.

في الستين الأخيرتين اختفى ثمانية وعشرون عالماً شاباً لامعاً من جنسيات مختلفة... اختفوا بهدوء من يثاثيرهم. وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لمهندسين معماريين، وملاحين، وكهربائيين، والعديد غيرهم من أنواع الفقيين. حوادث الاختفاء هذه كان يجمعها قاسم مشترك واحد: كل الذين اختفوا كانوا شباناً وطموحين، وكلهم ليست لهم روابط قوية تشدهم إلى شيء. وبالإضافة إلى أولئك الذين نعرف عنهم، لا بد أن يوجد الكثيرون غيرهم، وقد بدأنا نحزر شيئاً مما هم بصدد تحقيقه.

أصغت فكتوريا وقد قطبت حاجبيها، فيما مضى داكين يقول: ربما قلت إن من المستحيل في هذه الأيام أن تستمر أية عملية في أي بلد دون أن يدري بها العالم. وأنا لا أعني هنا -بالطبع- الأنشطة السرية، فتلك أنشطة يمكن أن تستمر في أي مكان. إن ما أعنيه هو الإنتاج الواسع الحديث. ورغم ذلك فما تزال في هذا العالم مناطق غامضة، بعيدة عن خطوط التجارة، معزولة بالجبال والصحاري، وسط أناس ما زالت لديهم القوة لمنع الغرباء من دخول مناطقهم،

تلك المناطق التي لا يعرفها ولم يرها إلا رحالة معزول هنا أو مسافر وحيد هناك. هناك يمكن أن تستمر أمور لا يمكن لأسرارها أن تنفذ للعالم الخارجي، وإن نفذت فإنما تنفذ كشائعة غامضة سخيفة.

لن أحدد هذه المنطقة، ولكن يمكن الوصول إليها من الصين، ولا أحد يعرف ما الذي يجري في مناطق الصين الداخلية. كما يمكن الوصول إليها من جبال الهيمالايا، ولكن الرحلة من هناك صعبة وطويلة إلا على من سبق له قطعها. تصل إلى هناك الآلات والعاملون من مختلف بلاد المعمورة بعد أن تجدد عن وجهتها الظاهرية، ولا حاجة للخوض في تفصيلات هذه العملية المعقدة.

ولكن رجلاً واحداً اهتم بمتابعة أثر معين. كان رجلاً غير اعتيادي، رجلاً له أصدقاء وصلات في كل منطقة الشرق؛ فقد وُلد في كاشغار، وهو يتقن مجموعة من اللهجات واللغات. وقد شك، وتابع الأثر الذي قادته إليه شوكه. وكان ما سمعه غريباً لا يُصدق بحيث أن أحداً لم يصدقه عندما عاد وأفضى بما لديه.

اثنان فقط صدَّقا قصته، أحدهما أنا؛ فأنا لا أحجم عن تصديق الأمور المستحيلة، إذ غالباً ما تكون صحيحة. أما الرجل الآخر...

تردد قليلاً فقالت فكتوريا: من هو؟

- كان الآخر هو السير روبرت كروفتن لي، وهو الرحالة العظيم الذي سافر بنفسه في تلك المناطق النائية ويعرف شيئاً عن إمكاناتها. قصارى القول أن كارمايكل (وهو رجلي الذي أنكلم عنه) قرر الذهاب ليكتشف الحقيقة بنفسه. كانت رحلة خطيرة يائسة،

البصرة وحاول أن يبلغ القنصلية، ونجا بأعجوبة من إطلاق النار عليه. من الممكن أن يكون قد ترك الأدلة في مكان ما في البصرة. ما أريد منك فعله -يا فكتوريا- هو أن تذهبي إلى هناك وتحاولي العثور على شيء.

- أنا؟!

- نعم. صحيح أنك لا تملكين الخبرة ولا تعرفين ما الذي تبحثين عنه، ولكنك سمعت كلمات كارمايكل الأخيرة، ويمكن لتلك الكلمات أن تفيدك بشيء عندما تصلين هناك. من يدري، ربما صادفك الحظ الذي يحالف المبتدئين؟

قالت فكتوريا بلهفة: بوذي الذهاب إلى البصرة.

ابسم داكين وقال: هذا يناسبك لأن فتاك هناك، أليس كذلك؟ لا بأس بهذا، وهو تمويه ممتاز أيضاً. لا شيء أفضل للتمويه من قصة حب حقيقية. اذهبي إلى البصرة، واقتحي عينيك وأذنك وانظري حولك. لا أستطيع إعطائك أي تعليمات حول كيفية التصرف، والحقيقة أنني أفضل أن لا أعطيك تعليمات. إنك تدين شابة في منتهى التباهة والذكاء، وإذا افترضنا أنك سمعت الكلمات بشكل صحيح فإني لا أعرف ما الذي تعنيه كلمات الشيطان ولوفارج. إنني أميل للاتفاق معك على أن لوفارج لا بد أن يكون اسماً. ابحتي عن ذلك الاسم.

قالت فكتوريا بطريقة عملية: كيف أسافر إلى البصرة؟ وكيف أتصرف دون مال؟

ولكنه كان يصلح لتفنيدها أكثر من أي شخص آخر. كان ذلك قبل تسعة أشهر، ولم نسمع عنه شيئاً إلا قبل بضعة أسابيع، حيث علمنا أنه على قيد الحياة وأنه حصل على ما ذهب من أجله... حصل على الدليل القاطع.

ولكن الطرف الآخر كان يلاحقه، وكان أمر حياة أو موت بالنسبة لهم أن لا يعود بأدلتهم. وقد توفرت لنا أدلة كثيرة عن اختراقهم لجهازنا كله بعملاتهم، وحتى في دائرتي الخاصة يوجد من يسرب المعلومات، وبعض هؤلاء -أعانتنا الله عليهم- يحتلون مناصب عليا تماماً. وقد نفتت مراقبة كل الجهات بحثاً عنه، وتمت التضحية بأنفس بريئة قتلت بالخطأ لاعتقادهم أنها هو... فهم لا يحفلون كثيراً بالحياة الإنسانية، ولكنه استطاع -بطريقة أو بأخرى- أن ينجو دون أدنى... حتى هذه الليلة.

- أكان ذلك هو إذن؟

- نعم يا عزيزتي. شاب شجاع جداً لا تلتين له فتاة.

- ولكن ماذا عن الأدلة؟ هل انتزعوا منه تلك الأدلة؟

ارتسمت ابتسامة بغيطة على وجه داكين المتعب وقال: لا أظنهم انتزعوها منه. لا، أنا متأكد تماماً -من معرفتي بكارمايكل- بأنهم لم يحصلوا عليها. ولكنه مات دون أن يتمكن من إبلانها بمكان تلك الأدلة وكيف نحصل عليها. أظن أنه ربما حاول قول شيء عند وفاته يعطينا مؤشراً على ذلك.

كرر داكين ببطء: الشيطان... البصرة... لوفارج... لقد كان في

أخرج داكين محفظته وأعطاهما رزمة من الأوراق النقدية وقال:
هذا مال تنصرفين به. أما كيف تسافرين إلى البصرة فأوصيك بإجراء
حديث مع تلك العجوز السيدة كارديو تريتش صباح غد. قولي إنك
متلهفة على زيارة البصرة قبل التحاقك بتلك الحفريات التي تنظاريين
بالعمل فيها. اسأليها عن فندق هناك، وستخبرك فوراً أن عليك أن
تقيم في القصيلة، وسوف ترسل برقية إلى السيدة كلايتون. وربما
وجدت فتاك إدوارد هناك. لقد تحدثت عائلة القنصل كلايتون بينها
للزوار، وكل من يمر هناك يقيم عندهم. وفيما عدا ذلك لا أستطيع
إعطائك أية نصيحة باستثناء نصيحة واحدة: "إذا ما حدث أي مكروه،
وإذا ما شئت عثا تعرفينه ومن الذي كلّفك بما تقومين به فلا تحاولي
إبراز بطولتك؛ قولي كل ما عندك فوراً".

قالت فكتوريا بامتان: شكراً جزيلاً لك. إنني جبانة جداً أمام
الآلم، وإذا ما قُدر لأحد أن يعذبني فأخشى أن لا أصمد.

- لن يُحملوا أنفسهم عناء تعذيبك، إلا إذا دخل عنصر سادي
في الموضوع. إن التعذيب وسيلة عفى عليها الزمن. وخزة إبرة صغيرة
تجيبين بعدها على كل شيء بصدق ودون أن تدركي ذلك. إننا نعيش
في عصر العلم، ولذلك لم أرْ منك تبتّي أفكار مثالية حول مسألة
السرية؛ إذ أنك لن تخبريهم بشيء لا يعرفونه أصلاً، لا بد أن تفتح
أعينهم عليّ بعد هذه الليلة، وعلى السير روبرت كروفن لي.

- وماذا عن إدوارد؟ هل أخبره؟

- هذا ما ينبغي أن أتذكره لك. يُفترض بك -نظرياً- أن تكتمني
ما فعلينه عن الجميع. أما عملياً!

رفع حاجبيه حيرة وأكمل قائلاً: إن من شأن ذلك أن يجعله
في خطر، ولكنني فهِمْتُ أنه كان ذا سجل جيد في القوة الجوية.
لا أظن الخطر سيقلقه. غالباً ما يكون الرأبان أفضل من رأي واحد.
إنه يظن -إذن- أن في «عصن الزيتون» ذلك حيث يعمل شيئاً مريباً؟
هذه نقطة مثيرة... مثيرة جداً.

- لماذا؟

قال: "لأننا نرى ذلك أيضاً"، ثم أضاف قائلاً: مجرد نصيحتين
وداعيتين. الأولى (إن سمحت لي بقولها) هي أن لا تختري كذبات
كثيرة مختلفة؛ إذ سيصعب تذكرها والإبقاء بمتطلباتها. أعرف أنك
موهوبة في هذا الجانب، ولكن دعني الأمور بسيطة، هذه هي
نصيحتي.

قالت فكتوريا بتواضع يقتضيه الحال: سأذكر ذلك. وما هي
النصيحة الأخرى؟

- دعني أذكرك مصغيتين دوماً لأي ذكر لشابة تُدعى آنا شيل.

- ومن هي؟

- لا تعرف الكثير عنها، وسيفيدنا أن نعرف عنها المزيد.



الفصل الخامس عشر

قالت السيدة كارديو تريتش: طبعاً ينبغي أن تقيمي في القصصية. هراء ما تقولينه يا عزيزتي... لا يمكنك الإقامة في فندق المطار. سيسعد أسرة كلايتون بك. لقد عرفتهم لسنوات طويلة. سنرسل برقية ويمكنكك بعدها السفر بقطار الليلة، وهم يعرفون الدكتور باونسفوت حق المعرفة.

احمرّ وجه فكتوريا؛ إذ أن أسقف لانغو (الذي أصبح لاحقاً أسقف لانغاو) يختلف تماماً عن الدكتور باونسفوت الحقيقي بشحمه ولحمه!

كان لرحلة القطار كل سحر التجربة الجديدة، وفي محطة الوصول استقبلتها سيارة القصصية وقادتها إليها. دخلت السيارة عبر بوابات ضخمة إلى حديقة جميلة حتى انتهت إلى أسفل درج يقضي إلى الشرفة التي تحيط بالمنزّل. وخرجت السيدة كلايتون من الباب لتستقبلها باتسامة ونشاط قائلة: إننا مسرورون لرؤيتك. إن البصرة جميلة حقاً في مثل هذا الوقت من السنة، ولا ينبغي لك أن تتركي العراق دون رؤيتها، ومن حسن الحظ أنه لا يوجد الكثيرون هنا في هذه الأيام بالذات. أحياناً لا تعرف كيف تفعل لتستطيع تأمين إقامة

الناس هنا، ولكن لا يوجد أحد الآن باستثناء موظف السيد رايتون، وهو شاب رائع تماماً. لقد فاتتك -بالمناسبة- رؤية ريتشارد بيكر؟ فقد غادر قبل أن أنلقى برقية السيدة كارديو تريتش بقليل.

لم تعرف فكتوريا من هو ريتشارد بيكر، ولكن بدا من حسن الحظ أن يغادر في هذا الوقت بالذات.

- لقد ذهب إلى الكويت لمدة يومين، والكويت مكان ينبغي أن تشاهده. حسناً، ما الذي تفضليه في البداية... حقاً أم كوب قهوة؟

قالت فكتوريا بامتنان: بل الحماق من فضلك.

- وكيف حال السيدة كارديو تريتش؟ هذه غرفتك، والحمام هناك. هل هي صديقة قديمة لك؟

- آه، لا. لقد قابلتها قبل فترة فقط.

- وأظنها نبشت تاريخك منذ أول ربع ساعة، أليس كذلك؟ إنها ثرثرة فظيعة كما أظنك عرفت. لديها ما يشبه الجنون لمعرفة كل شيء عن كل شخص، ولكن رفقتها ممتعة، وهي لاعبة ورق من الطراز الأول. ألنّيت متأكدة أنك لا ترغبين بشيء من القهوة أو غيرها أولاً؟

- نعم، شكرًا لك.

- حسناً، سأراك لاحقاً إذن. هل لديك كل ما تحتاجينه؟

ابتعدت السيدة كلايتون كتحلة سعيدة، وغسلت فكتوريا

وجيها ومشطت شعرها بكل عناية. من حسن الحظ أن إدوارد يعرفها باسمها الثاني جونز، وربما لا يدعشه إضافة اسم باونسفوت. ستأتي الدهشة من وجودها في العراق، وبالنسبة لهذا الأمر كانت فكتوريا تأمل أن تتمكن من الافراد به حتى ولو للحظة واحدة.

وضعت هذه الفكرة نصب عينها، فانسَلت يهدوء خارجة لتأخذ مكانها على الشرفة بحيث تستطيع رؤية إدوارد بمجرد عودته من أي عمل هو منشغل فيه... وهو على الأغلب مضاعرة رجال الجمارك للتخليص على صناديق الكتب.

كان أول الواصلين رجلاً طويلاً نحيلاً ذا وجه يبدو عليه طول التفكير، وفيما هو يصعد الدرج ذهبت فكتوريا إلى زاوية الشرفة. وهناك رأت إدوارد بالفعل يدخل من خلال باب الحديقة الذي يفضي إلى منحني النهر. وعلى طريقة جوليت، انكأت فكتوريا على سياج الشرفة وأطلقت هسيماً مطولاً تسترعي به انتباه إدوارد. أما إدوارد فقد أدار رأسه بحدة ونظر حوله. نادته فكتوريا بصوت منخفض: هت! هنا...

رفع إدوارد رأسه وبدأ على وجهه تعبير دهشة مطلقة، فهتف قائلاً: يا إلهي! فتاة منطقة تشيرنغ كروس!

- هت. انتظري؛ أنا نازلة.

أسرعت فكتوريا على الشرفة ونزلت الدرج واستدارت إلى زاوية المنزل حيث بقي إدوارد واقفاً طائلاً وعلى وجهه أمارات الدهشة. بادرها قائلاً: لا يمكن أن أكون ثملاً، هذا أنت حقاً؟

أجابته بسعادة: نعم، هذه أنا.

- ولكن ماذا تفعلين هنا؟ وكيف جئت؟ لقد ظننت أنني لن أراك ثانية أبداً.

- وأنا ظننت ذلك أيضاً.

- إنها حقاً أشبه بمعجزة. كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

- بالطائرة.

- طبعاً بالطائرة، وإلا لما وصلت إلى هنا بهذه السرعة. ولكن أعني أية فرصة رائعة أنت بك إلى البصرة؟
- القطار.

- إنك تتعمدين إغاضتي أيتها الشقية. يا إلهي! إنتي سعيد لرؤيتك. ولكن كيف وصلت إلى هنا حقاً؟

- لقد خرجت من إنكلترا مع امرأة كسرت ذراعها... أمريكية تدعى السيدة كليب. وقد عُرضت عليّ هذه الوظيفة في اليوم التالي للقاء بك، وكنت قد تحدثت عن بغداد، وأنا كنت قد سمعت لندن بعض الشيء، ولذلك قلت لنفسي: لماذا لا أخرج لرؤية العالم؟

- أنت حقاً شديدة الأريحية يا فكتوريا. أين هذه المرأة كليب، هنا؟

- لا! لقد ذهبت إلى ابنة لها قرب كركوك. كانت وظيفتي مراقبتها في سفرها فقط.

- ما الذي تفعلينه الآن إذن؟

- ما زلت أرى العالم. ولكن الأمر تطلب بعض الحيل واللف والدوران، لذلك أردت رؤيتك قبل أن نلتقي بحضور الآخرين، أعني أنني لا أريد أي إشارة متوهجة إلى كوني طابعة اختزال فقدت عملها، كما كنت حين رأيته آخر مرة.

- بالنسبة لي أنا فسأعتمد ما تقولينه عن نفسك كائناً ما كان. أنا جاهز لسماع التعليمات.

- الفكرة هي أنني الأنسة باونسفوت جونز. وعمي عالم آثار بارز ينقب عنها في مكان قصي هنا، وسأنضم إليه قريباً.

- وهذا كله غير صحيح، أليس كذلك؟

- بالطبع. ولكنها قصة جيدة الحبك.

- آه، نعم... قصة ممتازة. ولكن ماذا لو التقيت مع العجوز باونسفوت وجهاً لوجه؟

- لا أظن ذلك محتملاً. إن علماء الآثار - حسب معلوماتي - إذا بدؤوا بالحفر يستمرون فيه كالمجنانيين دون توقف.

- نعم، أشبه بكتلاب الأثر. أظن أن في ذلك الكثير من الصدق. وهل للسيد باونسفوت ابنة أخ حقيقية؟

- وما أدراني بذلك؟

- آه، أنت لا تتقنصين دور أحد بحد ذاته إذن، وهذا يجعل الأمر أسهل.

- نعم، فمن شأن الرجل أن يكون له الكثير من بنات الإخوة

والأخوات في نهاية الأمر. أو أنني قد أقول - عند الطوارئ - إنني مجرد ابنة عم له ولكنني اعتدت أن أتأديه بعتي.

قال إدوارد بإعجاب: إنك تفكرين بكل شيء! أنت - حقاً - فتاة مدهشة يا فكتوريا. لم أقابل قط فتاة مثلك. لقد ظننت أنني لن أراك لسنوات طويلة، وعندما أراك ستكونين قد نسيت كل شيء عني، وها أنت الآن هنا.

سببت لها النظرة المعجبة المتواضعة التي نظر بها إدوارد إليها رضا شديداً. قال لها: ولكنك ستحتاجين عملاً، أليس كذلك؟ أعني أنك لم تأتي لتحصلي على إرث أو ثروة أو ما شابه ذلك؟

قالت فكتوريا ببطء: أنا أبعد ما أكون عن الموارث والثروات! نعم، سأكون بحاجة إلى عمل، وقد ذهبت - في الحقيقة - إلى مقر عملك المسمى «غصن الزيتون» ورأيت الدكتور رايتون وطلبت منه عملاً، ولكنه لم يبدِ استجابة كبيرة... أعني لتأمين عمل براتب.

- ذلك الشحاذ العجوز بخيل جداً بماله. فكرته هي أن يأتي الجميع ويعملوا حياً في العمل.

- أنظنه دعياً يا إدوارد؟

- لا، لا أدري ماذا أظن. لا أرى كيف يمكن أن يكون غير نزيه... فهو لا يربح مالاً من نشاطه، وحسبما أرى فإن كل تلك الحماسة الرهيبة لا بد أن تكون حقيقية.

- من الأفضل أن تدخل. يمكننا أن نتحدث لاحقاً.

* * *

فكتوريا بالنهر المسمى شط العرب، بما يحده من سكك النخيل، وأجبت أيضا حب الشكل الجميل للفوارب العربية بمقدماتها العالية الشبيهة بقوارب البندقية وقد رُبطت في النهر. ثم ذهب الاثنان إلى السوق وشاهدنا صناديق العروس التي تصنع في الكويت والمرصعة بأشكال فنية من النحاس، وغير ذلك من البضائع.

وعندما قفل الاثنان عائدين إلى الفصيلة، وكان إدوارد يحضر نفسه لهجوم جديد على دائرة الجمارك، عندها فقط سألته فكتوريا فجأة: إدوارد، ما هو اسمك؟

حذق إليها وقال: ماذا تعنين بالله عليك يا فكتوريا؟

- أعني اسمك الأخير. ألا تذكر أنني لا أعرفه؟

- حقاً؟ آه، نعم، أفنك لا تعرفينه. إنه غورينغ.

- إدوارد غورينغ، إنك لا تعرف كيف شعرت بأنتي مغلقة حين ذهبت إلى «غصن الزيتون» أريد السؤال عنك وأنا لا أعرف شيئاً باستثناء إدوارد.

- هل كانت هناك فتاة سمراء؟ ذات شعر طويل ملفوف؟

- نعم

- تلك هي كاثرين، إنها لطيفة جداً. لو أنك قلت إدوارد لعرفتني على الفور.

قالت فكتوريا بشيء من ضبط النفس: نعم، أحسبها كانت متعرف.

هفت السيدة كلايتون: لم أكن أعلم أنك إدوارد متعارفان.

ضحكت فكتوريا وقالت: آه، إننا صديقان قديمان، إلا أننا فقدنا الاتصال بعضنا ببعض في الواقع. لم أكن أعرف أن إدوارد موجود في هذا البلد.

سأل السيد كلايتون (وهو الرجل نفسه الذي رآته فكتوريا يصعد الدرج): كيف كان تقدم العمل هذا الصباح يا إدوارد؟ هل حققت أي تقدم؟

- إنها تبدو مهمة صعبة جداً يا سيدي. إن صناديق الكتب موجودة هناك، وهي كلها حاضرة وصحيحة، ولكن الإجراءات الشكلية للتخلص عليها تبدو بلا نهاية.

اتسم كلايتون وقال: أنت جديد على أساليب التأخير الشرقية.

قال إدوارد موضعاً: إن الموظف المعني يبدو دائماً غائباً في يوم الحاجة إليه. ورغم أن الجميع لطفاء ومتعاونون، إلا أن شيئاً لا يحدث كما يبدو.

ضحك الجميع، وقالت السيدة كلايتون على سبيل المواساة: استخراجها في نهاية الأمر. كان قرار الدكتور رايتون بإرسال شخص لمتابعة الموضوع شخصياً قرأراً حكيماً، ولأأ لبيت الكتب هنا لأشهر.

وبما أن المعاملات تتوقف في ساعات الظهيرة، فقد خرج إدوارد وفكتوريا بعد الغداء للتجول ورؤية المدينة. وقد أعجبت

- إنها فتاة في غاية اللطف. ألا تظنين ذلك؟

- آه، تماماً...

- لست جميلة عملياً، ولكنها في غاية التعاطف.

- حقاً؟

كان صوت فكتوريا قد غدا الآن جليدياً تماماً، ولكن الظاهر أن إدوارد لم يلاحظ شيئاً.

- لا أعرف -حقاً- ماذا كنت سأفعل دونها؟ فقد وضعتني في صورة العمل، وأخرجتني من مأزق كنت سأبدو مغفلاً فيها. أنا واثق أنكما ستصبحان صديقتين حميمتين.

- لا أحب أننا سنجد فرصة لذلك.

- آه، بلى؟ سوف أحصل لك على عمل في مشروعنا.

- وكيف ستتمكن من ذلك؟

- لا أدري، ولكني سأتمكن من ذلك بشكل ما. سأقول لرابون العجوز أية طابعة رائعة أنت... إلى آخر تلك المعزوفة.

- ولكنه سرعان ما سيكتشف أنني لست كذلك.

- ومع ذلك فسادخلك إلى «غصن الزيتون» بشكل أو بآخر. لن أسمح لك بأن تبقى جوالاً على هواك. وإلا لكان الخبر التالي الذي سأسمعه هو أنك اتجهت إلى بورما أو مجاهل أفريقيا. لا يا عزيزتي

فكتوريا، سأضعك أمام ناظري تماماً. إنني لا أثق بك مقدار حبة خردل، فأنت مغرمة جداً بروية الدنيا.

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة: "أيها الأحمق! ألا تدري أن الخيول الجامحة ليس من شأنها أن تزحزحي من بغداد". أما بصوت عال فقالت له: حسناً، سيكون من الممتع تماماً الحصول على عمل في «غصن الزيتون».

- ما كنت لأصف ذلك بالممتع. فالأمر كله في غاية الجدية، بالإضافة إلى كونه عملاً سخيفاً جداً.

- أما زلت ترى أن فيه شيئاً غير طبيعي؟

- آه، كانت تلك مجرد فكرة طائشة خطرت لي.

- كلا، لا أظنها كانت مجرد فكرة طائشة. أظنها فكرة صحيحة.

التفت إليها بحدة وقال: ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

- شيء سمعته... من صديق لي.

- من هو؟

- مجرد صديق.

قال إدوارد متذمراً: يبدو أن للفتيات من أمثالك الكثير من الصداقات.

أخفت رضاها السعيد وسألت: إدوارد، هل يوجد من يُدعى

بوضوح وطوراً بإبهام. ولسب غامض لم تكن فكتوريا قادرة على أن تروي أحداثاً حقيقية بشكل درامي مؤثر. كان سردها متعشراً ناقصاً وكأنها تروي قصة متحلة مُختزعة. وعندما انتهت من سردها نظرت إليها إدوارد بارتياق وقال: آئت على ما برام يا فكتوريا؟ أعني هل أصابك ضربة شمس أو... حلم أو شيء آخر؟

- كلا بالطبع.

- لأن هذا يبدو أمراً يستحيل حدوثه تماماً.

قالت فكتوريا وقد تحسست: ولكنه حدث.

- وهذه القصة الميلودرامية عن القوى العالمية والمنشآت السرية الغامضة في قلب التبت أو بلوشستان. أعني أن هذا كله لا يمكن أن يكون صحيحاً. إن أموراً كهذه لا تحدث.

- هذا ما يقوله الناس دوماً قبل أن تحدث.

- بالله عليك أيها الشقية... ألست تخترعين ذلك كله؟

صاحت فكتوريا متزعجة: كلا!

- وقد جئت إلى هنا للبحث عن شخص يدعى لوفارج وامرأة تدعى آنا شيل...

قاطعت قائلة: وهي امرأة سمعت بها أنت شخصياً. لقد سمعت بها، أليس كذلك؟

- لقد سمعت الاسم... نعم.

- كيف؟ وأين؟ في «غصن الزيتون»؟

سكت إدوارد لبضع دقائق ثم قال: لا أدري إن كان ذلك يعني شيئاً. كان مجرد أمر... غريب...

- هيا، أخبرني.

- اسمعي يا فكتوريا، إنني أختلف عنك. أنا لست على درجة ذكائك. إنني أشعر فقط، أشعر بطريقة غريبة بأن الأمور غير طبيعية على نحو ما... ولا أدري لماذا أحس بذلك. أنت تحددين الأمور وتستنتجين منها حقائق، أما أنا فليس لي من الذكاء ما يجعلني أقوم بذلك. إنني أشعر بطريقة مبهمة فقط بأن الأمور غير طبيعية، ولكنني لا أدري لماذا.

- أنا أيضاً أشعر بذلك أحياناً، كحالة السير روبرت على الشرفة.

- من هو السير روبرت؟

- السير روبرت كروفتن لي. كان مسافراً على متن الطائرة معنا. وهو متيجج جداً ومغرور، ولكنه شخصية بارزة كما تعلم. وعندما رأيته جالساً على الشرفة في فندق تيو تحت أشعة الشمس انتابني شعور غريب - كالذي ذكرته - بأن في الأمر خطأ ما، دون أن أعرف ماهيته.

- لقد طلب منه راثبون اللقاء محاصرة في «غصن الزيتون» كما

أظن، ولكنه لم يستطع. أظنه عاد بالطائرة صباح أمس إلى القاهرة
أو دمشق أو مكان آخر.

- حسناً، أكمل حديثك عن أنا شيل.

- آه، أنا شيل... لم يكن في الأمر شيء في الواقع؛ مجرد
ملاحظة من إحدى الفتيات.

قالت فكتوريا على الفور: كاثرين؟

- أظنها كانت كاثرين بالفعل، تذكرت الآن.

- لقد كانت كاثرين بالطبع؛ ولهذا لم نشأ أن نخبرني بالأمر.

- هراء، هذا زعم سخيف تماماً.

- حسناً، ماذا كانت تلك الملاحظة؟

- قالت كاثرين لإحدى الفتيات: "عندما تأتي أنا شيل يمكننا
التقدم. عندها سنتلقى أوامرها منها... ومنها فقط".

- هذا في غاية الأهمية يا إدوارد.

حدّرها إدوارد قائلاً: تذكرني أنني لست واثقاً حتى من أنه هو
الاسم الذي ذكر.

- ألم تر الأمر غريباً في ذلك الوقت؟

- نعم، لم أره غريباً بالطبع. ظننت أنها مجرد امرأة قادمة

لترأس العمل؛ مجرد واحدة من تلك النساء القديرات. أنت واثقة
من أنك لا تتخيلين الأمر كله يا فكتوريا؟

وقبل أن ترميه بنظرها سارع إلى الاعتذار قائلاً: حسناً،
حسناً، إلا أن عليك أن تعترفي بأن القصة كلها تبدو غريبة بالفعل.
إنها كقصص الرعب والإثارة... يدخل شاب ويدمدم بكلمة لا تعني
شيئاً... ثم يموت. إنها لا تبدو قصة حقيقية.

قالت: "أنت لم تر الدماء"، ثم ارتعدت قليلاً، فقال متعاطفاً:
لا بد أنها شكلت لك صدمة رهيبة.

- لقد صدمني ذلك بالفعل، ونأتي أنت لتتوَّج ذلك وتسالني
إن كنتُ اخترعُ القصة كلها.

- أنا أسف، ولكنك ماهرة قليلاً في اختراع الأمور... كشأن
أسقف لانغو وغير ذلك!

- آه، كان ذلك مجرد حيوية فتاة شابة، أما هذا الأمر فهو
جدي يا إدوارد، جدي حقاً.

- ماذا بالنسبة لذلك الرجل... هل اسمه داكين؟ هل أقنعك
كرجل يعرف ما الذي يتكلم عنه؟

- نعم، لقد كان مُقنعاً جداً. ولكن، اسمع يا إدوارد... كيف
عرفت...

قطعت حديثها صيحة من الشفقة: "هيا تعالا... الشاي جاهز
بانتظاركما"، فردّت فكتوريا: إننا قادمان.

ما حدث يبدو مصطنعاً غير حقيقي، لقد وصلت هي (فكتوريا جونز، الطالبة المغمورة في لندن) إلى بغداد، ورأت رجلاً يُقتل أمام عينيها تقريباً، ثم أصبحت عميلة سرية أو شيئاً بهذا المستوى من الإثارة، ثم التفت - أخيراً - بالرجل الذي أحبه، التفت في حديقة استوائية ترفرف فيها أشجار النخيل.

وطاف في خيالها مقطع شعري من أبيام الطفولة:

كم ميلاً إلى بابل؟

إنها سبعون،

أستطيع الوصول هناك على ضوء الشموع؟

نعم، والعودة ثانية أيضاً.

ولكنها لم تعد ثانية... كانت ما تزال في بابل، ربما لن تعود أبداً... هي وإدوارد في بابل!

سؤال ما أرادت طرحه على إدوارد... هناك في الحديقة، هي وإدوارد... تسأل إدوارد... ولكن السيدة كلايتون نادت... وقد طار ذلك من ذهنها... ولكنها ينبغي أن تذكر... لأنه كان سؤالاً مهماً... لم يكن للأمر أي معنى. تخيل... إدوارد... أنا شيل... ووبرت كروفتن لي... كل شيء غير طبيعي على نحو ما... لو استطاعت فقط أن تذكر...

امرأة تأتي باتجاهها في ممر أحد الفنادق... امرأة في بدلة جيدة التفصيل... كانت هي نفسها... ولكن عندما اقتربت المرأة رأت أن الوجه وجه كاترين، إدوارد وكاترين... هراء! قالت لإدوارد: "تعال

قالت السيدة كلايتون لزوجها وهي ترافيهما يقتربان من الدرج: إن وراء الأكمة ما وراءها! شابان لطيفان... ربما لم يكن لديهما مال أبداً. هل أقول لك رأيي يا جيرانك؟

- بالتأكيد يا عزيزتي؛ إنني مهتم دوماً بسماع أفكارك.

- أظن أن تلك الفتاة قد جاءت من إنكلترا لتنضم إلى عمها في حضرياته لسبب وحيد وبسيط هو ذلك الشاب.

- لا أكاد أظن ذلك يا روزا. لقد دُشنا تماماً لرؤية بعضهما بعضاً.

- ها! هذا لا يعني شيئاً. أظن أنه هو الذي اندمشت لرؤيتها.

هز جيرالد كلايتون رأسه عتياً عليها وابتنس، فقالت: إنها ليست من نوعية العالمين بالأنثاء؛ فالعاملات بهذا الحقل عادة ما يكنّ جدليات ويضعن نظارات... وغالباً ما يكنّ مملات.

- يا عزيزتي، لا يمكنك التعميم بهذه الطريقة.

ذهبت فكتوريا إلى فراشها في تلك الليلة وهي تحت وطأة مشاعر متضاربة. لقد وصلت إلى ما كانت تسعى إليه؛ فقد وجدت إدوارد! ولكنها ارتعدت لتفكيرها برد الفعل الحتمي، فقد ألغى عليها شعور بهبوط الرقب وتباطؤ الأحداث، بغض النظر عما تفعله.

كان عدم تصديق إدوارد لقصتها السبب - جزئياً - في جعل كل

معي، منجد السيد لوفارج...، وقجاة كان هناك، مرتدياً قفازات صفراء رقيقة بلون الليمون وله لحية صغيرة مدببة سوداء.

لقد ذهب إدوارد الآن وعدت وحيدة، ينبغي أن تعود من بابل قبل أن تنطفئ الشموع وتدخل في الظلام.

من الذي قال ذلك؟ العنق... الرعب... الشر... ذماء على ستره خاكية بالية. كانت تركض... تركض... في ممر أحد الفنادق... وكانوا يركضون خلفها.

ثم استيقظت فكتوريا لاهثة.



قالت السيدة كلايتون: قهوة؟ كيف تحبين البيض؟ مخفوقاً؟

— هذا رائع.

— تبدين شاحبة، هل تشعرين بمرض؟

— لا، ولكني لم أتم جيداً هذه الليلة. لا أدري لماذا، فالسرير مريح جداً.

— هل لك أن تفتح لنا المذياع يا جيرالدا؟ إنه وقت نشرة الأخبار.

دخل إدوارد في نفس الوقت الذي كانت الأبواب تنطلق فيه ليبدء نشرة الأخبار:

قدّم رئيس الوزراء ليلة أمس تفصيلات جديدة في مجلس العموم حول التخفيضات في المستودات بالدولار.

أعلن تقرير من القاهرة أن جثة السير روبرت كروفتن لي قد انشئت من النيل. (وضعت فكتوريا فنجانها بحدة على المائدة، فيما أطلقت السيدة كلايتون شهقة) وكان السير روبرت قد غادر فندقه بعد وصوله بالطائرة من بغداد ولم يعد إليه في تلك الليلة، وكانت قد مضت على فقده أربع وعشرون ساعة عندما تم العثور على جثته، وقد نتجت الوفاة عن طعنة في القلب وليس عن الغرق. وقد كان السير روبرت جولة مشهوراً، وقد عُرف برحلاته في الصين وبلوشستان، وقد ألف عدة كتب.

هتفت السيدة كلايتون: لقد قُتل! أضن أن القاهرة أسوأ من أي مكان الآن. هل تعرف أي شيء عن هذا كله يا جيرالدا؟

— عرفت أنه كان مفقوداً يبدو أنه تلقى رسالة شألت له باليد فغادر الفندق بسرعة مشياً على الأقدام دون أن يقول إلى أين ذهب.

قالت فكتوريا لإدوارد بعد الإفطار عندما كانا بمفردهما: أرايت؟ الأمر كله صحيح. بدأ الأمر بذلك الرجل، كازمايكل، والآن السير روبرت كروفتن لي. أشعر الآن بالأسف لأنني وصفته بالتبجح، فليس هذا من الأدب في شيء. كل الناس الذين يعرفون أو

يخمنون شيئاً عن هذا الأمر الغريب تتم إزاحتهم عن الطريق. إدوارد،
هل نظن أنني سأكون التالية على القائمة؟

- يا لله عليك لا تُظهري مثل هذا السرور بالفكرة يا فكتوريا! إن
إحساسك بالدراما قوي جداً، لا أرى سبباً يدفع أحداً لنصفيتك، لأنك
لا تعرفين شيئاً... ولكن أرجوك، أرجوك، أن تكوني حريصة.

- ستكون حريصين نحن الاثنين، فلقد ورطتك في الأمر.

- آه، لا بأس بذلك، فهو يخفف عليّ هذه الرتبة.

- نعم، ولكن انتبه لنفسك.

ثم ارتعدت فجأة وقالت: إنه أمر فظيع! لقد كان مليئاً بالحياة.
أعني السير روبرت... وها قد مات الآن. إنه لأمر مخيف حقاً!

* * *

الفصل السادس عشر

سأل داكين: هل وجدتِ فتاك؟

أومات فكتوريا بالإيجاب، فسألها: وهل وجدتِ شيئاً آخر؟

هزت فكتوريا رأسها نافية بشيء من الألم، فقال داكين: حسناً،
هوّني عليك، وتذكري أن النتائج في هذه اللعبة قليلة وتأتي في فترات
متباعدة. ربما كان بإمكانك التقاط شيء ما هناك... لا أحد يدري،
ولكني لم أضع حساباتي على هذا الأساس أبداً.

- أأستطيع الاستمرار في المحاولة؟

- هل تريد أن تستمر؟

- نعم، أريد. يظن إدوارد أن بوسعه الحصول على عمل في
في «غصن الزيتون»، ولو أبقيت عيني وأذني مفتوحة فربما عثرتُ
على شيء، أليس كذلك؟ إنهم يعرفون شيئاً عن أنا شيل هناك.

- هذا أمر مثير يا فكتوريا، كيف عرفتِ ذلك؟

كررت فكتوريا ما قاله لها إدوارد... حول ملاحظة كاترين التي

قالت فيها إنهم سيتلقون الأوامر من آنا شيل عند قدومها.

قال داكين: هذا أمر مثير تماماً.

- من هي آنا شيل؟ لا بد أنكم تعرفون شيئاً عنها... أم أنها مجرد اسم؟

- إنها السكرتيرة الخاصة لمصرفي أمريكي... رئيس مؤسسة مصرفية دولية. وقد غادرت نيويورك وجاءت إلى لندن قبل نحو عشرة أيام، ثم اختفت منذ ذلك التاريخ.

- اختفت؟ أعني أنها ماتت؟

- إن كانت قد ماتت فإن جثتها لم يُعثَر عليها.

- ولكنها ربما تكون قد ماتت، أليس كذلك؟

- آه، بلى، ربما.

- هل كانت... قادمة إلى بغداد؟

- ليست لدي فكرة عن ذلك. يبدو من ملاحظات هذه الشابة كاترين أنها كانت قادمة. أو لنقل إنها جاءت بالفعل... إذ ليس لدينا حتى الآن سبب يدعو للاعتقاد بأنها ماتت فعلاً.

- ربما استطعتُ معرفة المزيد في «غصن الزيتون».

- نعم، ربما استطعت... ولكن ينبغي أن أحذرك مرة أخرى
يوجب التزام الحذر التام يا فكتوريا. إن المنظمة التي تعملين ضدها

شرسة جداً ولا ترحم، ولا أُرغب أبداً في رؤية جثتك طافية على
نهر دجلة.

ارتعدت فكتوريا قليلاً وتمتمت: مثل السير روبرت كروفتن
لي. أنعلم أنه في ذلك الصباح عندما كان موجوداً في الفندق هنا
كان في حالة شيء غريب... شيء أدهشني. أتمنى لو أستطيع تذكر
طبيعة ذلك الشيء.

- ماذا تعنين بكلمة غريب؟

قالت: "أعني... مختلف"، ثم هزت رأسها بانزعاج جواباً على
نظراته المتسائلة وقالت: ربما تذكرت لاحقاً، ولكن لا أظن ذلك
مهماً على أية حال.

- كل شيء قد يكون مهماً.

- إن حصل لي إدوارد على وظيفة فإنه يرى أن عليّ العثور
على غرفة أقيم فيها كالفتيات الأخريات.

- من شأن ذلك أن يثير شكوكاً أقل، كما أن فنادق بغداد غالية
جداً. يبدو أن لفتاك عقلاً راجحاً.

- أتريد أن تراه؟

هر داكين رأسه ناعياً بإصرار وقال: كلا، أخبره أن يبقى بعيداً
عني دوماً. من المؤسف أنك ستكوتين موضع شبهة بسبب الظروف
التي أحاطت بموت كارمايكل في تلك الليلة، ولكن لا يوجد أبداً
ما يربط إدوارد بتلك الحادثة ولا بي أنا... ولهذا الأمر قيمة بالغة.

بدأت فكتوريا تقول: عناصر الشرطة الذين جاؤوا...

فقالها داكين قائلاً: آه، ولكنهم جاؤوا فيما بعد... جاؤوا من الشارع. أحسب أنهم تلقوا إشارة ما، ولكنهم لم يقوموا بالطعن. لا بد أن الطعنة كانت على يد شخص يعرفه كارمايكل جيداً ويتق به، أو على يد شخص اعتبره كارمايكل بسيطاً لا يؤبه له. لو كنت أعرف فقط!



إن تحقيق إنجاز ما يجلب معه -عادةً- ذلك الإحساس بالارتخاء وتباطؤ الأحداث. لقد رأت فكتوريا في قدومها إلى بغداد وفي عثورها على إدوارد برنامجاً ساحراً، أما الآن وقد حصلت على مرادها فقد أصبحت تتساءل -في لحظات نادرة من مساءلة النفس- عتاً دفعها لفعل ما تفعله!

لقد كان لإدوارد -بطريقة أو بأخرى، بقوة التصميم المجردة أو بقوة الإقناع- دور أساسي في حصول فكتوريا على وظيفة بأجر زهيد في «غصن الزيتون»، وكانت تمضي ليلٌ وقتها في غرفة مظلمة يضيئها مصباح كهربائي وتطبع على آلة طباعة قديمة رسائل وملاحظات وبيانات حول البرنامج العاطفي الساذج لهذه المنظمة. كان إدوارد قد أحس بأن في المنظمة شيئاً غير طبيعي، ويذا أن السيد داكين يتفق مع وجهة النظر تلك. أما هي فقد كانت هنا لتكتشف ما تستطيعه، ولكن لم يوجد -بقدر ما تراه- ما يمكن اكتشافه! فقد كانت أنشطة «غصن الزيتون» غارقة في عسل السلام العالمي، وقد

- كنت أنوي سؤالك عمن طعن كارمايكل عملياً؟ إكان قاتله شخصاً تبعه إلى هنا؟

قال داكين ببطء: كلا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

- لا يمكن؟

- لقد جاء إلى هنا في «قفة»، وهي نوع من القوارب الصغيرة المحلية، ولم يكن أحد يتبعه. إننا نعرف ذلك لأنني كلفت شخصاً بمراقبة النهر.

- إذن فقد كان القاتل شخصاً... من الفندق؟

- نعم يا فكتوريا، والأنيكى أنه كان شخصاً من جناح محدد في الفندق... لأنني كنت -شخصياً- أراقب الدرج ولم يصعد أحد عبره.

راقب وجهها المنحير ثم قال بهدوء: هذا لا يعطينا كثيراً من أسماء المشتبه بهم؛ أنت وأنا والسيدة كارديو تريتش وماركوس وأخواته، وبعض الخدم العجائز الذين خدموا هنا لسنوات طويلة... يمكن أن يكون القاتل أي واحد منهم. ومع ذلك فلا بُرجح هذا لسبب وجيه جداً.

- ما هو؟

- لقد كان كارمايكل في أوج نيقظه وحذره... كان يعلم أن لحظة الذروة في مهمته تقترب، وكان رجلاً ذا غريزة حادة جداً في تحسس الخطر. كيف خذله تلك الغريزة؟

سخاء النفس وسعة الأفق". وحاولت فكتوريا أن تبدو متلهفة سخية، فيما مضى الدكتور رايبون قائلاً: "ينبغي لك أن تحيي العمل... أن تحيي الموضوع الذي تعملين فيه وأن تتطلمي للمستقبل المحيد. أنتحسين حقاً بكل ذلك يا فلفلتي العزيزة؟".

تمتعت فكتوريا بعبارة موافقة من قبيل المجاملة واستدارت لتخرج، ثم تذكرت أنها نسبت الورقة المطلوبة فعدت ثانية، وقد أفرعتها قليلاً النظرة التي رأتها في عيني الدكتور رايبون. كانت نظرة حادة متشككة، وتساءلت -بكثير من عدم الارتياح- عن مقدار مراقبة الدكتور رايبون لها عن كتب وعن رأيه الحقيقي فيها.

كانت التعليمات التي تلقفتها من السيد داكين محدودة ودقيقة جداً، فقد كان يُفترض بها أن تلتزم ببعض القواعد في الاتصال به إن كان لديها ما تريد إيصاله له، وفكرت -بسرارة- بأنها لم تجد حاجة لعمل هذا الإجراء حتى الآن. كان كل عملها هو القيام بطريقة ذات أجر زهيد بتوديبها دون اهتمام، ولم تكن ترى إدوارد إلا في فترات متباعدة، إذ أن الدكتور رايبون كثيراً ما كان يرسله إلى أماكن بعيدة نائية. وقد عاد لثوه الآن من رحلة إلى إيران. وخلال غيابه كانت قد أجرت لقاء واحداً وغير كافٍ مع داكين. كانت التعليمات التي تلقتها تقضي بأن تذهب إلى فندق تيو وتسال إن كانت قد تركت خلفها ستره صوفية في الفندق. وربما أن الجواب كان بالنفي فقد ظهر ماركوس وقادها مباشرة إلى المصطبة المظلة على النهر لتناول الشاي. وخلال ذلك دخل داكين الفندق قادماً من الشارع كالمتسكع فلوّح له ماركوس ودعاه للانضمام إليهما. وفيما كان داكين يرتشف

ثم عقد تجمعات عديدة قُدم فيها عصير الليمون ومعه أطعمة فطيرة، وكان يُفترض بفكتوريا في تلك التجمعات أن تلعب دور المضيفة فتختلط بالحضور وتُعرف الناس بعضهم ببعض وتعزز الشعور العام الجيد بين أشخاص من جنسيات مختلفة كانوا يميلون إلى التحديق بعضهم إلى بعض بشيء من العدائية ويلتزمون ما لديهم من طعام وشراب.

كانت قد تركت فندق تيو وأخذت مكانها مع بعض العاملات الشابات في المنظمة من جنسيات مختلفة في بيت على الضفة الغربية للنهر. ومن بين أولئك الشابات كانت كاثرين، وبدا لفكتوريا أن كاثرين تراقبها بعين الرية، ولكنها لم تستطع الحزم فيما إذا كان ذلك نتيجة لشك كاثرين في أنها (أي فكتوريا) جاسوسة أم أن المسألة تتعلق فقط بكسب عواطف إدوارد. كانت تميل إلى هذا الاحتمال الأخير؛ فقد كان معروفاً أن إدوارد هو الذي فاز بالوظيفة لفكتوريا، وقد رفقها أعين كثيرة بشيء من الحسد والتفوق.

ومع أن منظمة "غصن الزيتون" نفسها بدت بريئة تماماً، إلا أن فكتوريا أحست بشعور محدد بأن رئيسها ومؤسسها كان من صنف مختلف؛ فقد انتهت -في مناسبة أو مناسبتين- لنظرة الدكتور رايبون المتأملة تستقر عليها، ومع أنها واجهت تلك النظرة بأكثر أساليبها براعة، إلا أنها شعرت بوخزة مفاجئة أشبه بالخوف. ومرةً سألها عندما استدعيت إليه لشرح خطأ مطبعي: "أرجو أن تكوني سعيدة بالعمل معنا؟"، فقالت: "آه، نعم؛ سعيدة حقاً يا سيدي"، ثم أضافت قائلة: "إنني أسفة لأنني أرتكب كل هذه الأخطاء"، فقال: "نحن لا نأبه للأخطاء، لا فائدة لنا من آلة لا روح فيها؛ إننا نحتاج الشباب، نحتاج

كوبه سرعان ما تم استدعاء ماركوس لأمر ما، وظل الاثنان هناك متقابلين على المائدة الصغيرة.

وبشيء من الخشية اعترفت فكتوريا بأنها لم تنجح في مهمتها، ولكن دافين طمأنها بعطف قائلاً: يا طفلي العزيزة، إنك لا تعرفين حتى ما تبحثين عنه، أو حتى إن كان يوجد ما يمكن العثور عليه هناك. ما هو انطباعك - عموماً - عن «غصن الزيتون»؟

قالت فكتوريا بشبهل: إنها منظمة غامضة تماماً.

- وماذا عن رايتون؟ أهو حقيقي صادق؟

- أظنه حقاً كذلك...

ولكن صوت فكتوريا كان يوحى بالشك، وقد فكرت قائلة لنفسها: نعم، الأمر كله يتركز حول رايتون. ففي أول لقاء لإدوارد معه قبل أسابيع في لندن كان الدكتور رايتون هو السبب في ملاحظات إدوارد الغامضة حول «الريبة» التي تحيط بهذا الأمر. وقررت - فجأة - أنه لا بد من وجود حدث معين أو كلمة معينة أيقظت ذلك التلمل وعدم الارتياح لدى إدوارد؛ فهي ترى أن تلك هي الطريقة التي تعمل بها أذهان الناس. إن شكوك المرء الغامضة لا تكون عادة نتيجة إحساس غريزي، بل تكون دائماً نتيجة سبب معين. ولو أنها استطاعت الآن حمل إدوارد على العودة بتفكيره إلى الوراء والتذكر لأمكنهما معاً أن يقعا على الحقيقة أو الحادث الذي أثار شكوك إدوارد. وفكرت فكتوريا أن عليها - بنفس الطريقة - أن تحاول تذكر ذلك الشيء الذي أدهشها إلى ذلك الحد عندما خرجت إلى الشرفة

في فندق تيو ووجدت السير روبرت كروفتن لي جالساً هناك في الشمس. صحيح أنها كانت تتوقع وجوده في السفارة وليس في فندق تيو، ولكن ذلك لم يكن كافياً لتفسير ذلك الشعور القوي الذي أحسّت به وجعلها ترى أن جلوسه هناك أمر غير واقعي أبداً! سوف تسترجع أحداث ذلك الصباح مرة بعد مرة، وينبغي أن يتم حث إدوارد على استرجاع الفترة الأولى لارتباطه بالدكتور رايتون. سوف تقول له ذلك عندما تنفرد به في المرة القادمة، ولكن لم يكن من السهل الانفراد به أبداً. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: لقد كان من الأفضل لي - لقلة رؤيتي لإدوارد - لو بقيت في إنكلترا!

ولكن سرعان ما ثبت - بعد وقت قصير جداً - أن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فقد جاء إليها إدوارد حاملاً بعض الأوراق وقال: يرغب الدكتور رايتون بطباعة هذه الأوراق فوراً من فضلك يا فكتوريا. انتبهي بشكل خاص للصفحة الثانية، ففيها أسماء غريبة ربما كانت صعبة بعض الشيء.

تنهدت فكتوريا وأدخلت ورقة في الآلة الطابعة وشرعت تطبع بأسلوبها السريع المعتاد. لم يكن خط الدكتور رايتون صعب القراءة كثيراً، وكانت تهين نفسها لأنها ارتكبت من الأخطاء عدداً أقل مما ترتكبه عادة. نثت جانباً الورقة الأولى ومضت لطباعة الثانية. وأدركت على الفور معنى أمر إدوارد لها بالانتباه لهذه الصفحة؛ فقد كانت هناك ملاحظة صغيرة أرفقها إدوارد في رأس الورقة الثانية: «أذهبي في نزهة على الأقدام على طول ضفة دجلة خلف بيت ملك علي في نحو الحادية عشرة من صباح غد».

كان اليوم التالي يوم جمعة، يوم العطلة الأسبوعية، وقد ارتفعت معتويات فكتوريا بشكل هائل. سترتدي سترتها الخضراء، كما أن عليها أن تغسل شعرها. إن مرافق البيت الذي تسكنه تجعل من الصعب عليها أن تغسل شعرها بنفسها. تمتعت بصوت عالٍ: وهو بحاجة للغسل فعلاً.

رفعت كاثرين رأسها بارتياح (وكانت تعمل في كومة من البائنات والمغلفات) وقالت من مكانها على المكتب الآخر: ماذا قلت؟

سارعت فكتوريا إلى تكوير قصاصة الورق التي كتبها إدوارد وقالت بشكل عادي: شعري بحاجة إلى غسل ولا أدري أين أذهب.

- إنني أعرف فتاة أرمنية تغسل الشعر بشكل جيد ومناشفها نظيفة. سأخذك إليها.

- هذا لطيف بالغ منك يا كاثرين.

- سنذهب غداً؛ فهو عطلة.

- كلا، ليس غداً.

- لماذا؟

وقعت عليها نظرة ارتياح، وشعرت فكتوريا بازدياد ضيقها وكراهيتها لكاثرين. قالت: "أفضل الخروج في نزهة على الأقدام... لاستنشاق بعض الهواء؛ فالمرء محصور كثيراً هنا". ثم طبعت سطرًا بسرعة فائقة... ثم ما لبثت أن ارتفعت إذ وجدت أنها داست المفتاح

الخطا فكتبت سطرًا كاملاً من إشارات التعجب والأرقام والأقواس. أخرجت الورقة من الآلة واستبدلت بها ورقة جديدة وانكتبت على عملها حتى أنجزته وأخذته للدكتور رايبون.

ألقي الدكتور نظرة على الأوراق وتمتم قائلاً: "شيراز في إيران وليست في العراق... كما أنك أخطأت في تهجئة كلمة العراق". وهذه المدينة اسمها واسط وليس وسط... شكرًا لك يا فكتوريا". ثم عاد فتأداها وهي تغادر الغرفة وقال: فكتوريا، هل أنت سعيدة هنا؟

- آه، نعم يا دكتور رايبون.

كانت عيناه السوداوان تحت حاجبيه الكثين مركبتين تبحتان. شعرت بالاضطراب يتصاعد لديها. قال: أخشى أننا لا ندفع لك الكثير.

- هذا لا يهم؛ إنني أحب العمل.

- أتحيينه حقاً؟

- آه، نعم. يشعر المرء أن هذا النوع من النشاط قيم فعلاً.

- يوجد نقص هذه الأيام في طابعات الاختزال في بغداد. أظن أنني قادر على العثور لك على موقع أفضل من موقعك هنا.

- ولكنني لا أريد أي موقع آخر.

- ربما كان من الحكمة أن تأخذني موقعاً آخر.

- الحكمة؟

ارتعدت فكتوريا قليلاً.

- نعم، هذا ما قلته. مجرد كلمة تحذير... ونصيحة.

كان في نبرته شيء يندّر قليلاً بالخطر. فتحت فكتوريا عينيها أوسع من ذي قبل وقالت: إنني لا أفهم حقاً يا دكتور رايبون.

- أحياناً يكون من الأحكم للمرء أن لا يورط نفسه في أمور لا يفهمها.

شعرت بأنها واثقة تماماً من وجود الخطر هذه المرة، ولكنها استمرت في التحديق به بعينين بريئتين كقطعة صغيرة. سألتها: لماذا جئت للعمل هنا يا فكتوريا؟ من أجل إدوارد؟

تورد وجهها غضباً وقالت بسخط: كلا بالطبع.

أوما الدكتور رايبون برأسه وقال: إن أمام إدوارد طريقاً طويلاً، وستمضي سنوات كثيرة جداً قبل أن يصبح في موقع يمكن معه أن يكون ذا فائدة لك. لو كنت مكانك لكففت عن التفكير به. كما يمكنك الحصول على وظائف جيدة حالياً كما قلت لك، مع راتب جيد ومستقبل واعد... وهي وظائف تجعلك وسط أناس من نوعيتك.

رأت فكتوريا أنه كان يراقبها حتى الآن. أكان هذا اختباراً؟ قالت متظاهرة باللهفة: ولكنني مولعة حقاً بالعمل في «غصن الزيتون» يا دكتور رايبون.

رفع كتفيه يلامبالاً، وخرجت من عنده، ولكنها كانت تشعر بعينيه مركزة على ظهرها وهي تغادر الغرفة. لقد أثارت هذه المقابلة شيئاً من الاضطراب عندها. هل حدث شيء أثار شكوكه؟ هل خُفّن أنها قد تكون جاسوسة دُشّت في منظمة «غصن الزيتون» لكشف أسرارها؟ لقد جعلها صوته وأسلوبه تشعر بخوف كريب. وقد أغضبته ملاحظته بأنها قد جاءت لتكون بقرب إدوارد وأنكرتها بقوة، ولكنها أدركت الآن أن ظن الدكتور رايبون أنها جاءت إلى هذا المكان من أجل إدوارد أسلم وأمن بكثير من شكه أن لداكين علاقة بهذا الأمر. وعلى أية حال، ربما اعتقد الدكتور رايبون فعلاً أن سبب مجيئها هو إدوارد، وذلك بسبب الخجل الغبي الذي بدا عليها... وهكذا يكون كل شيء قد انتهى على أفضل حال.

ومع ذلك كله فقد أوت في تلك الليلة إلى فراشها وفي قلبها غصة خوف صغيرة مقبنة.



الفصل السابع عشر

ثبت -في اليوم التالي- أن من السهل تماماً على فكتوريا أن تخرج بمفردها بعد التزود ببعض الإيضاحات. كانت قد استفسرت عن بيت الملك علي وعلمت أنه بيت ضخم مبني على النهر تماماً في مكان قريب عند الضفة الغربية منه.

لم يكن قد أتبع لفكتوريا -حتى ذلك اليوم- من الوقت ما يسمح لها باكتشاف ما حولها من مناطق، ولذلك فقد أحست بدهشة فرحة عندما وصلت إلى آخر الشارع الضيق ووجدت نفسها عند ضفة النهر. استدارت يميناً ومشت ببطء على طول حافة الضفة، ولم يكن سيرها يخلو من بعض الخطورة أحياناً، فقد تأكلت الضفة في بعض المواضع ولم يتم إصلاحها أو بناؤها. وكان لأحد البيوت درج أمامه ينحدر نزولاً بحيث يجد المرء نفسه في النهر إذا ما بالغ في نزوله في ليلة مظلمة. نظرت فكتوريا إلى الماء أسفل منها، ثم انعطفت مع حافة النهر، ثم ما لبث الطريق أن أصبح واسعاً ومعبدأ، ورأت أن للبيوت على يمينها ما يمنح شعوراً لطيفاً بالعموض بحيث لا تنفص عن طبيعة أو هوية ساكنيها. ثم وصلت بعد ذلك إلى حدائق نخيل كثيفة، وعلى يسارها كانت قد مرّت بدرج غير مستو يقضي

نزولاً إلى النهر، فيما جلس عربي في قاربه البدائي وأخذ يشير يديه وينادي، وحسبت أنه يريد سؤالها إن كانت تريد عبور النهر. وقدّرت فكتوريا أنها قد أصبحت الآن -دون شك- مقابل فندق تيو، رغم أنه كان من الصعب تمييز الفوارق في الأساليب المعمارية من هذا الجانب من النهر حيث بدت مباني الفنادق شبيهة بعضها ببعض بعد ذلك وصلت إلى طريق يخترق أشجار النخيل ويُفضي إلى بيتين عاليين لكل منهما شرفة عالية، وخلف البيتين كان هناك بيت ضخم مبني بحيث يطل على النهر تماماً وله حديقة مسيجة، وكان الطريق المحاذي لضفة النهر يعبر إلى داخل البيت الذي كان بيت الملك علي بالتأكيد.

وبعد بضع دقائق كانت فكتوريا قد عبرت مدخله ووصلت إلى طريق يبتعد عن النهر ووقفت عنده سيارة. كانت سيارة خربة قديمة بعض الشيء، ويجانها وقف إدوارد الذي يادها قائلاً: جيد، لقد وصلت... اصعدي.

سألته فكتوريا وهي تدخل السيارة القديمة فرحة: أين ستذهب؟

التفت إليها السائق الذي بدا كومة من الثياب الرثة تدب فيها الحياة وابتسم لها بفرح. قال إدوارد: ستذهب إلى بابل. لقد آن لنا أن نتمتع بيوم عطلة.

انطلقت السيارة برحفة عينية وأخذت تخبط بحنوت على الطريق المرسوفة بحجارة نائنة. صاحبت فكتوريا: إلى بابل؟ ما أجمل ذلك، حقاً إلى بابل؟

الآن مئة مهجورة. وعندما انتهت الجولة على الآثار جلس الاثنان قرب أسد بابل ليتناولوا طعام الرحلة الذي جاء به إدوارد، أما الدليل فقد ابتعد وهو ييشم بمحبة ويخبرهما -بكل تشديد- بوجود رؤيتهما المتحف فيما بعد.

قالت فكتوريا كالحالمة: أيجب علينا رؤية المتحف؟ إن التحف المحفوظة بالعلب مع شروحاتها لا تبدو لي حقيقية أبداً لسبب ما، لقد ذهبت مرة إلى المتحف البريطاني، وكانت تلك التجربة فظيعة ومتعة جداً لطول الوقوف على القدمين.

- الماضي ممل دوماً... المستقبل أهم بكثير منه.

قالت فكتوريا وهي تشير بشطيرتها باتجاه منظر عام للأجر المكموم: إنه ليس ممللاً؛ فهو يثير إحساساً بال... بالعظمة. أكنت تحب لو كنت ملكاً لبابل يا إدوارد؟

سحب إدوارد نفساً عميقاً وقال: نعم، كنت سأحب ذلك. لقد كان الشاعر ملثون محققاً تماماً؛ أن تحكم في جهنم أفضل من أن تخدم في الجنة.

- وعندئذ سننسى كل شيء عني!

- يا مقلتي المسكينة! نقي أن قلبي سيظل معلقاً بطابعة لندنية صغيرة لا تستطيع تهجئة أية كلمة طويلة.

قطعت فكتوريا جبينها فجأة؛ فقد أعادت كلمات إدوارد إلى ذهنها تلك المقابلة الغريبة لها مع الدكتور رايبون. قصت عليه قصة

انعطفت السيارة يساراً ومضى الركب على طريق معبدة جيدة وواسعة، فيما قال إدوارد: نعم، ولكن لا تتوقعي الكثير، إن بابل لم تعد كما كانت من قبل، إن كنت تفهميني.

لم يكن الطريق الواسع (الذي بدا معبداً بشكل جيد) بمستوى الآمال التي عُقدت عليه؛ فزُعم أنه ما زال واسعاً إلا أنه قد أصبح الآن مليئاً بالحفر وآثار المعجلات. صاح إدوارد: سيغدو أسوأ فيما بعد.

وفما كانت أجسامهم تهتز بسعادة مع اهتزاز السيارة ارتفع الغبار سحباً حولهم، وجاءت شاحنات مليئة بالناس فتجاوزت سيارتهم بسرعة وقوة، غير أبهة لكل التحذيرات التي أطلقها بوق السيارة. وبعد ذلك عبر الموكب حدائق مسيجة، ومجموعات من النساء والأطفال والحجير، وكان ذلك كله جديداً على فكتوريا وجزءاً من سحر الرحلة إلى بابل وإدوارد إلى جانبها.

وصلوا إلى بابل في غضون ساعتين وقد نالت منهم الرضوض. وقد خاب أمل فكتوريا قليلاً برؤية أكوام لا معنى لها من الطين الخرب والأجر المعاليج بالنار؛ فقد كانت تتوقع شيئاً من قبيل الأعمدة والأقواس التي رأتها في صور لمدينة بعلبك. ولكن -شيئاً فشيئاً- بدأت خيبة أملها تتراجع وهما يمشيان خلف دليلهما السياحي بصعوبة فوق أكوام من الأجر المشوي. أصغت بأذن واحدة فقط لشروحاته المسببة، وعندما مضى الثلاثة في طريق الموكب إلى بوابة عشتار، مع ما تبعه صور الحيوانات المحفورة عالياً على الجدران من ارتياح، أحست فكتوريا -فجأة- بعظمة الماضي تسيطر عليها، مع رغبة بمعرفة شيء عن هذه المدينة الواسعة الشامخة التي تتمدد

المقابلة، فبدأ أكثر انزعاجاً لذلك مما توقعت وقال: هذا أمر خطير يا فكتوريا، خطير حقاً. حاولي أن تذكرتي لي ما قاله بالضبط.

حاولت فكتوريا جهدها لتستعيد الكلمات نفسها التي استخدمها راثيون، ثم قالت: ولكنني لا أفهم لماذا أزعجك الأمر إلى هذا الحد.

بدأ إدوارد شادراً وهو يقول: ماذا؟ لا تفهمين؟ يا فتاتي العزيزة، ألا تدريكين أن ذلك يعني أنهم انتهوا لك، إنهم يحذرونك لضرورة الابتعاد عن طريقهم. إنني غير مرتاح لذلك يا فكتوريا... غير مرتاح أبداً، ولا أريد رؤيتك وقد ضرب رأسك وألقبت في دجلة يا عزيزتي.

وفكرت فكتوريا كم هو غريب أن يكونا جالسين وسط آثار بابل يتناقشان فيما إذا كان من المحتمل أن يتم قريباً ضربها على رأسها وإلقاؤها في دجلة. وفكرت -حالة- وعيناها شبه مغمضتين قائلة لنفسها: "لن ألبث أن أصبحوا لأجد نفسي في لندن أحلم حلماً ميلودرامياً رائعاً حول بابل الخطيرة". ثم أغمضت عينيها كلياً وفكرت قائلة لنفسها: ربما كنت الآن في لندن، ولن يلبث المنبه أن يرن قريباً لانهض وأذهب إلى مكتب السيد غرينهولتز...

وعند تلك الفكرة الأخيرة فتحت عينيها ثانية بسرعة لتتأكد من أن إدوارد موجود قريباً بالفعل (وما هو ذلك السؤال الذي أردت طرحه عليه في البصرة عندما قاطعونا فنسيت السؤال؟). لم يكن ذلك حلماً. كانت الشمس تشع بقوة تبهر الأبصار بطريقة أبعد ما تكون عن شمس لندن، وكانت آثار بابل باهتة تحت أشعة الشمس، وفي

خلفية المشهد انتصبت أشجار النخيل بلونها الداكن، وبجانبها جس إدوارد وظهره يكاد يكون بانحائها. كم هو رائع شعرة الذي ينمو ليكلف قليلاً عند رقبتك، وبإلها من رقبة جميلة وقد اسمرت واكتسبت اللون البرونزي من الشمس... رقبة لا يشوبها أي عيب أو أثر. إن الكثير من الرجال رفاقاً تحمل دماغاً وبشراً في موضع احتكاك باقات قمصانهم... كرقبة السير روبرت -مثلاً- المصابة بدُملة بدأت تنتفخ ثوبها.

فجأة انتصبت فكتوريا في جلستها وقد كتنت صبيحة كادت تخرج من فمها، وأصبحت أحلام اليقظة في خير كان. كانت شديدة الانفعال. وقد التفت إدوارد متسانلاً وقال: ما الأمر؟

- لقد تذكرت لثوبي... بخصوص السير روبرت كروقتن لي.

وفيمًا ظل إدوارد ينظر إليها نظرة تساؤل، مضت فكتوريا لتشرح ما تعنيه، والحقيقة أنها لم تتمكن من شرح قصدها بكثير من النوضح. قالت: لقد كانت دُملة... على رقبتك.

قال إدوارد وقد أخذته الحيرة: دُملة على رقبتك؟

- نعم، في الطائفة؛ فقد جلس أمامي، وقد سقط غطاء الرأس المالح برداته إلى الخلف فرائيتها... أعني الدُملة.

- ولماذا لا تكون له دُملة؟ إنها مؤلمة، ولكنها موجودة لدى الكثير من الناس.

- نعم، موجودة بالطبع. ولكن النقطة هي أنه في ذلك الصباح على الشرفة لم تكن له.

- لم يكن له ماذا؟

- لم تكن له دُمْلَة. آه، حاول يا إدوارد أن تفهم الموضوع. كانت له في الطائرة دُمْلَة، وفي فندق تيو لم تكن له دُمْلَة. كانت رقبته صحيحة تماماً ليس فيها أي أثر... كرقبتك الآن.

- حسناً، أحسبها قد شُفِيَتْ.

- آه، لا يا إدوارد. هذا غير ممكن؛ لم يكن ذلك إلا بعد يوم واحد، وكانت الدُمْلَة قد بدأت تنتفخ لتوها في اليوم السابق. لم يكن ممكناً أن تشفى بهذه السرعة ودون ترك أي أثر. أترى ما الذي يعنيه ذلك؟ نعم، لا بد أن يعني أمراً واحداً... وهو أن الرجل الذي كان في فندق تيو لم يكن السير روبرت أبداً.

ثم أومأت برأسها بحماسة، فيما نظر إدوارد إليها وقال: أنت مجنونة يا فكتوريا، لا بد أنه كان السير روبرت؛ أنت لم تري أي فارق آخر لديه.

- افهمني يا إدوارد؛ فأننا لم يُنْخَ لي أبداً النظر إليه بشكل صحيح. لم أنظر إلا إلى... إلى الأثر العام لمظهره. القبة... والرداء الواسع... وموقفه المتبجح المغرور. إنه رجل من السهل جداً تمثيل شخصيته وانتحالها.

- ولكن كان من شأنهم أن يعرفوا ذلك في السفارة...

- ولكنه ثم يُقَمَّ في السفارة، أليس كذلك؟ بل جاء إلى فندق تيو. وكان الذي استقبله أحد الموظفين الصغار؛ فالسير في إنكلترا.

- ولكن لماذا؟

- بسبب كارمايكل طبعاً. كان كارمايكل قادماً إلى بغداد لمقابلته... لكي يخبره بما اكتشفه. إلا أنهما لم يلتقيا من قبل، ولذلك لم يكن من شأن كارمايكل أن يعرف بأنه ليس الرجل الصحيح... ولن يكون حذراً بما فيه الكفاية. وبالطبع فإن السير روبرت الزائف هو الذي طعن كارمايكل! آه، يا إدوارد... هذا يوضح كل شيء!

- إنني لا أصدق حرفاً من ذلك. هذا جنون. لا تنسى أن السير روبرت قد قُتِلَ في القاهرة فيما بعد.

- نعم، وقد جرى الأمر كله هناك. إنني أعرف الآن آه، ما أفضح ذلك يا إدوارد! لقد رأيت ذلك يحدث.

- رأيته يحدث؟ هل جُنُنْتُ يا فكتوريا؟

- لا؟ إنني أبعد ما أكون عن الجنون. اسمعني فقط يا إدوارد. لقد حدث طرق على باب غرفتي... في الفندق في القاهرة. أو أنني ظننت - على الأقل - أنه بابي، فتفتحت الباب وأطلت منه، ولكن انطرق لم يكن على بابي بل على الباب المجاور، باب السير روبرت كروفن لي. كان الطارق إحدى المضيفات أو الخادومات أو ستمهن ما شئت. سألته إن كان يوسعه الحضور إلى مكتب شركة الطيران... في نهاية الممر. وقد خرجت من غرفتي بعد ذلك تماماً وعبرْتُ باباً عليه لافتة تشير إلى أنه مكتب الطيران، ثم انفتح الباب وخرج السير روبرت منه. فكرت - وقتها - أنه ربما تلقى خبراً جعله يمشي بشكل مختلف. أتفهمني يا إدوارد؟ لقد كان ذلك فخاً، وكان البديل ينتظر

جاهزاً، وبمجرد أن دخل الغرفة ضربوه على رأسه وخرج الآخر ليمثل دوره، وأحسب أنهم ربما احتفظوا به في مكان ما في القاهرة وذلك بتخديره طوال الوقت، ثم قتلوه في اللحظة المناسبة عندما عاد الرجل الآخر إلى القاهرة.

- إنها قصة رائعة، ولكن الصراحة - يا فكتوريا - أنك تخترعين ذلك كله. لا يوجد ما يدعم ذلك.

- الذمالة..

- آه، تيا للذمالة!

- وبعض الأمور الأخرى.

- ما هي؟

- لافتة مكتب الطيران على الباب. لم تعد موجودة هناك فيما بعد. لقد تذكرت أنني احترت عندما وجدت مكتب الطيران في الجانب الآخر من قاعة الدخول. هذا أمر، ويوجد أمر آخر؛ تلك المضيفة التي قرعت بابه لقد رأيتها بعد ذلك... هنا في بغداد... والأنكى أنني رأيتها في «غصن الزيتون» في أول يوم ذهبت فيه هناك. فقد دخلت وتحذرت مع كاثرين، وفكرت يومها بأنني رأيتها من قبل.

ثم سكنت لحظة وقالت: وهكذا ينبغي أن تعترف - يا إدوارد - أن الأمر ليس خيالاً مني.

قال إدوارد ببطء: كل الأمور تعود لتصب في «غصن الزيتون»!

- ماذا عن السيد داكين؟ ينبغي علي إخباره بهذا؟

- نعم، بالطبع. ولكن انتظري يوماً أو يومين؛ قريباً سوف ن لدينا معلومات إضافية تسير على هديها.

بعد أن تحمست فكتوريا (نتيجة مكتشفاتها) لم تجد صعوبة في اليوم التالي في تحية كاثرين بقبض من الود. قالت إنه لمن شديد اللطف من كاثرين أنها دلتها على مكان تغسل شعرها فيه؛ فشعرها بأمن الحاجة إلى الغسل (وكان هذا صحيحاً تماماً؛ فقد عادت من بابل وقد أصبح شعرها الأسود بلون الصدا الأحمر مشاً علق به من رمال).

قالت كاثرين وهي تنظر إلى شعر فكتوريا بشيء من الرضا المتشفي: نعم، إنه يبدو فظيلاً، أوقد خرجت - إذن - في تلك الزويدة الرملية بعد ظهر أمس؟

- لقد استأجرت سيارة وذهبت لرؤية بابل. كانت رحلة مثيرة جداً، ولكن الزويدة اشتدت في طريق العودة حتى كادت تخنقني ونعسيني.

- بابل ممتعة، ولكن عليك الذهاب إليها مع شخص يفهمها ويمكنه أن يحدلك عنها بشكل جيد. أما بالنسبة لشعرك فساخذك الليلة إلى تلك الفتاة الأرمنية. وسوف تغسله لك بقبول من أفضل الأنواع.

وعندما غادرتا «غصن الزيتون» في تلك الأمسية كانت الفتاتان على أحسن ما تكون الصداقة. دخلت كاثرين وخرجت في العديد من الأزقة الضيقة، ثم طوقت -أخيراً- على باب متواضع ليس عليه ما يدل على أن عمليات تجميل أو تصفيف شعر تتم خلفه. ومع ذلك فقد استقبلتهما شابة دميعة تبدو عليها الكفاءة وتكلم إنكليزية بطيئة مثالية وقامت باقتياد فكتوريا إلى مقسلة نظيفة جداً نلتزم حفياتها وتنتشر حولها زجاجات مختلفة من غسول الشعر ومليثاته. ثم غادرت كاثرين وسلمت فكتوريا رأسها ليدي الأنسة أنكوميان الماهرتين، وسرعان ما غدا شعرها كتلة من الرغبة الكثيفة.

- والآن، انحنى إذا سمحت...

انحنى فكتوريا فوق المغسلة، وانهمر الماء فوق شعرها وغرغرتزولاً في ماسورة المياه. وفجأة داهمت أنفها زكية ولكنها تبعث على الغثيان، وذكرتها الرائحة بالمستشفيات بشكل ما. كانت لفافة مبللة من القماش تطبق بقوة على أنفها وفمها، وصارعت بكل قوتها وهي تتلوى وتستدير، ولكن القيصرة الحديدية أبقت على الكمامة في مكانها. بدأت تختنق، ودار رأسها، وطرق سمعها صوت هادر... ويعد ذلك سادس العتمة، عميقة ثقيلة.

الفصل الثامن عشر

عندما استعادت فكتوريا وعيها شعرت بمرور وقت طويل جداً. هاجت في ذهنها ذكريات مضطربة... اهتزاز جسمها في سيارة... أحاديث عالية ومشاجرات باللغة العربية... أضواء نومض في عينيها... نوبة غثيان فظيعة. ثم تذكرت -على نحو غامض- تمذدها على سرير وأحدهم وهو يرفع ذراعها والوخزة المؤلمة للإبرة. ثم المزيد من الأحلام المضطربة والعتمة، وخلف ذلك إحساس متعاضم بالعجلة التي تصاحب حالة الطوارئ.

أما الآن فقد أحست أخيراً -على نحو غائم- بأنها هي نفسها من جديد... فكتوريا جونز. وقد حدث لها شيء ما، منذ وقت طويل طويل... منذ أشهر، وربما منذ سنوات... وربما كان ذلك منذ أيام فقط.

بابل... أشعة الشمس... الغبار... الشعر... كاثرين. كاثرين بالطبع، وهي تبتسم بعينيها الماكرتين. لقد أخذتها كاثرين لكي تغسل شعرها، وبعدها... ما الذي حدث؟ تلك الرائحة الفظيعة المقززة... الكلوروفورم بالطبع. لقد خدروها بالكلوروفورم وأخذوها... إلى أين؟

الشيء. وكان ثمة طفل يلعب بكرة وذراعه مليئة بالاربطه، وهو يغني بصوت عال يخرج من أنفه ليعود متجنباً كموسيقى القرب.

صرفت فكتوريا انتباهها بعد ذلك إلى الباب الذي كان ضحماً ثقبلاً، ذهبت إليه دون كبير أمل وعالجته، فوجدته مغلقاً، فعدت وجلست على طرف السرير. ترى أين هي؟ من المؤكد أنها ليست في بغداد. وما الذي سفعله الآن؟

لقت انتباهها - بعد لحظات - أن سؤالها الأخير هذا لا معنى له في الواقع؛ فالأحرى أن تسأل نفسها ما الذي سيفعله الآخرون بها؟ وتذكرت - وقد انتابها إحساس مزعج في قمة معدتها - نصيحة السيد داكين لها بأن تقول كل ما تعرفه، ولكن ربما كانوا قد حصلوا منها على كل ذلك وهي مخدرة.

ومع ذلك عادت فكتوريا إلى تلك النقطة بقرح مقصود... فكرة أنها ما تزال حية. فإن استطاعت أن تبقى على قيد الحياة حتى يجدها إدوارد... ماذا سيفعل إدوارد عندما يكتشف أنها اختفت؟ هل سيذهب إلى السيد داكين؟ هل سيتصرف بمفرده؟ هل سيخيف كاثرين ويجبرها على الكلام؟ هل سيسلك بكاثرين أصلاً؟ ومع ازدياد محاولات فكتوريا لتخيل صورة مُطمئنة لإدوارد في حالة التصرف والمبادرة كانت صورة إدوارد تتلاشى شيئاً فشيئاً لتصبح أقرب إلى تجريد لا ملامح له. ما مدى ذكاء إدوارد؟ هذا هو حقاً لب القضية؛ فقد كان إدوارد محبوباً وذو سحر، ولكن هل يمتلك عقلاً راجحاً؟ ذلك أن من الواضح أنها ستحتاج العقل في محتنتها الحالية.

من شأن السيد داكين أن يمتلك عقلاً راجحاً، ولكن هل

حاولت فكتوريا الجلوس بحدو، بدا أنها نائمة على سرير سرير فاس جداً. كان رأسها يؤلمها وتشعر بالدوار، كما أنها ما تزال تحس بالنعاس، بنعاس قظيع. تلك الوخزة، وخزة الإبرة. لقد كانوا يخذلونها... كانت ما تزال نصف مخدرة.

حسناً، إنهم لم يقتلوا على أية حال (لماذا؟). هذا أمر حسن على الأقل. وفكرت فكتوريا نصف المخدرة بأن أفضل شيء هو العودة للنوم، وسرعان ما فعلت ذلك.

عندما أفاقت مرة أخرى شعرت أن ذهنها أكثر صفاء كان الوقت نهاراً الآن، وكان بمقدورها أن ترى أين هي. كانت في غرفة صغيرة ولكن سقفها عالٍ جداً وقد طُليت بطلاء أزرق شاحب يبعث الضيق في النفس، وكانت أرضيتها من الطين المرصوح، وبدا أن الأثاث الموجود يقتصر على السرير الذي تنام عليه. وقد أُلقيت بطانية قذرة عليها، وثمة طاولة مقلعة عليها طشت صيني سقط طلاءؤه، وتحتها سطل نحاسي، وكانت على الجدار نافذة عليها من الخارج شبك خشبي.

نهضت فكتوريا مترنحة عن سريرها وهي تشعر بصداغ شديد وحالة غريبة وتقدمت من النافذة، وكان بوسعها أن ترى بوضوح من خلال الشبك الخشبي حديقة تنتصب خلفها أشجار النخيل. كانت الحديقة جميلة بالمقاييس الشرقية، مع أن من شأن ملاك إنكليزي أن ينظر إليها باستخفاف. كان فيها الكثير من أشجار البرتقال، وبعض أشجار الكاليتوس التي يعلوها الغبار، وشجيرات أخرى ذابلة بعض

ستوفر لديه الحماسة؟ أم أنه سيكتفي بشطب اسمها من دفتر عقله؟ أو يكتب أمام اسمها بخط منمّم «رحمها الله»؟ فهي بالنسبة للسيد داكين لا تعدو أن تكون -في نهاية الأمر- واحدة من آلاف غيرها. يجازفون فإن خانهم الحظ لا يُعتبر ذلك إلا من سوء طالعهم، كلا، لم تستطع تصور السيد داكين يقوم بعملية إنقاذ، فلقد حذّرها على أية حال.

كما أن الدكتور رايبون قد حذّرها أيضاً (هل حذّرها أم هددها؟...)، وحين رفضت الخضوع للتهديد لم يتأخر كثيراً تنفيذ التهديد! كررت فكتوريا مع نفسها بإصرار على رؤية الجانب الإيجابي من الأمور: "ولكنني ما أنزل حبة".

اقرب صوتٍ خطئ في الخارج، ثم جاء صوت إدارة المفتاح في قفل لصدى. أصدر الباب صريخاً من مفاصله وانفتح، وفي فتحته ظهر رجل عربي يحمل صينية قديمة من التلك عليها أطباق. وقد بدا الرجل في مزاج جيد؛ فقد ابتسم ابتسامة عريضة ونطق ببعض العبارات غير المفهومة باللغة العربية، وأخيراً وضع الصينية وفتح قفله وأشار إلى مجرى الطعام في صدره وغادر الغرفة بعد أن أقفل الباب خلفه من جديد.

اقتربت فكتوريا من الصينية باهتمام، فوجدت طبقاً كبيراً من الأرز، وشيئاً أشبه بأوراق الكرب الملفوفة، ورغيف خبز عربيّ كبيراً. وكان على الصينية أيضاً إبريق ماء وكأس.

بدأت فكتوريا بشرب كأس كبير من الماء، ثم شرعت بالأرز، ثم الخبز، ثم أوراق الملفوف التي كانت مليئة بلحم مفروم ذي

طعم غريب بعض الشيء. وعندما أنهت كل ما في الصينية شعرت بتحسن كبير.

حاولت جهداً لتفكر بالأمور بوضوح. لقد تم تخديرها بالكولوروفورم واختطافها. منذ متى حدث ذلك؟ لم تكن واقفة أبداً من الإجابة على هذا السؤال، ولكنها ختمت -من تكرار نومها وصحوها- أن ذلك كان منذ عدة أيام. وقد تم إخراجها من بغداد... إلى أين؟ وهنا -أيضاً- لم تكن لديها وسيلة لمعرفة الإجابة. وبسبب جهلها باللغة العربية لم يكن بمقدورها حتى طرح أسئلة. لم تستطع العثور على مكان أو اسم أو تاريخ.

تبعث ذلك عدة ساعات من الملل القاتل. وفي ذلك المساء ظهر حارسها مرة أخرى ومعه صينية طعام، وقد جاءت معه -هذه المرة- امرأتان، كانتا ترتديان ملابس سوداء وتخفيان وجهيهما. لم تدخلوا الغرفة، بل بقيتا خارج الباب مباشرة، وكانت إحداهما تحمل طفلاً بين ذراعيها. وقفنا هناك نضحكان ضحكاً مكتوماً، فلقد كان وجود امرأة أوروبية مسجونة هنا أمراً مثيراً بالنسبة إليهما.

تكلمت فكتوريا معهما بالإنكليزية والفرنسية، ولكنها لم تلق جواباً إلا الضحك المكتوم، ورأت أن من الغريب أن لا تستطيع التفاهم مع بنات جنسها. قالت ببطء وصعوبة إحدى العبارات التي سبق وتعلمتها: الحمد لله.

وقد كوفئت على لفظها لهذه العبارة بسيل فرح من الكلام العربي؛ فقد أومأت المرأتان برأسيهما بقوة. وتحركت فكتوريا نحوهما، ولكن الخادم العربي (أو كانتا ما كانت صفته) سارع إلى

سد الطريق عليها، ثم أمر المرأتين بالتراجع وخرج هو أيضاً وأفلح الباب وراءه. ولكن قبل أن يفعل ذلك نطق كلمة واحدة عدة مرات: "بكرة... بكرة... بكرة...". وكانت تلك كلمة سمعتها فكتوريا من قبل، وهي تعني غداً.

جلست على سريرها لكي تفكر في الأمور بعمق. غداً؟ غداً سيأتي أحد أو سيحدث شيء ما. غداً سينتهي سجنها (أم تراه لن ينتهي؟)... ربما تأتي مع نهاية سجنها نهايتها هي أيضاً! وبأخذ مجمل الوضع بالحسبان لم تأبه فكتوريا كثيراً لفكرة الغد. شعرت -غريزياً- أنه سيكون من الأفضل كثيراً لها أن تكون غداً في مكان آخر.

ولكن هل كان ذلك ممكناً؟ أعطت كل انتباهها لهذه النقطة لأول مرة. ذهبت أولاً إلى الباب وتفحصته. من المؤكد أن شيئاً لا يمكن فعله بخصوص الباب؛ فهذا ليس من الأفقال التي يمكن للمرء فتحها بدبوس شعر... هذا إن كان بمقدورها حقاً أن تفتح أي قفل بدبوس شعر، الأمر الذي تشكك به كثيراً.

بقيت النافذة. وسرعاناً ما وجدت أن النافذة تعطي أملاً أكبر بكثير مما يعطيه الباب؛ فقد كان الشبك الخشبي الذي يغطيها في المراحل الأخيرة من الهشاشة والعطب، فإذا ما افترضت أنها تستطيع كسر فتحة تخرج منها في الخشب الهش، فإنها لا تكاد تستطيع القيام بذلك دون إحداث أصوات كثيرة من شأنها أن تجذب الانتباه لها. والأُنكى من ذلك هو أن الغرفة التي سُجنت بها تقع في الطابق العلوي، مما يعني أن عليها إما أن تجد حيلة لتدلي منه أو أن تجاوز بالقفز مما قد يعرضها لالتواء في الكاحل أو لجرح آخر، وفكرت

فكتوريا أن الممهود في الروايات أن يصنع المرء حيلة من شرافف السرير، ثم نظرت بارتياح إلى ذلك الشرفف القطني السميك وإلى البطانية القديمة فلم يبد أن أياً منهما يناسب غرضها، وليس معها ما تستطيع به قص الشرفف إلى شرائح طويلة. ومع أنها كانت تستطيع تمزيق البطانية فإن تعنتها يجعل الثقة في إمكانية تحملها لوزن فكتوريا أمراً مستبعداً.

قالت بصوت عالٍ: "تَبَّأ"، وقد افتمنت -أكثر فأكثر- بفكرة الهرب. أحسّت من كل ما رآته بأن سجناتها كانوا أناساً ذوي عقلية بسيطة جداً يظنون معها أن مجرد إقفال باب الغرفة عليها يعني نهاية الأمر؛ لن يتوقعوا هروبها بسبب بسيط هو أنها أسيرة ولا تستطيع الهرب. إن من حققتها بالمخدر وأحضرها إلى هنا (كائنات من كان) ليس موجوداً هنا الآن... هذا ما كانت واثقة منه. إن من حقنها أو من حقنتها أو حقنوها يتوقع حضورهم "بكرة". لقد تركوها في منطقة بعيدة في عهدة أناس بسطاء من شأنهم أن يطيعوا الأوامر، ولكن ليس من شأنهم الانتباه للمكر وسعة الحيلة، ويُفترض أنهم لا يقدرّون الملكات الخلافة التي يمكن أن تتوفر لشابة أوروبية يفترسها خوف شديد من القنّاء.

قالت لنفسها: سأخرج من هنا بطريقة ما!

جاءت إلى الطاولة وأكلت من الوجبة الجديدة التي أُحضرت لها، فمن الأفضل أن تحافظ على قوّتها. كان يوجد أرز مرة أخرى، وبعض البرتقال، وبعض قطع اللحم التي طُبخت بمرق برتقالي اللون.

أكلت كل ما في الصينية، ثم شربت ماء. وعندما أعادت الإبريق إلى الطاولة اهتزت الطاولة قليلاً وانسكب شيء من الماء على الأرض. وسرعان ما أصبحت الأرض -في تلك البقعة بالذات- عبارة عن طين سائل. وبينما نظرت فكتوريا إلى ذلك خطرت لعقلها الخصب دائماً فكرة.

كان السؤال هو: هل تُرك المفتاح في الباب من الخارج أم

٢٧

كانت الشمس تغرب الآن، وسرعان ما سيحل الظلام. ذهبت إلى الباب فجست أمامه ونظرت من الثقب الضخم للمفتاح فلم ترَ أي نور من خلاله. كان ما تحتاجه الآن شيئاً يمكنها أن تدفع به المفتاح... قلم رصاص أو طرف قلم حبر. كم هو مزعج أن يأخذوا حقيبتها منها، نظرت حولها مقبلة الجبين. لم يكن هناك من أدوات المائدة إلا ملعقة ضخمة، وهي لا تنفع حاجتها الحالية، رغم أنها قد تفيد لاحقاً. جلست فكتوريا لتفكر وتحتال لنفسها، وسرعان ما هفتت بفرح وقامت فترعت حذاءها واستطاعت نزع بطائنه الجلدية الداخلية، ثم لفّت البطانة بإحكام فوجدتها قاسية بما يكفي. عادت إلى الباب فركعت أمامه وأدخلت اللقافة بقوة في فتحة المفتاح، وكان من حسن حظها أن المفتاح الضخم لم يكن محكم الثبات في موضعه داخل القفل، وبعد بضع دقائق استجاب لمحاولاتها ووقع خارج الباب دون أن يصدر صوتاً عالياً في وقوعه على أرض طينية.

وفكرت فكتوريا في أن عليها أن تسرع الآن قبل أن يتلاشى تماماً ضوء النهار. أحضرت إبريق الماء وصبت قليلاً من الماء بحذر

أسفل إطار الباب مقابل النقطة التي قدّرت أن المفتاح قد سقط فيها. بعد ذلك استخدمت الملعقة كما استخدمت أصابعها في كشط وإزاحة بقعة الطين التي تنجبت. وشيئاً فشيئاً، وبسكب الماء مرات عديدة على الطين، استطاعت أن تحفر ثغرة صغيرة تحت الباب. تمددت وحاولت الإطلال منها، ولكن لم يكن من السهل رؤية شيء أبداً. ثم رفعت كُمّ قميصها وحاولت إدخال يدها في الثغرة فوجدت أن بالإمكان إخراج يدها وجزء من ذراعها خارج الباب. تحسنت الأرض خارج الباب بأصابع متلهفة إلى أن لمست برأس أحد أصابعها شيئاً معدنياً في النهاية. ها قد حددت مكان المفتاح، ولكنها لم تكن قادرة على إخراج ذراعها بما يكفي لتناوله. وبعد محاولات عديدة (كادت أن يئس معها غيظاً) استطاعت أن تمسكه بأصابعها، ثم سحبت من خلال الفتحة الطينية إلى داخل الغرفة.

جلست فكتوريا على مؤخرة قدميها وكلها إعجاب بعقريتها. أمسكت المفتاح بيدها التي ملأها الوحل، ثم نهضت وأدخلته في القفل. انتظرت لحظات حتى انطلقت جوقة كلاب تنبح في الجوار وأدارت المفتاح، واستجاب الباب لدفعها وانفتح قليلاً، فاطلّت منه بحذر لترى أنه يقضي إلى غرفة صغيرة أخرى لها باب مفتوح في الجانب الآخر. انتظرت لحظة ثم خرجت من الباب على رؤوس أصابعها. كان لهذه الغرفة الخارجية فتحات كبيرة في السقف وفتحة أو اثنتان في أرضيتها، وكان بابها يقضي إلى أعلى درج طيني خشبي ملحق بطرف البيت يؤدي نزولاً إلى الحديقة.

كان هذا هو كل ما أرادت فكتوريا رؤيته. عادت على رؤوس

أصابها إلى غرفة سجنها، ولم يكن من المحتمل أن يأتيها أحد مرة أخرى هذه الليلة، ولذلك سوف تنتظر إلى أن يحل الغلام ثم تخرج.

وقد لاحظت أمراً آخر: ففرب الباب الخارجي كان ثمة قطعة سوداء من القماش البالي مكمومة هناك. ورأت فكتوريا أنها عباءة قديمة ستكون مفيدة في إخفاء ملابسها الغريبة. ولم تعرف فكتوريا كم من الوقت انتظرت هناك. بذت ساعات لا تنتهي بالنسبة إليها، وأخيراً خفت الأصوات المحلية المختلفة، وتوقفت آلة غراموفون بعيدة عن إطلاق الأغاني العربية، وسكنت الصبحات العالية وضحكات النساء الحادة وبكاء الأطفال.

أخيراً لم تعد تسمع إلا أصوات عواء بعيدة حسبتها أصوات بنات آوى، ونوبات نباح الكلاب فجأة بين الحين والآخر، وهو ما تعرف أنه سيستمر طوال الليل. قالت لنفسها وهي تنهض: حسناً، إلى العمل!

بعد لحظة من التفكير أفقلت باب سجنها من الخارج وأبقت المفتاح في القفل، ثم تحسست طريقها عبر الغرفة الخارجية وأخذت تلك القطعة المكمومة من القماش الأسود وخرجت إلى أعلى الدرج الطيني. كانت السماء مغمرة، ولكن القمر لم يبلغ بعد قمة السماء، بل كان هناك من الضياء ما يكفي فكتوريا لرؤية طريقها. نزلت الدرج بهدوء ثم توقفت قبل نحو أربع درجات من نهايته، فقد كانت هنا على مستوى السياج الطيني الذي يحيط بالحديقة. فإذا ما استمرت في نزول الدرج سيتعين عليها أن تمر بمحاذاة البيت. كان يوسعها سماع

الشخير من الغرف في الطابق السفلي. ربما كان من الأفضل أن تذهب عن طريق هذا السياج، فقد كان سياجاً عريضاً يمكن السير عليه.

اختارت هذا الخيار الأخير ومضت بسرعة وحذر إلى حيث كان الجدار يستدير بزاوية قائمة، وهناك رأت في الخارج ما بدا لها حديقة نخيل، وكان الجدار في أحد مواضعه مهدماً. شقت فكتوريا طريقها هناك ونزلت الجدار بنصف وتعلق بنصف قفزة، وبعد لحظات كانت تسير بسرعة بين أشجار النخيل باتجاه ثغرة في الجدار البعيد. خرجت إلى زقاق ضيق بدائي أصغر من أن تمر به سيارة، ولكنه يصلح لمرور الحمير. وكان على جانبي الزقاق جداران من الآجر الطيني، وهرعت فكتوريا تقطع الزقاق بكل ما أوتيت من سرعة.

وهنا بدأت الكلاب تنبحها بكل شدة، وجاءها من أحد الأبواب كلبان أبو ثنان يرمجران، فما كان منها إلا أن التقطت قبضة من الحجارة والحصى ورمتهما بها، فصاح الكلبان وابتعدا راقضين، وأسرعت فكتوريا. استدارت عند منعطف لتجد نفسها وسط ما بدا أنه الشارع العام. وكان الشارع ضيقاً مرصوفاً تحف به البيوت الطينية للقري التي تبدو جميعها باهتة اللون في ضوء القمر. كانت أشجار النخيل تطل من فوق الجدران، والكلاب ترمجر وتنبح. وقد أخذت فكتوريا نفساً عميقاً وركضت، واستمرت الكلاب بالنباح، ولكن أحداً من البشر لم يهتم لاحتمال وجود قاطعة طريق في هذا الليل. وسرعان ما وصلت فكتوريا إلى فضاء رحب فيه جدول مياه موحلة وفوقه جسر مقوس أصابه الليلى، وبعد الجسر بدا أن الطريق أو الممشى الترابي يمتد عميقاً في أرض لا حدود لها. واستمرت فكتوريا في الركض حتى تقطعت أنفاسها.

مختلف الألوان الحمراء والقرمزية التي كانت تؤلف أشكالا بدية من الظلال. كان ذلك جميلاً ومخيفاً. وقالت فكتوريا لنفسها: أعرف الآن معنى أن يقول المرء إنه وحيد في هذه الدنيا!

كانت تقع من الأعشاب الصغيرة باهتة اللون تنتشر هنا وهناك، بالإضافة إلى بعض الأشواك الجافة. وفيما عدا ذلك لم يكن ثمة أثر للخضرة أو دليل على الحياة. لم يكن هناك سوى فكتوريا جونز، كما لم يكن هناك أي أثر للقرية التي هربت منها. كان الطريق الذي جاءت منه يمتد رجوعاً إلى ما بدا أنه أرض خلاء لا نهاية لها. وقد بدا لها أمراً لا يُصدّق أن تكون قد قطعت كل هذه المسافة بحيث غابت القرية تماماً عن مجال البصر، وإتائها - للمحطات - شوق للعودة يوجهه الذعر والربح... شوق لأن تستعيد بشكل أو بآخر صلتها مع أبناء البشر!

ثم عادت فسيطرت على نفسها، فقد أرادت الهرب، وهربت، ولكن ليس من المحتمل أن تنتهي مشكالاتها بمجرد أنها وضعت بينها وبين سجنائها بضعة أميال. إن من شأن سيارة - مهما كانت قديمة وخربة - أن تقطع تلك الأميال بكل سهولة وسرعة. وبمجرد اكتشاف أمر هروبها سيقوم أحدهم بالبحث عنها، فكيف عساها تختفي أو تختفي؟ لا يوجد - ببساطة - أي مكان يمكن الاختباء فيه. لم تزل تحمل معها تلك العبادة السوداء البالية، وما قد جريت الآن أن تلقى نفسها بين طياتها وتسحبا لتغطي وجهها، دون أن تعرف كيف يدا شكلها، إذ لم تكن معها مرآة. لعلها إن نرعت حذاءها الأوروبي وجواربها ومشت حافية القدمين، لعلها تستطيع ثفاذي انكشاف أمرها. كانت تعرف أن من شأن امرأة غريبة فاضلة ترتدي الخمار

أصبحت القرية الآن بعيدة عنها إلى الخلف، وتوسط القمر السماء. وإلى يمينها وشمالها وما بين يديها لم يكن هناك إلا الأرض الحجرية الجرداء، أرض لم تعدها يد إنسان وليس فيها أثر يدل على أي عمران بشري. بدت القلاة مسطحة سهلية، ولكنها لم تكن تخلو في الواقع من مرتفعات ومنخفضات بسيطة، ولم تعرف فكتوريا إلى أين تمضي هذه القلاة، كما لم تكن تعرف الكثير عن النجوم حتى تعرف - على الأقل - في أي اتجاه تسير. كان في هذه الأرض الشاسعة أمر غامض يبعث الرعب، ولكن كان من المستحيل العودة، ولم يكن أمامها سوى أن تستمر.

توقفت لحظات لتلتقط أنفاسها وتُطْفِئ نفسها بالنظر إلى ما خلفها والتأكد من أن أحداً لم يكتشف هروبها، ثم انطلقت من جديد تمشي ببات قاطعة ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة باتجاه المجهول. وبلغ الفجر أخيراً ليجد فكتوريا سبعة متورمة القدمين تكاد تكون على شفير الانهيار العصبي. تأكدت من خلال ملاحظة الضوء في السماء بأنها تتجه نحو الجنوب الغربي بشكل عام، ولكن بما أنها لا تعرف أين هي فإن هذه المعلومة لم تكن ذات فائدة تذكر لها.

كان أمامها إلى جانب الطريق شبه تلة أو تنوء صغير. تركت فكتوريا الطريق الترابي واتجهت إلى ذلك التنوء الذي كانت حوافه شديدة الانحدار، فتسلقتها وصولاً إلى قمته. ومن هناك كان يوسعها أن ترى المنظر العام للمنطقة حولها، وعادها شعورها بالذعر الذي لا تفسير له. فقد كان الخواء في كل اتجاه. كان المنظر جميلاً في ضوء الصباح الباكر، والشمعت الأرض والأفق بظلال باهتة من

أن تحظى بكل الحصانة الممكنة مهما ساءت حالتها أو بلغ فقرها، وسُيُعتبر منتهى سوء الأخلاق أن يعتمد أي رجل لمضايقتها. ولكن هل سيُخدع ذلك التكرار أغيتاً غريبة ربما انطلقت خلفها بسيارة للبحث عنها؟ إنها -على أية حال- الفرصة الوحيدة أمامها.

كانت قد نالت من التعب ما لا تستطيع معه متابعة المسير حالياً، وكانت تحس بعطش شديد أيضاً، ولكن كان من المستحيل العثور على حلٍّ لذلك؛ ولذا قررت أن أفضل شيء هو أن تضطجع في ظل تلك التلة، فبوسعها من هناك أن تسمع صوت أية سيارة قادمة، ويمكنها أن تخفي نفسها بالالتفاف إلى مؤخرة التلة بحيث تبقى بعيدة عن أنظار من يأتي في هذا الطريق... ومن جهة أخرى فإن ما كانت بحاجة ماسة إليه هو العودة إلى الحضر، والطريقة الوحيدة التي رأتها لتحقيق ذلك هي إيقاف سيارة يقودها أوروبيون والطلب منهم نقلها معهم.

ولكن عليها أن تتأكد من أن أولئك الأوروبيين ليسوا من الأوروبيين غير المرغوب فيهم. ولكن كيف عساها تتأكد من هذه النقطة؟ ظلت تفكر في هذه النقطة حتى غلبها النوم على غير توقع منها، وقد أنجبتها الرحلة الطويلة والإرهاق العام. وعندما أفاقَت كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، شعرت بالحر والتشنج والدوار، وكان عطشها قد أصبح الآن عذاباً مضمناً. أطلقت أنه من شغافها الجافة المريرة، وعندما تجمدت فجأة وأصغت؛ فقد سمعت صوتاً ضعيفاً (ولكنه مؤكد) لسيارة، رفعت رأسها بحذر شديد فَرأت أن السيارة لم تكن قادمة من جهة القرية، بل ذاهبة باتجاهها، وذلك يعني أنها ليست سيارة مطاردة. كانت السيارة ما تزال نقطة

سوداء بعيدة تماماً عند نهاية الطريق الترابي. تمددت فكتوريا لتخفي نفسها قدر الإمكان واستمرت في مراقبة السيارة. ولكنْ نمت لو أن نديها متظاراً مقرباً.

اختفت السيارة لدقائق معدودة في منخفض من الأرض، ثم عادت للظهور وهي تتسلق مرتفعاً غير بعيد، كان فيها سائق عربي وإلى جانبه رجل يملأس غريبة، وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "الآن عليّ أن أقرر". أكانت تلك فرصتها؟ هل تركزس نزولاً إلى الطريق وتلوح للسيارة لتوقفها؟

وبينما كانت تستعد للقيام بذلك اتأها وازع مفاجئ أوقفها. فعاذاً لو افترضت، مجرد افراض، أن هذا هو العدو؟ كيف يمكنها أن تخمن ذلك؟ من المؤكد أن هذا الطريق مهجور تماماً، إذ لم تمر أية سيارة أخرى، ولا شاحنة، ولا حتى قافلة حمير. ربما كانت هذه السيارة متجهة للقرية التي هربت منها الليلة الماضية... ماذا عساها تفعل؟ كان من القطع أن تضطر لاتخاذ قرار خطير كهذا في غضون لحظات فقط. إن كان هذا هو العدو فإنها النهاية، ولكن إن لم يكن العدو فربما كان أمليها الوحيد للنجاة؛ لأنها إن استمرت في التجول على غير هدى فربما ماتت عطشاً. ماذا عساها تفعل؟

وبينما كانت تقعي مشلولة لا تستطيع اتخاذ قرار تغير صوت السيارة المقبلة، فقد خفت سرعتها ثم انعطفت وخرجت عن الطريق فوق الأرض المليئة بالأحجار لتتجه نحو التلة التي تجلس فكتوريا خلفها. لقد رأها! إنهم يبحثون عنها!

ارتفعت نزولاً من الملجأ الذي احتضت به وزحفت حول

مؤخرة التلة متبعدة عن السيارة المقبلة، ثم سمعتها تتوقف، وسمعت صوت صفق بابها بعد نزول أحدهم منها. بعد ذلك قال أحدهم شيئاً بالعربية، ولم يحدث شيء. وفجأة، ودون أي إنذار، ظهر رجل أمام نظرها. كان يمشي حول التلة صاعداً إلى منتصفها، وكانت عيناه تبحثان في الأرض، وكان ينحن -من وقت لآخر- لينتفض شيئاً عن الأرض. ولئن كان يبحث عن شيء فإن ذلك الشيء لم يكن أبداً فتاة تدعى فكتوريا جوتز! وفوق ذلك فقد بدا إنكليزياً لا يمكن للمعين أن يخطئه.

تهدت فكتوريا بارتياح وحاجدت لتقف على قدميها وتقدمت من الرجل الذي رفع رأسه ونظر إليها دهشاً. قالت: آه، من فضلك... إنني في غاية السعادة لحضورك.

بقي يحدق إليها، ثم بدأ قائلاً: من تكونين يا الله عليك... آنت إنكليزية؟ ولكن...

رمت فكتوريا عن نفسها العبادة بنوبة من الضحك وقالت: إنني إنكليزية طبعاً؛ وهل يمكنك -رجاء- أن تعيدني إلى بغداد؟

- لست ذاهباً إلى بغداد، بل لقد جئت منها لتوي. ولكن ما الذي تغلبه -بربك- هنا وحيدة في وسط الصحراء؟

قالت فكتوريا لاهثة: لقد اخطفقت. ذهبت لأغسل شعري فخذروني بالكالورفورم، وعندما صحوت وجدت نفسي في بيت عربي في قرية هناك.

ثم أشارت نحو الأفق، فقال لها: في منْدي؟

- لا أعرف اسمها. هربت ليلة أمس، ومشيت طوال الليل، ثم اختبأت خلف هذه التلة خشية أن تكون عدواً.

كان منقدها ينظر إليها وعلى وجهه تعبير شديد الغرابة. كان رجلاً أشقر الشعر في نحو الخامسة والثلاثين، يبدو عليه شيء من التعالي، وإذا تكلم تكلم بحديث أكاديمي دقيق. وضع الآن نظارته على عينيه وحدق إليها من خلال النظارة وعليه سيماء التفزز، وأدركت فكتوريا أن هذا الرجل لم يصدق كلمة واحدة مما كانت تقوله. وتحولت مشاعرها -فوراً- إلى سخط غاضب وقالت: إنها صحيحة تماماً، بكل كلمة فيها!

بدا الغريب أبعد من أي وقت مضى عن تصديقها، ثم قال بنبوة برود: أمر رائع جداً.

الناث فكتوريا اليأس، كم هو مؤسف أن لا تمتلك قوة الإقناع عندما تحكي الحقائق المجردة، وهي التي تستطيع دوماً أن تجعل الكذب يبدو مقبولاً. لقد كانت تروي الحقائق الفعلية بشكل سيء يفترق إلى الإقناع. قالت للرجل: وإذا لم يكن معكم ما أشر به فإني سأهلك عطشاً... وسأموت عطشاً على أية حال إن أنت تركتني هنا وذهبت.

قال الغريب بنشج: من الطبيعي أن لا أحلم بفعل شيء كهذا، إذ لا يناسب امرأة إنكليزية أبداً أن تتيه وحدها في البراري. يا إلهي! إن شفتيك مشتقتان تماماً... يا عبدو.

- نعم؟

ظهر السائق عند طرف التلة، وعند تسلمه التعليمات باللغة العربية هرع نحو السيارة ليعود -بعد لحظات- حاملاً حافظة ماء ضخمة كروية الشكل وكأساً من البلاستيك.

شربت فكتوريا بشراهة ثم قالت: أووه! هكذا أفضل.

قال الإنكليزي: اسمي ريتشارد بيكر.

- وأنا فكتوريا جونز.

ثم أرادت استعادة ما خسرت من ثقة الإنكليزي وتحويل تكذيبه لها إلى انتباه واحترام فقالت: باونسفوت جونز. إنني ملتزمة بعمي الدكتور باونسفوت جونز في موقع حفرياته.

قال بيكر وهو ينظر إليها باستغراب: يا للمصادفة الغريبة! إنني في طريقي إلى موقع الحفريات أنا الآخر، إنها لا تبعد عن هنا إلا نحواً من خمسة عشر ميلاً. إنني الشخص المناسب الذي أرسلته العناية الإلهية لإنقاذك، ليس كذلك؟

لعل القول إن فكتوريا قد فوجئت بكون تهويلاً لحقيقة صدمتها؛ فلقد أسقط في يدها تماماً، إلى الحد الذي لم تعد معه قادرة على النطق بأية كلمة. تبع ريتشارد بخنوخ وصمت إلى السيارة وركبت فيها. وقال ريتشارد وهو يجلسها في المقعد الخلفي بعد إزاحة الكثير من الأغراض: أظنك أنت عالمة الأجناس. لقد سمعتُ أنك قادمة، ولكنني لم أتوقع وصولك في مثل هذا الوقت المبكر.

وقف لحظة يرتب شظايا الفخار التي أخرجها من جيبه، والتي أدركت فكتوريا الآن أنها هي التي كان يلتقطها عن الأرض عند التلة،

ثم أشار إلى التلة وقال: "يبدو من المحتمل أنه كان تلاً أثرياً، ولكن ليس فيه ما يوحى بالقيمة كما أرى. معظم ما فيه من أواني العهد الآشوري المتأخر... وشيء من آثار البارثيين وغيرهم". ثم اتسم وأضاف قائلاً: إنني سعيد إذ أرى أن غريزتك الأثرية قادتك -رغم متاعبك- لتفحص هذا التل الأثري.

فتحت فكتوريا قمها ثم عادت فأغلقتها، ثم انطلقت السيارة.

ما الذي يمكنه قوله في نهاية المطاف؟ صحيح أن أمرها سينكشف بمجرد وصولهم إلى مقر البعثة الأثرية... ولكن الأفضل بالتأكيد أن يتكشف أمرها هناك وتُعرف بذنبها مكفرة عما ابتدعته من قصص من أن تعترف للسيد ريتشارد بيكر وسط هذا التيه اللامتناهي. إن أسوأ ما يمكن أن يفعلوه لها هو إعادتها إلى بغداد. وفكرت فكتوريا (التي لا تتوب أبداً) أنها ربما استطاعت التفكير بعذر ما قبل الوصول إلى هناك، وقد بدأ خيالها النشاط عمله مباشرة: فقدان مؤقت للذاكرة؟ لتقل إنها سافرت مع فتاة طلبت منها أن... ولكن لا، يبدو أن الأمر سيتطلب منها رواية كاملة هذه المرة. ولكنها كانت تفضل -بالتأكيد- أن تفرغ مكنونات صدرها للدكتور باونسفوت جونز من أن تقضي بها إلى ريتشارد بيكر بالطريقة المتعالية التي يرفع فيها حاجبيه ويإنكاره الصريح للقصة الدقيقة الصحيحة التي روتها له.

قال السيد بيكر وهو يلتفت في كرسيه الأمامي: إننا لا ندخل مندلي تماماً، بل نتعطف عن الطريق لندخل الصحراء بعد نحو ميل

من هنا. يكون من الصعوبة أحياناً العثور على النقطة تلك في غياب الشواخص.

وسرعان ما قال شيئاً لعبود فانعطفت السيارة بحدّة عن الطريق الترابي واتجهت مباشرة إلى عمق الصحراء. وقد قام ريتشارد بيكر بتوجيه السائق بإشارات منه دون أن ترى فكتوريا وجود شواخص يستعين بها... وكانت السيارة تذهب تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال. وسرعان ما أطلق ريتشارد صيحة ارتياح وقال: إننا نسلك الطريق الصحيح الآن.

لم يكن بوسع فكتوريا رؤية أي طريق. ولكنها أخذت تلاحظ -بين الحين والآخر- وجود آثار عجلات لا تكاد تُرى. وبعد قليل اجتازت السيارة آثار عجلات أوضح قليلاً، وما أن اجتازتها حتى صاح ريتشارد وأمر عبود بالتوقف، ثم قال لفكتوريا: ها هنا منظر مشير لك لم تراه من قبل طالما أنك جديدة على هذا البلد.

كان هناك رجلان يقتربان من السيارة، وكان أحدهما يحمل مقعداً خشبياً قصيراً على ظهره، فيما حمل الآخر جهازاً خشبياً كبيراً بحجم البيانو. حياهما ريتشارد، وردّاً عليه تحيته بكل ترحيب وسعادة، ثم أخرج ريتشارد لفافات تبغ وزعها عليهما، وبدأ أن جو صداقة دافئاً يسود الجميع. ثم التفت ريتشارد إليهما وقال: هل تحبين السينما؟ ينبغي أن تشاهدي عرضاً إذن.

تحدث مع الرجلين فايسما بفرح، ونصبا المقعد وأشارا لفكتوريا وريتشارد بأن يجلسا عليه. ثم ركبا الجهاز المستدير على قاعدة ما، وكان فيه فتحتان للنظر من خلالهما، وحالما نظرت

فكتوريا منهما صاحت قائلة: إنه صندوق العجائب!

- بالضبط، نسخة بدائية منه.

ركزت فكتوريا عينها على فتحتي النظر المغطاتين بالزجاج، وبدأ أحد الرجلين يدير ذراعاً ملحقاً بالآلة، فيما أخذ الآخر يغني نشيداً فيه بعض الرثابة. سألت فكتوريا: ما الذي يقوله؟

ترجم لها ريتشارد فيما مضى الرجل في غنايه يقول: تعال وجهز نفسك للكثير من العجائب والمتعة... تجهّز لرؤية عجائب الزمان.

ورأت فكتوريا من الفتحة صورة بدائية الألوان لزنوج يحصدون القمح، فيما شرح لها ريتشارد ترجمة: «فلاحون في أمريكا». ثم جاء شرحٌ لصورة أخرى: «زوجة الشاه الأكبر للعالم الغربي»، فيما ابتمت الإمبراطورة بوجيني وعشت بخصلة من شعرها. ثم ظهرت صورة لقصر الملك في مونتني نيغرو، وصورة أخرى للاستعراض العظيم.

وتتابع بعد ذلك مجموعة غريبة متنوعة من الصور لا يجمعها جامع، ويتم الإعلان عنها أحياناً بأغرب التعبيرات: زوجة الأمير، خليج الترويج، متزلجون في سويسرا... كل ذلك توالى لتُستكمل هذه اللوحة الغريبة عن الأيام البعيدة الخوالي. ثم أنهى الرجل عرضه بالكلمات التالية: وهكذا أتينا لكم بعجائب الدنيا القديمة وغرائبها في أماكن أخرى بعيدة، فلنكن مساهمكم سخيّة بمستوى العجائب التي رأيتموها، لأن كل هذه الأمور حقيقية.

وانتهى العرض، وأشرق وجه فكتوريا سعادةً وقالت: كان هذا حقاً رائعاً! ما كنت لأصدق وجوده.

بسرعة أمراً يصعب فهمه كثيراً، كما أنهم يرون طريقنا في الدخول مباشرة في الموضوع طريقة تقتصر تماماً للتهذيب والأدب. إذ ينبغي عليك دوماً أن تجلسي وتبدئي بتقديم الملاحظات العامة نحواً من ساعة قبل ذلك!

- سيكون ذلك غريباً إن طبقناه في مكائنا في لندن؟ قبل ذلك يهدر المراء الكثير من الوقت.

- نعم، ولكن ذلك يقودنا من جديد إلى نفس السؤال: ما هو الوقت؟ وما هو الهدر؟

أخذت فكتوريا تتأمل في هذه النقاط، فيما بدا أن السيارة مستمرة في تقدمها في هذه المئاة بأكثر قدر من الثقة. قالت أخيراً: أين هذا المكان؟

- هل أنت؟ إنه بعيد في وسط الصحراء. سوف تزين الزقورة بعد قليل، ولكن حتى ذلك الحين انظري إلى شمالك. هناك... حيث أشير

- هل هذه غيوم؟ لا يمكن أن تكون جبالاً.

- بل هي جبال؛ جبال كردستان التي تغطيها الثلوج لا تستطيعين رؤيتها إلا عندما يكون الجو صافياً جداً.

اجتاح فكتوريا شعور بالرضا والقناعة أشبه بالحلم، وتمتد لو كان بوسعها أن تستمر في مثل هذه الرحلة إلى الأبد. لو أنها فقط لم تكن تلك الكذابة النعيسة! انكمشت كطفل لفكرة المكاشفة الكريمة

وفيما كان أصحاب السينما المتقلبة يتسمون بفخر نهضت فكتوريا عن المقعد الذي كان ريشارد يجلس على طرفه الآخر مما أدى إلى اختلال توازن ريشارد ووقوعه أرضاً بشكل مخرج. اعتذرت فكتوريا دون أن تسمح لذلك بتخص فرحها. وقام ريشارد بمكافأة الرجلين اللذين غادرا بعد عبارات الوداع اللطيفة وبعد أن عبر الطرفان عن اهتمام كل منهما بالآخر والدعوة بالتوفيق من الله لكل منهما، ثم عاد ريشارد وفكتوريا إلى السيارة وانطلقا السائق في الصحراء. سألت فكتوريا: إلى أين يذهبان؟

- إنهما يسافران في طول البلد وعرضه. لقد قابلتهما أول مرة في الأردن وهما يقطعان الطريق بين البحر الميت وعشان، وهما الآن ذاهبان إلى كربلاء دون شك، وهما يذهبان عبر طرق فرعية لا تُستخدم كثيراً بحيث يقدمان عروصهما في القرى النائية.

- ألا يقلهما أحد في سيارته في تلك الطرقات؟

ضحك ريشارد وقال: قد لا يقبلون ذلك. لقد عرضت مرة على رجل عجوز أن أحمله بسيارتي، وكان يقطع الطريق بين البصرة وبغداد ماشياً. سأته كم ستأخذ منه الرحلة برأيه فأجابني أنها ستستغرق نحو شهرين، فطلعت منه أن يصعد السيارة ليكون في بغداد في وقت لاحق من ذلك المساء، ولكنه شكوكي ورفض العرض، فالوصول بعد شهرين سيتناسب أكثر. إن الوقت لا يعني شيئاً هنا، وبمجرد أن يقتنع المرء بذلك فإنه يجد رضاء غريباً بالأمور.

- نعم؛ بوسعي تخيل ذلك.

- إن العرب يجدون في تفاد صيرنا والمأحنا على إنجاز الأمور

التي تنتظرها. تُرى أي نوع من الرجال هو الدكتور باونسفوت جونز؟
طويل ذو لحية طويلة بيضاء ونظية صارمة قاسية؟ ولكن لا بأس،
مهما كانت درجة انزعاج الدكتور باونسفوت جونز فإنها استطاعت
التخلص من كاثارين والدكتور رايتون و«غصن الزيتون».

قال ريتشارد: "ها قد وصلنا"، ثم أشار أمامه، فنظرت فكتوريا
لترى شيئاً لم يبد لها إلا كشامة في الأفق البعيد. قالت: يبدو على
بعد أميال كثيرة:

- آه، لا، لم تبق إلا أميال قليلة الآن، وسترين.

وبالفعل تطورت الشامة بسرعة مذهلة لتصبح كتلة صغيرة
في البداية، ثم تلة صغيرة، ثم أصبحت -أخيراً- تلاً أثرياً ضخماً
مهيئاً. وعلى أحد جوانب التل امتد بناء طويل من الحجر الطيني. قال
ريتشارد: هذا مقر البعثة.

ثم تقدمت السيارة وهم يلوحون وسط نباح الكلاب، فيما
اندفع الخدم بأثوابهم البيضاء لتحياتهم بوجوه بشوشة. وبعد تبادل
التحيات قال ريتشارد: الواضح أنهم لم يتوقعوا حضورك بهذه
السرعة، ولكنهم سيعدّون لك سريرك، وسيهيئون لك ماء حاراً على
الفور. أحسب أنك تودين الاستحمام والراحة؟ الدكتور باونسفوت
جونز خرج إلى التل، وأنا ذاهب إليه. سوف يعتني بك إبراهيم.

ثم مضى بعيداً، فيما لحقت هي بإبراهيم إلى البيت وهو
ييسم. بدا البيت مظلماً من الداخل في بداية الأمر لمن يدخل من
الخارج حيث الشمس الساطعة. وعبر الاثنان غرفة معيشة فيها بعض

الطاولات الكبيرة والكراسي القديمة، ثم قادها إبراهيم حول باحة
لندخل غرفة صغيرة ليس لها إلا نافذة صغيرة واحدة. وكان في
الغرفة سرير وخزانة أدراج قديمة وطاولة عليها إبريق ووعاء ماء
كبير وأمامها كرسي. ابتسم إبراهيم وأومأ لها برأسه، ثم أحضر لها
إبريقاً ضخماً فيه ماء حار موحد المنظر ومنشفة خشنة الملمس، ثم
عاد بإتسامة اعتذار حاملاً معه امرأة صغيرة علّقها بحرص في مسمار
صدئ في الجدار.

كانت فكتوريا ممتنة لفرصة الاستحمام التي واثتها. كانت قد
بدأت تدرك -لنورها- مدى تعبها وإنهاكها ومقدار انساخ جسمها
بالأثرية التي لصفت به. وقالت لنفسها وهي تتقدم نحو المرأة:
أحسبني سأبدو مخيفة تماماً.

ثم حذفت إلى صورنها المنعكسة للحظات لا تكاد تفهم
شيئاً... هذه لم تكن هي... ليست هذه فكتوريا جونز!

ثم أدركت أخيراً بأن ملامحها الدقيقة اللطيفة -رغم أنها ملامح
فكتوريا جونز نفسها- إلا أن شعرها كان الآن أشقر بلاتينياً!

* * *

- تقول إنها ابنة أخيك.

- ابنة أخي؟

جاهد الدكتور باونسفوت ليعود بعقله من تأملاته في الجدران الطبية، ثم قال بارتياح وكأنه يُحتمل أن تكون له ابنة أخ قد نسي أمرها: لا أظن أن لدي ابنة أخ.

- فهمت أنها جاءت للعمل معك هنا.

أشرق وجه الدكتور باونسفوت وقال: آه، بالطبع، هذا يعني أنها فيرونيكا.

- أظنها قالت فكتوريا.

- نعم، نعم، فكتوريا. لقد كتب لي إيميرسن عنها من كامبريدج. فهمت أنها فتاة قديرة جداً... عالمة بالأجناس. لا أرى سبباً يدعو المرء لأن يصبح عالم أجناس، أترى أنت سبباً؟

- لقد سمعت أن عالمة أجناس سافرت في طريقها إليك.

- ليس لدينا شيء يتطلب اختصاصها حتى الآن، ولكننا ما نزال في البداية طبعاً. لقد فهمت أنها لن تأتي قبل مضي أسبوعين تقريباً، ولكنني لم أقرأ رسالتها بأمعان، ثم أضعت الرسالة، ولذلك فإنني لا أتذكر حقاً ما قالته. ستصل زوجتي في الأسبوع القادم... أو في الأسبوع الذي يليه... ترى ماذا فعلت برسالتها؟ ولقد ظننت أن فينيسيا ستأتي معها، ولكن ربما فهمت الأمر كله خطأ بالطبع. حسناً،

الفصل التاسع عشر

وجد ريتشارد الدكتور باونسفوت جوتز في موقع الحفريات يجلس القرفصاء قرب رئيس عماله وينظر -بحذر- جداراً مستخدماً منقرة صغيرة. حيا الدكتور جوتز زميله بأسلوب وافعي قائلاً: مرحباً بصغيري ريتشارد، ها قد ظهرت إذن. كانت لدي فكرة بأنك ستصل يوم الثلاثاء، لا أدري لماذا؟

- واليوم هو الثلاثاء.

قال الدكتور باونسفوت دون اهتمام: أهو حقاً الثلاثاء؟ تعال هنا وانظر ماذا ترى بشأن هذا. جدران سليمة جداً تظهر ونحن لم نحفر بعد سوى ثلاثة أقدام. يبدو لي أنه يوجد بعض أثر لطلاء هنا. تعال وأعطني رأيك... يبدو لي الأمر واعدأ جداً.

قفز ريتشارد إلى الخندق، واستمتع الأثاريان لمدة ربع ساعة بحديث متخصص جداً، ثم قال ريتشارد: بالمناسبة، لقد أحضرت فتاة.

- آه، حقاً؟ فتاة من أي نوع؟

حسناً... أظن أن بوسعنا أن نستفيد منها؛ فالكثير من الفخاريات ستظهر معنا.

- هل في تلك الفتاة أي شيء غريب؟

نظر الدكتور باونسفوت إليه وقال: غريب؟ بأي معنى؟

- أعني هل تعرّضت لانهيار عصبي أو ما شابه ذلك؟

- أذكر أن إيميرسن قال -بالفعل- إنها كانت تدرس بكل جد، لنيل شهادة أو درجة أو شيء من هذا، ولكنني لا أظنه قال شيئاً عن انهيار عصبي. لماذا تسأل؟

- لقد التقطتها عن جانب الطريق وهي تتجول هناك بمفردها تماماً. وجدها هناك عند ذلك التل الأثري الصغير الذي ذهبت إليه على بعد ميل قبل أن تترك الطريق العام...

- نعم، تذكرت. أتعلم أنني وجدت في ذلك التل مرة قطعة من حجر نوزو. من الغريب جداً العثور عليها في هذا البعد جنوباً.

ولكن ريتشارد رفض الانجرار إلى موضوعات أثرية ومضى بإصرار قائلاً: لقد روت لي قصة أغرب من الخيال. قالت إنها ذهبت لتغسل شعرها فقام بعضهم بتحذيرها بالكلووروفورم واختطافها وأخذها إلى مندلي وسجنها في بيت هناك، وإنها هربت في منتصف الليل... هراء عجيب ما سمع امرؤ مثله.

هز الدكتور باونسفوت جونز رأسه حيرة وقال: لا يبدو ذلك محتملاً أبداً؛ فالبلد هادئ جداً ولم يسبق له أن كان بمثل هذا الأمان.

- بالضبط. يبدو واضحاً أنها اخترعت القصة كلها؛ ولهذا سألت إن كانت قد عانت من انهيار عصبي. لا بد أنها من تلك الفتيات الغصابيات وربما سببت لنا الكثير من المتاعب.

قال الدكتور باونسفوت متفانلاً: آه، أظنها ستهدأ وتستقر. أين هي الآن؟

قال ريتشارد: "تركناها لتستحم وتصلح من أمرها". ثم تردد لحظة وقال: إنها لا تحمل معها أية أمتعة أبداً.

- حقاً؟ هذا أمر فظيع فعلاً. أتحسب أنها تتوقع مني إعارتها ملابس؟

- سيتعين عليها تدبير أمرها كيفما اتفق ريثما تذهب الشاحنة في الأسبوع القادم. إنني أعجب ما الذي كانت بصدد... وهي تتجول وحيدة وسط تلك المناهة.

قال الدكتور باونسفوت بغموض: الفتيات مدهشات هذه الأيام. يظهرون في كل مكان؛ وهو ما يشكل إزعاجاً عظيماً إذا ما كنت تريد إنجاز أعمالك. ربما خطر لك أن هذا المكان أبعد وأنأى من أن يتردد عليه الزوار، ولكنك ستدهش إن علمت كيف تظهر السيارات والناس هنا في الوقت الذي لا وقت لديك لخدمتهم. يا إلهي، لقد توقف الرجال عن العمل. لا بد أنه وقت الغداء. من الأفضل أن نعود إلى البيت.

* * *

وجدت فكتوريا -بعد انتظارٍ قلبي- أن الدكتور باونسفوت جونز

قالت فكتوريا وهي تبسم بسعادة: لا بأس بذلك.

نبهها الدكتور باونسفوت قائلاً: لا أثر لمقابر تمارسين من خلالها اختصاصك. تظهر الآن لدينا بعض الجدران الرائعة وكميات من قطع الفخار ظهرت في الخنادق البعيدة، وربما اكتشفنا بعض العظام لاحقاً. ولكننا سنجد لك ما يشغلك بشكل ما. هل تستطيعين التصوير؟

قالت فكتوريا بحذر: "أعرف شيئاً عنه"، وأحست بالارتياح لذكر شيء لديها خبرة عملية فيه بالفعل.

- حسناً، جيد. أنتستطيعين تحميض الأفلام؟ أنا متخلف في هذا المجال... ما زلت أستعمل الألواح. غرفة التحميض المظلمة بدائية بعض الشيء، وأنتم الشباب الذين اعتدتم على الأجهزة المتكبرة غالباً ما تجدون هذه الظروف البدائية مزعجة تماماً.

- لن أهتم لذلك.

بعد ذلك عمدت إلى مخازن البعثة فأخذت قرشاة ومعجوناً للأسنان وإسفنجة وبعض مساحيق التجميل.

كان ذهنها ما يزال مشوشاً حائراً وهي تحاول أن تفهم بالضبط حقيقة مركزها. من الواضح أنهم أخطؤوا فحسبوا فتاة أخرى تدعى فيبسيا من المفترض أن تأتي لتتضمم للبعثة، وهي عالمة بالأجناس. ولم تكن فكتوريا تعلم حتى معنى علم الأجناس! لو أنها عثرت فقط على قاموس هنا أو هناك، إذ أن عليها أن تبحث عن معنى ذلك العلم. لا يفترض أن تصل الفتاة الأخرى قبل مضي أسبوع على

أبعد ما يكون عما تخيلته. كان رجلاً ضئيل الجسم مستلقاً ذا رأس شبه أصلع وعينين لا تنفكان ترمشان، وقد أدهشها جداً أنه تقدم منها بيد من مدودتين قائلاً: أهلاً، أهلاً يا فيبسيا... أعني فكتوريا. هذه مفاجأة بكل معنى الكلمة. لقد دخل في روعي أنك لن تأتي حتى الشهر القادم، ولكنني سعيد برويتك، سعيد فعلاً. كيف حال إيميرسن؟ أرجو أنه لا يعاني من الربو كثيراً؟

استجمعت فكتوريا حواسها وملكانها المشتتة وقالت بحذر إن الربو لم يكن بهذا السوء مؤخراً.

- إنه شديد الحرص على لف رقبته كثيراً، وهي غلطة كبرى، وقد قلت له ذلك. إن أولئك الأكاديميين الذين يقبعون طوال الوقت في جامعاتهم يشغلون كثيراً بصحتهم لكي يبقى المرء سليماً عليه أن لا يفكر بالأمر. حسناً، أرجو أن تستفري هنا. ستأتي زوجتي في الأسبوع القادم... أو الذي بعده... لقد كانت مريضة بعض الشيء، عليّ أن أعتري على رسالتها حقاً. لقد أخبرني ريتشارد أن أمتعتك قد ضلت طريقها. كيف ستتدبرين أمرك؟ إذ لا نستطيع إرسال الشاحنة حتى الأسبوع القادم.

- أظنتني سأندبر أمري حتى ذلك الحين.

قهقه الدكتور باونسفوت وقال: لا نستطيع أنا وريتشارد أن نعيك الكثير. بالنسبة لقرشاة الأسنان لا توجد مشكلة، إذ يوجد أكثر من عشرة في مخازننا... وماذا بعد؟ بعض مساحيق التجميل، وبعض الجوارب والمناديل الاحتياطية. ولا يوجد الكثير غير ذلك.

الأقل. حسناً إذن، من الآن وحتى مضي أسبوع، أو حتى ذهاب تلك السيارة أو الشاحنة إلى بغداد، ستكون فكتوريا هي فينيسيا، وستقوم بدورها بأفضل ما تستطيع، رغم المصاعب! لم يساورها الخوف من الدكتور بانسفوت جونز الذي بدا سعيداً غامضاً عاماً في طرحه، ولكنها كانت تحس بالارتباك والقلق من ريتشارد بيكر، فقد كرهت تلك الطريقة المتأملّة التي ينظر بها إليها وساورتها فكرة تقول إنه سرعان ما سيكشف ادعاءاتها إن لم تكن في غاية الحذر. وقد كان من حسن حظها أنها عملت لفترة قصيرة كسكرتيرة طابعة في معهد الآثار في لندن، ولذلك فإن لديها حصيلة متناثرة من المفردات والجميل التي ستكون مفيدة الآن. ولكن يتعين عليها أن تحذر أشد الحذر من ارتكاب خطأ حقيقي فاضح. ورأت أن من حسن الحظ أن الرجال يملكونهم دوماً إحساس بالتفوق على النساء بحيث أن أي غلظة ترتكبها لن ينظر إليها الرجال على أنها حدث مريب بقدر ما يرون فيها دليلاً على مدى سخف ونحواء النساء جميعاً!

ستكون هذه الفترة فترة راحة أحست فكتوريا أنها في أمس الحاجة إليها، ذلك أن اختفاءها التام سيكون مربكاً لخاطفيها. لقد هربت من سجنها، ولكن سيكون من الصعب جداً عليهم تتبع ما حدث لها بعد ذلك. فسيارة ريتشارد لم تمر في متدلي، بحيث لا يمكن لأحد أن يخمن بأنها الآن في تل أسود. نعم، سيرون أنها تبخرت في الهواء، وربما استنجموا -على الأرجح- أنها ماتت... تاهت في الصحراء وماتت جوعاً وإعياء.

حسناً، فليظنوا ذلك. وإن كان من المؤسف -طبعاً- أن يظن إدوارد ذلك أيضاً! ولكن لا بأس، عليه أن يتحمل ذلك، فهو لن

يُضطر لتحمله طويلاً في كل الأحوال؛ إذ ستعود له فجأة وقد بُعثت من عالم الموتى... غير أنها بُعثت شقراء لا سمراء محمّرة. وقد أعادها ذلك إلى اللغز القائل: لماذا عمدوا إلى صبغ شعرها؟ رأت فكتوريا أن لذلك سبباً دون ريب، ولكنها لم تستطع تخمين هذا السبب أبداً -والحالة هذه- سرعان ما ستظهر بمظهر غريب جداً عندما يبدأ شعرها بالنمو بلونه الأسود عند الجذور. ولكن فكتوريا قالت لنفسها: لا بأس، ألت حية أرزق؟ ولست أرى سبباً يمنعني من التمتع بما أنا فيه قدر استطاعتي... لأسبوع واحد على الأقل. كانت متعة كبيرة حقاً أن تكون مع بعثة أثرية وترى كيف تعمل مثل هذه البعثات. لو أنها فقط تستطيع النجاة من المأزق وعدم فضح نفسها.

لم تجد دورها سهلاً بشكل عام؛ إذ ينبغي التعامل بحذر مع الأحاديث التي تتناول الناس والكتب المنشورة، وأصناف الفخار المختلفة، والأساليب المعمارية. ومن حسن الحظ أن الناس يقدرون دوماً شخصاً حسن الإصغاء. وقد كانت فكتوريا مستمعة ممتازة للرجلين، وقد بدأت -وهي تحسّن طريقها بكل احتراص- تلتقط مفردات المهنة وعباراتها بسهولة كبيرة.

وعندما كانت تجد نفسها بمفردها في البيت كانت تقرأ سراً بشكل محمود، وكانت هناك مكتبة أثرية جيدة ساعدت فكتوريا في تعلم شيء عن الموضوع بسرعة. وعلى غير توقع منها، وجدت فكتوريا الحياة شيقة تماماً. كان يؤتى لها بالشاي صباحاً، ثم تخرج إلى موضع الحفريات فتساعد ريتشارد في مسائل التصوير.

وتحاول تجميع ولصق قطع الفخار المكسور، وتراقب الرجال وهم يعملون، وتعجب لمقدار خبرة وحذر المسؤولين عن استخراج الآثار، وتستمتع بأغاني وضحكات الصبية الصغار الذين يركضون لتفريغ قُفُفهم من التراب في مكب الأتربة. وقد أتقنت تمييز الفترات التاريخية، والمستويات المختلفة التي يجري بها الحفر، وتعرفت على ما تم من عمل في الموسم الماضي. كان الأمر الوحيد الذي تختشاه هو ظهور مدافن أثناء الحفر؛ إذ لم تستطع -من كل ما قرأته- أن تكون فكرة عما يُنتظر منها فعلة كعالمة أجناس ممارسة! وقالت فكتوريا لنفسها: إذا ما ظهرت لدينا عظام أو قبور فسيبتعن عليّ الوقوع فريسة لركام شديد... كلا، بل لنوبة آلام شديدة في الكبد... ولنأزم فراشي!

ولكن لم تظهر أية قبور، بل ظهرت -بدل ذلك- جدران أحد القصور ببطء. وقد افتتحت فكتوريا ولم تُح لها فرصة إظهار أية قابلية أو مهارة خاصة. ولكن ريتشارد بيكر ظل ينظر إليها بشيء من التساؤل أحياناً، وكانت تحسن بنقده المكتوم، ولكن طريقة تعامله ظلت ودودة مرحة، وقد أعجب فعلاً بحماسها. قال لها يوماً: إنه لأمر جديد عليك تماماً أن تخرجي من إكلترا. أنذكر كم كنت منفعلاً في أول موسم سافرت له.

- منذ متى كان ذلك؟

ابتسم وقال: منذ وقت طويل. منذ خمسة عشر عاماً تقريباً.

- لا بد أنك تعرف هذا البلد جيداً.

- لم يقتصر عملي على هذا البلد وحده. سوريا... وإيران أيضاً.

- إنك تتكلم العربية بشكل ممتاز، أليس كذلك؟ لو أليسوك لباساً عربياً فهل تستطيع إبهامهم بأنك عربي؟

هز رأسه نفيّاً وقال: آه، لا... هذا يحتاج لجهد كبير. وإنني أشك في أن إنكليزياً قد استطاع أبداً إبهام العرب بأنه عربي... أعني لفترة معقولة.

- ولورنس؟

- لا أحسب أن لورنس استطاع إبهامهم أبداً بأنه عربي. كلا، الرجل الوحيد الذي أعرفه ولم يكن بالإمكان تمييزه عن أهل البلد هو صاحب لي وُلد عملياً في هذه المناطق. كان والده قنصلاً في كاشغار وفي أماكن نائية أخرى، وكان يتحدث كل اللهجات المحلية منذ طفولته، وأظنه حافظ عليها لاحقاً.

- وماذا حدث له؟

- لم أَره منذ أن تركنا المدرسة. لقد كنا في مدرسة واحدة، وقد اعتدنا أن نسميه الفقير، لأنه كان يستطيع الجلوس ساكناً تماماً وكأنه في عِشاهة غريبة. لا أدري ماذا يفعل الآن... مع أن يوسعي أن أختن تخميناً لا يبعد كثيراً عن الصواب.

- ألم تره أبداً بعد المدرسة؟

- الغريب أنني صادفته قبل أيام فقط... وكان ذلك في البصرة. كان أمراً غريباً بسجمله.

- غريباً؟

- نعم، فأنا لم أميزه؛ إذ كان يرتدي زياً عربياً، كوفية وقفطاناً مقلماً وسترة عسكرية قديمة، وكان يحمل سبحة من مسابح الكهرمان تلك التي يحملونها أحياناً، وكان يقطع حباتها بين أصابعه بشكل يوحي بالنقى، إلا أنه كان يستخدم - في الواقع - شيفرة عسكرية بتلك الأصوات؛ شيفرة مورس. وكان بتلك الطقطقة يبعث برسالة... لي أنا!

- وماذا قالت الرسالة؟

- ذكر فيها اسمي... أو بالأحرى لقي أيام المدرسة، ولقبه، وبعدها ندائه للوقوف بجانبه قائلاً إنه يتوقع مشكلات.

- وهل حدثت مشكلات؟

- نعم؛ فحينما نهض ليخرج من الباب قام رجل عادي يوحي شكله بأنه تاجر متجول وأخرج مسدساً. وضربت أنا يده... وهرب كارمايكل.

- كارمايكل؟!

التفت إليها بسرعة للنبرة التي ذكرت بها الاسم وقال: كان هذا اسمه الحقيقي. لماذا... هل تعرفينه؟

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "كم سيبدو الأمر غريباً إن قلت له إن الرجل مات في سريري!". ولكنها قالت ببطء: نعم، كنت أعرفه.

- كنت تعرفينه؟ لماذا... هل...

- نعم؛ لقد مات.

- متى مات؟

قالت: "في بغداد، في فندق نيو"، ثم أضافت بسرعة: ولكن تم التكم على الأمر... لا أحد يعرف بذلك.

أوما برأسه ببطء وقال: فهمت. كان متخبطاً في هذا النوع من النشاط، ولكنك...

نظر إليها ثم قال: كيف عرفت بذلك؟

- تورطت في الأمر... صدقة.

رماها بنظرة طويلة متأملة، فسألت فجأة: أكان لقبك في المدرسة هو الشيطان؟

بدا مدهوشاً وقال: الشيطان؟ لا، كانوا يسمونني بومة... لأنني كنت أضع نظارات لامعة دوماً.

- ألا تعرف أحداً يسمونه الشيطان... في البصرة؟

هز ريشارد رأسه بالنفي وهو يراقبها عن كثب. كانت تفكر مقطبة الجبين، ثم ما لبثت أن قالت: لينك تخبرني بما حدث في البصرة بالضبط.

- لقد أخبرتك.

- لا، أعني أين كنت أنت عندما حدث كل ذلك؟

- آه، فهمت. كان ذلك في غرفة الانتظار في القنصلية. كنت أنتظر رؤية كلايتون، الفصل..

- ومن كان هناك غير هذين الإثنين، كارمايكل وذلك التاجر المتجول؟ هل كان هناك غيرهما؟

- كان ثمة اثنان آخران، رجل أسمر نحيل فرنسي أو سوري، وعجوز أظنه إيراًنياً.

- والتاجر أخرج مسدساً فأوقفته، فخرج كارمايكل... كيف خرج؟

- استدار "بداية" باتجاه مكتب القنصل، وهو عند النهاية الأخرى من الممر وخلفه حديقة...

قاطعته قائلة: أعرف! لقد أقمتُ هناك بقعة أيام. والحقيقة أن ذلك كان بعد مغادرتك مباشرة.

قال: "أكان ذلك حقاً؟"، ثم عاد ليراقبها عن كثب... ولكن فكتوريا لم تكن متنبهة لذلك. كانت تتخيل الممر الطويل في القنصلية، ولكن بباب مفتوح عند نهايته... مفتوح على أشجار خضراء وشمس مشرقة.

قال ريتشارد: وكما كنت أقول، فقد اتجه كارمايكل في ذلك الاتجاه في البداية، ثم استدار بعدها واندفع في الاتجاه الآخر إلى الشارع... وكان ذلك آخر ما رأيته منه.

- وماذا عن التاجر المتجول؟

رفع ريتشارد كتفيه حيرة وقال: لقد فهمتُ أنه روى قصة مهلهلة حول رجل هاجمه وسطاً على ممتلكاته في الليلة السابقة، قائلاً إنه تخيل أن السارق هو ذلك العربي في القنصلية. ولم أسمع المزيد عن الأمر لأنني سافرت إلى الكويت.

- مَنْ كان يقيم في القنصلية في ذلك الوقت؟

- رجل يدعى كرومسي... من العاملين في النفط، ولا أحد غيره. آه، نعم، أظن أن شخصاً آخر كان هناك، وقد أتى من بغداد لتخليص كتب أو شيء من هذا القبيل، ولكني لم أقابله ولا أذكر اسمه.

رددت فكتوريا مع نفسها اسم كرومسي، وتذكرت الكابتن كرومسي بجسمه القصير المربوع وحديثه المتقطع. كان شخصاً عادياً تماماً، رجلاً مستقيماً ليس لديه الكثير من البراعة وسعة الحيلة. وكان كرومسي قد عاد إلى بغداد في الليلة التي جاء فيها كارمايكل إلى فندق تيو. أيمن أن يكون كارمايكل قد عاد أدراجه فجأة في ذلك الممر في القنصلية واتجه إلى الشارع بدل الدخول على القنصل لأنه رأى كرومسي في الطرف الآخر من الممر؟

كانت مستغرقة في التفكير بتفسير ذلك، وقد جفلت مع شيء من الشعور بالذنب إذ وقعت بصرها فرأت ريتشارد يراقبها بإمعان. سألتها قائلاً: لماذا تريدني معرفة كل ذلك؟

- إنني مهتمة بالأمر فقط.

- هل من أسئلة أخرى؟

- هل تعرف أحداً باسم لوفارج؟

- لا؛ لا يمكنني تذكر اسم كهذا. أهو رجل أم امرأة؟

- لا أدري.

كانت تسأل عن كروسي. كروسي؟ الشيطان؟

* * *

في تلك الليلة، عندما تمت فكتوريا للرجلين ليلة سعيدة ومضت إلى فراشها، قال ريتشارد للدكتور باونسفوت جونز: إنني أتساءل إن كان بوسعي إلقاء نظرة على تلك الرسالة التي جاءتك من إيميرسن. أرغب في أن أرى ما قاله بالضغط عن هذه الفتاة.

- بالطبع يا صديقي العزيز، بالطبع. إنها موجودة في مكان ما هنا. أذكر أنني كتبتُ بعض الملاحظات على ظهرها. لقد أسهب في مدح فيرونكا إن لم تخني الذاكرة... قال إنها شديدة الحرص. تبدو لي فتاة رائعة، رائعة تماماً. كما أنها كانت شجاعة إذ لم تفتعل ضجة كبرى بسبب فقدان متاعها. لقد كان من شأن أغلب الفتيات أن يطلبن نقلهن دون إبطاء لبغداد لشراء ملابس جديدة. إنها فتاة بسيطة غير معقدة. بالمناسبة، كيف حدث أن فقدت أمتعتها؟

قال ريتشارد بحياد بارد: تم تخديرها بالكلوروفورم، واختطفها، وسجنها في بيت محلي.

- نعم، يا إلهي! لقد قلت لي ذلك من قبل... تذكرت الآن، وهي قصة غير ممكنة. وهي تذكرني... بماذا تذكرني؟ أه، نعم؛

تذكرني باليزابيث كانغ. لعلك تذكر كيف خرجت علينا بقصة مستحيلة التصديق بعد أن فقدناها لمدة أسبوعين. كان في الأدلة التي سافتها تخطيط مثير جداً... إن كانت هي القضية نفسها التي أفكر فيها. وقد كانت فتاة دميعة جداً بحيث لم يبذ من المرحح وجود رجل في القضية. أما فكتوريا الصغيرة... أو فيرونكا... لا أستطيع أبداً تذكر اسمها بشكل صحيح... فإنها فتاة جميلة جداً، ويُحتمل كثيراً أن يكون في قبضتها رجل ما.

قال ريتشارد بيروود: كانت ستبدو أجمل لو لم تصنع شعرها.

- وهل تصبغه؟ يا لانساع معرفتك بهذه المسائل!

- وماذا بشأن رسالة إيميرسن يا سيدي؟

- طبعاً، طبعاً... لا أدري أين وضعتها. ولكن ابحث حيث شئت؛ فأنا حريص على العثور عليها على أية حال، بسبب تلك الملاحظات التي كتبها على ظهرها، وبسبب رسمة رسمتها عليها لتلك السبحة الدائرية.

* * *

الفصل العشرون

لنرى أن يحسبها أنت مباشرة من كتاب «ديلوغاز»

أحمر وجه فكتوريا قليلاً وقررت أن تعدد -عند إلقاء ثقافتها الموسوعية- إلى بعض التغيير في النصوص التي قرأتها لقد كانت نظرة ريتشارد المتسائلة من خلف نظارته تريكها أحياناً، قالت باستسلام: سأبذل ما في وسعي

قال ريتشارد: إننا ندفع إليك بكل المهمات الصعبة.

ابستمت فكتوريا لقوله، والحقيقة أن أنشطتها خلال الأيام الخمسة الماضية قد أدهشتها كثيراً؛ فقد حفضت أفلاماً باستخدام ماء تم ترشيحه عبر الفطن وتحت ضوء مشكاة يدائية داكنة اللون فيها شمعة تتطفئ دوماً في أخرج الأوقات، وكانت طاولة غرفة التحميم المظلمة عبارة عن عتبة كرتون كبيرة، وكان عليها -وهي تعمل- أن تقمي أو تجنو على ركبتيها، أما غرفة التحميم نفسها فقد كانت موضع تندر ريتشارد وسخريته، وقد أكد لها الدكتور باونسفوت أن بانتظارها المزيد من المفاجآت السارة القادمة...

لقد أثارت قُفّف الفخار المكسور في البداية سخريتها ودهشتها (رغم حرصها على عدم إظهار ذلك)، إذ ما الفائدة من كل هذه القطع الخشنة من الفخار؟ ولكن عندما وجدت -بعد ذلك- الأجزاء المفقودة التي تجمع هذه الشظايا، ولصقتها بعضها ببعض، ودعمتها ضمن صناديق من الرمل... بدأت -عندها- تهتم بما تفعله. تعلمت تمييز الأشكال والأنماط الأثرية، ووصلت أخيراً إلى أن حاولت أن تنجّل لماذا وكيف كانت تلك الأواني تستخدم قبل نحو ثلاثة آلاف عام. وفي المنطقة الصغيرة التي تم العثور فيها على بيوت صغيرة

في عصر اليوم التالي أطلق الدكتور باونسفوت جونز زفرة ملل عندما تنأى إلى مسامعه صوتٌ ضعيفٌ لسيارة تقترب، وسرعان ما حدد موقع السيارة التي كانت تدور الصحراء باتجاه التل

قال بحقد: زوّار، وبائون في أسوأ الأوقات أيضاً! أريد الإشراف على معالجة تلك القطعة التي تشبه الوردية والتي عثرنا عليها في الزاوية الشمالية الشرقية، إذ ينبغي معالجتها بالسيليكون. لا بد أنهم بعض البلهاء الذين أتوا من بغداد لشغلنا بالكثير من الثروة الاجتماعية، ويتوقعون أن نريهم موقع الحفريات كله.

قال ريتشارد: هنا تكمن الفائدة من فكتوريا. أستمعيني يا فكتوريا؟ عليك أن تشر في بنفسك على جولة لهم في الموقع.

أجابت فكتوريا: ربما كانت المعلومات التي أقدمها لهم مغلوطة كلها؛ فانا حقاً قليلة الخبرة كما تعلم.

قال ريتشارد فرحاً: بل أحسبك نتقدمين بشكل رائع في الحقيقة. تلك الملاحظات التي أبديتها هذا الصباح عن الأجر المحذّب يمكن

بسيطة لأشخاص عاديين قامت فكتوريا بتخيل تلك البيوت كما كانت في الأساس، بالناس الذين عاشوا فيها، بحاجاتهم وممتلكاتهم الصغيرة وأعمالهم، وبآمالهم ومخاوفهم. وبما أن فكتوريا كانت ذات خيال خصب، فقد كانت الصور تنهض في مخيلتها بسهولة. وفي ذلك اليوم الذي عثروا فيه على إناء فخاري صغير محشور في أحد الجدران وبدخله أكثر من ستة أقرط ذهبية انفلتت فكتوريا أيما انفعال، وقال ريتشارد -وهو يتشم- إن ذلك ربما كان مهراً لابنة صاحب البيت.

صحون مليئة بالحنطة، أقرط ذهبية تم ادخارها لتكون مهراً، إيّ من العظم، مطاحن يدوية وأجران، تماثيل صغيرة وتماثم... كل ما يمثل الحياة اليومية، ومخاوف وآمال مجتمع من الناس البسطاء العاديين. قالت فكتوريا لريتشارد: هذا ما أجده ساحراً جداً، فقد كنت أحسب دوماً أن الآثار لا تعدو أن تكون قصوراً ومقابر ملكية.

ثم أضافت بابتسامة غريبة صغيرة: ملوك بابل! ولكن ما أحبه كثيراً في هذا الأمر كله هو أنه يحدثك عن أناس عاديين بسطاء.... أناس مثلي.

كانت تفكر في هذه الأمور وهي تراقب الزائرين يصعدان جانب التل، وذهب ريتشارد لاستقبالهما وتبعته فكتوريا. كانا رجلين فرنسيين مهتمين بالآثار، وكانا يقومان بجولة تشمل سوريا والعراق. وبعد تحيات المجاملة أخذتهما فكتوريا في جولة على موقع الحفريات ورددت عليهما -بطريقة يغانية- طبيعة ما يجري من عمل. ولكن بما أنها كانت فكتوريا التي لا تستطيع مغالبة طبيعها،

فقد أضافت تزويقات مختلفة من عندها، مبررة ذلك لنفسها بضرورة جعل الأمر أكثر إثارة.

لاحظت أن لون أحد الرجلين كان متنعّجاً تماماً، وكان يجز نفسه جزاً دون كبير اهتمام، ثم ما لبث أن طلب أن تعذره فكتوريا لأنه يريد العودة للمنزل، إذ أنه لا يشعر بأنه على ما يرام منذ صباح ذلك اليوم... والشمس تزيد حالته سوءاً.

ثم غادر باتجاه بيت البعثة، وشرح لها الآخر بصوت منخفض أن علة صاحبه تكمن في معدته مع الأسف، وأن طعام بغداد لم يتاسبه كما يبدو، ولذلك ما كان عليه أن يخرج في هذه الرحلة اليوم.

انتهت الجولة وبقي الفرنسي يتحدث لفكتوريا، وأخيراً نودي الرجل، واقترح الدكتور باونسفوت جونز -بكل إصرار الضيافة الأصلية- ضرورة بقاء الزائرين لتناول الشاي قبل المغادرة. ولكن الفرنسي اعتذر عن ذلك بدعوى أن عليهما أن لا يتأخرا في الرحيل حتى يحل الظلام وإلا فإنهما لن يجدا طريقهما أبداً، وقد قال ريتشارد بيكر فوراً إن ذلك صحيح تماماً. وهكذا تم استدعاء الرجل المريض من البيت وانطلقت السبابة بأقصى سرعة.

دمدم الدكتور باونسفوت جونز قائلاً: "أحسب أن هذه لا تعدو أن تكون البداية، وسيتابع علينا الزوار الآن في كل يوم". ثم أخذ قطعة كبيرة من الخبز العربي ودهنها بمربي الخوخ بكثافة

ذهب ريتشارد إلى غرفته بعد تناول الشاي، فقد كانت لديه

رسائل يريد الإجابة عليها وأخرى يريد كتابتها استعداداً للذهاب إلى بغداد في اليوم التالي. وفجأة قطب حبيبه؛ فرغم أنه لم يكن أمراً شديداً الترتيب فيما يخص المظاهر الخارجية، إلا أن له في ترتيب ملابسه وأوراقه طريقة لم تكن تتغير أبداً، وقد لاحظ الآن أن كل درج من أدرجه قد تم العبث به، وكان متأكد أن ذلك لم يكن من فعل الخدم. لا بد - إذن - أنه ذلك الزائر المريض الذي افعل عذراً ليعود إلى البيت وفتش كل أغراضه ببرود. تأكد من عدم فقدان شيء من أغراضه؛ كما لم يتم لمس ماله. ما الذي كانوا يبحثون عنه إذن؟ تجهم وجهه وهو يفكر فيما ينطوي عليه الأمر.

ذهب إلى غرفة الآثار ونظر في الدرج الذي يحتوي على الأختام وطبعاتها، ثم صدرت منه ابتسامة أقرب إلى التكبيرة... إذ لم يتم لمس شيء أو أخذه. ذهب إلى غرفة المعيشة، وكان الدكتور ياونسفوت خارجاً في الباحة مع رئيس العمال، ولم تكن هناك إلا فكتوريا غارقة في كتاب تقرأه.

قال ريتشارد دون مقدمات: لقد فتش شخص ما غرفتي.

رفعت فكتوريا بصرها مذهوشة وقالت: لماذا؟ ومن فتشها؟

- ألم تكوني أنت؟

قالت فكتوريا بسخط: أنا؟! بالطبع لا. ولماذا عساي أعبت بأغراضك؟

نظر إليها بإمعان ثم قال: لا بد أنه ذلك الغريب الذي ادعى المرض وجاء إلى البيت.

- هل سرق شيئاً؟

- لا؛ لم يُفقد شيء.

- ولكن لماذا يُقَدِّم أي امرئ...

قاطعتها ريتشارد قائلاً: حسبك أنك ربما كنت تعرفين الجواب.

- أنا؟!!

- ذلك أنك اعترفت بأن أموراً غريبة قد حدثت لك.

- آه، هذا ما تعنيه... نعم.

بدا وكأنها قد جفلت قليلاً، ثم قالت ببطء: ولكنني لا أرى سبباً يجعلهم يفتشون غرفتك أنت. فليس لك علاقة بال...

- بماذا؟

لم تجبه فكتوريا لبضع لحظات. بدت غارقة في أفكارها، ثم قالت أخيراً: إنني آسفة، ماذا قلت؟ لم أكن متنبهة.

لم يكرر ريتشارد سؤاله، بل سألتها بدل ذلك: ماذا تقرنين؟

- ليس لدى المرأة خيارات كثيرة لقراءة قصص خفيفة هنا. لا يوجد إلا «قصة مدينتين» و«الكبرياء والهوى» و«ليل غيرهما». إنني أقرأ «قصة مدينتين».

- ألم تقرئها من قبل؟

- أبدأ؛ كنت دوماً أرى أن من شأن تشارلز ديكتر أن يكون معلاً.

- يا لهذه الفكرة!

- ولكنني أجدها ممتعة جداً.

- إلى أين وصلتِ فيها؟

ثم نظر من فوق كتبها وقرأ من الرواية: «ثم عدت المرأة الحائكة واحداً».

- إنني أراها امرأة مخيفة جداً.

- السيدة دوفارج؟ نعم، شخصية متقنة. مع أنني كنت أشك دوماً في قدرة المرأة على الاحتفاظ بسجل للأسماء عن طريق الحياكة. ولكنني لست حائكة بالطبع لأجزم بذلك.

قالت فكتوريا وهي تفكر في المسألة: أظن ذلك ممكناً. تقوم بغرزة عادية وغرزة معقوفة، ثم تقوم بغرزات مبتكرة، ثم غرزة خاطئة بين الحين والآخر، أو تغفل غرزات معينة، وكل غرزة تقوم مقام حرف أو اسم. نعم، يمكن القيام بذلك... وهي عملية تمويه بالطبع، بحيث يبدو الأمر وكأن الحائكة لا تتقن الحياكة وترتكب أخطاء فيها...

فجأة، وبالتماع حي كالتماع البرق، تمثل لذهنها أمران في وقت واحد وكان لهما تأثير الانفجار عليها: اسم... صورة ذهنية تذكرتها. الرجل بوشاحه الأحمر الخشن الذي حيك يدويًا، وقد

أطبق عليه يديه... الوشاح الذي سارعت لالتقاطه لاحقاً ودشّه في أحد الأدراج. ومع ذلك الاسم دوفارج. ليس لوفارج... بل دوفارج، السيدة دوفارج!

عادت إلى نفسها على صوت ريتشارد وهو يقول لها بلطف: أتوجد مشكلة؟

- لا... لا، لقد كنت أفكر فقط في شيء ما.

- فهمت.

فكرت فكتوريا في أنهم سيذهبون جميعاً إلى بغداد غداً. غداً ستنتهي فترة استراحتها، فلقد من أكثر من أسبوع نعتت فيه بالأمان والسلام والوقت الذي تستعيد به رباطة جأشها. وقد استمتعت بهذا الوقت... استمتعت به كثيراً. وخاطبت نفسها قائلة: «ربما كنتُ جبانة، نعم ربما كان ذلك هو السبب». كانت قد تحدثت عن المغامرات بفرح، ولكنها لم تحبها كثيراً عندما جاءتها. كرهت ذلك الصراع ضد الكلوروفورم، وذلك الاختناق البطيء، ولقد خافت كثيراً في تلك الغرفة العلوية عندما قال ذلك العربي: «بكرة».

وها هي الآن مضطرة للعودة إلى ذلك كله؛ لأنها كانت موظفة لدى السيد داكين وتتقاضى منه أجرًا، ولا بد لها أن تفعل ما يبرر ذلك الأجر وتظهر بمظهر شجاع! بل ربما كان عليها أن تعود حتى إلى «غصن الزيتون». ارتعدت قليلاً إذ تذكرت الدكتور رايتون ونظراته الغامضة الباحظة. لقد حذرها...

ولكن ربما لا يكون لزاماً عليها أن تعود إلى هناك. ربما قال

السيد داكين إن من الأفضل أن لا تعود، خاصة وقد عرفوا الآن بأمرها. ولكن سبتعين عليها العودة إلى مكان سكنائها لأخذ أمتعتها؛ لأن الوشاح الأحمر كان ملقى في حقيبتها دون اهتمام. كانت قد حشرت كل شيء في الحقائق عندما غادرت إلى البصرة، وبمجرد أن تسلم ذلك الوشاح إلى السيد داكين ربما تنتهي مهمتها، وربما قال لها كما يقولون في الأفلام: آه، عمل جيد يا فكتوريا!

رفعت بصرها لترى ريتشارد براقبها، ثم قال: بالنسبة، هل ستكونين قادرة على الحصول على جواز سفرك غداً؟

- جواز سفري؟

فكرت فكتوريا في الموقف. كان أمراً بالانم طبيعتها أنها لم تحدد - بعد - لحظة عملها فيما يخص وجودها ضمن البعثة الأثرية. وبما أن فيرونيا الحقيقية (أو فينيسيا) سوف تصل من إنكلترا قريباً فمن الضروري الانسحاب يهدوء، ولكن المشكلة التي لم تكن قد طرحت نفسها أمامها بعد هي إن كانت ستكتفي بالاختفاء ببساطة أو ستعترف بمكرها وتبدي الندم المطلوب، أم ستقرر أمراً آخر. كانت فكتوريا تميل دوماً إلى تبني موقف خلاصته أن أمراً ما سيستجد.

قالت كمن يكسب الوقت: حسناً، لست متأكدة من ذلك.

شرح لها قائلاً: إنه ضروري، لشرطة هذه المحافظة؛ فهم يسجلون رقمه واسمك وعمرك وعلاماتك الفارقة وغير ذلك من تلك التفاصيل، ولكن بما أننا لا نملك الجواز فإنني أرى أن علينا

إرسال اسمك وأوصافك لهم. وبالنسبة، ما هو اسم عائلتك؟ لقد كنت أناديك فكتوريا دوماً.

استجمعت فكتوريا قواها بشجاعة وقالت: هيا، لا تتذك! أنت تعرف اسم عائلتي كما أعرفه أنا.

- هذا ليس صحيحاً تماماً.

انثنت ابتسامته للأعلى لتعطي لشكله شيئاً من القسوة، ثم قال: أنا أعرف اسم عائلتك بالفعل، ولكنني أظن أنك أنت التي لا تعرفينه.

- إنني أعرف اسمي بالطبع.

- إذن سأتحداك أن تقول لي... الآن.

أصبح صوته فجأة قاسياً لأدعأ، وقال: لا فائدة من الكذب؛ لقد انتهت اللعبة، وقد كنت ذكية جداً فيها؛ فقد درست دروسك جيداً وأبدت ملاحظات توحى بالثقافة والعلم... ولكن هذا النوع من الانتحال لا يمكن الاستمرار فيه طوال الوقت. لقد نصبت لك مصائد، ووقعت فيها. لقد انقطعت لك مقاطع على أنها من كتب، وكانت هراء بحتاً، ولكنك تقبلها.

توقف قليلاً ثم أضاف: أنت لست فينيسيا سافيل. فمن أنت؟

- لقد قلت لك من أنا في أول مرة النيتك بها. أنا فكتوريا

جونز.

- ابنة أخ الدكتور باونسفوت جونز؟

ملك! ولكن ينبغي أن تعرفي أن القصة كانت تبدو مستهجنة جداً لأول وهلة.

- ولكنك مستعد لأن تراها ممكنة الآن، لماذا؟

قال ريتشارد بيطه: لأنك إن كنت متورطة -كما تقولين- بحادث مقتل كارمايكل... فربما كانت القصة صحيحة.

- من هناك بدأ الأمر كله.

- من الأفضل أن تخبريني بالقصة كلها

نظرت فكتوريا إليه بامعان ثم قالت: إنني أتساءل إن كان يوسعي الوثوق بك.

- سبحانه من يقلب الأحوال رأساً على عقب! هل تدرकिन بأن شكوكاً قوية كانت تراودني بأنك زرعت نفسك هنا باسم مستعار لتحصلي على معلومات مني أنا؟ وربما كان هذا فعلاً ما فعلته.

- أعني أنك تعرف شيئاً عن كارمايكل يودون هم لو يعرفونه؟

- من هم بالضبط هؤلاء الـ «هم»؟

قالت: سأضطر لإخبارك كل شيء؛ إذ لا توجد أي طريقة أخرى. وإن كنت واحداً منهم فأنت تعرف ذلك أصلاً. ولذلك لا بهم.

ثم أخبرته بما حدث ليلة مقتل كارمايكل، وبمقابلتها لداكين،

- لست ابنة أخيه... ولكن اسم عائلتي جوتز بالفعل.

- لقد قلت لي أشياء كثيرة أخرى.

- نعم. قلت. وكانت كلها صحيحة! ولكنني رأيت أنك لم تصدقها، وقد أثار ذلك جنوني؛ فرغم أنني أكذب أحياناً (هل في أغلب الأحيان في الواقع) إلا أن ما أخبرتك به لم يكن كذباً. وهكذا، ولكي أجعل نفسي مقنعة أكثر قلت لك إن اسمي هو باونسفوت جوتز... ولقد قلت ذلك من قبل في هذا البلد وكان وقعه ممتازاً. من أين لي أن أعرف أنك كنت قادماً إلى هذا المكان؟

- لا بد أنها كانت صدمة كبيرة لك عندما علمت بذلك، ولكنك تلقيت الأمر بشكل رائع... بيرود كيرود الثلج.

- ليس من الداخل؛ فقد كنت أرتجف تماماً. ولكنني رأيت أن أنتظر لأشرح الأمر... ففي كل الأحوال سأكون في مأمن هنا.

- في مأمن؟

فكر في الكلمة لحظة ثم قال: اسمعيني يا فكتوريا، أكانت صحيحة تلك القصة الخرافية السخيفة التي رويتها حول تخديرك بالكلووروفورم؟

- بالطبع كانت صحيحة! ألا يمكنك أن ترى، لو أردتُ تلقيق قصة للثقت قصة أكثر إقناعاً بكثير، ولقلتها بشكل أفضل أيضاً!

- بعد ازدياد معرفتي بك قليلاً الآن يمكنكني أن أصدق ذلك

ورحلتها إلى البصرة، وتوظيفها في «عصن الزينون»، والدكتور راثنون وتحذيره لها، والخاتمة التي جرت لها، بما في ذلك لغز شعرها المصبوغ. الأمران الوحيدان اللذان استبقتهما لنفسهما هما الوشاح الأحمر ومدام دوفارج.

توقف ريتشارد عند نقطة الدكتور راثنون قائلاً: الدكتور راثنون؟ أنظنين أنه متورط في هذا الأمر أو يقف خلفه؟ ولكن يا عزيزتي، إنه رجل مرموق بالغ الأهمية. إنه معروف في كل أنحاء العالم وتنصب عليه التبرعات من كل مكان لدعم مشروعاته.

سألته فكتوريا: أليس بحاجة ليكون كل ذلك الذي ذكرته حتى ينجح في أمر كهذا؟

قال ريتشارد متأملاً: لقد كنتُ اعتبره دوماً حماراً متبجحاً.

- وهذا - أيضاً - غطاء وتمويه ممتاز.

- نعم... نعم، أظنه كذلك. ومن هذا لوفارج الذي سألتني عنه؟

- مجرد اسم آخر... ويوجد اسم آخر أيضاً: آنا شيل.

- آنا شيل؟ لا، لم أسمع بها أبداً.

- إنها مهمة، ولكنني لا أعلم بالضبط كيف ولماذا؟ الأمر كله مختلط معقد.

- أخبريني فقط مرة أخرى، من هو الرجل الذي وضعك على هذا الطريق كله؟

- إدوا... آه، تعني السيد داكين. أظنه يعمل في قطاع النفط.

- أهو رجل متعجب محني الظهر يبدو فارغاً؟

- نعم، ولكنه ليس حقاً كذلك... أعني ليس فارغاً.

استند ريتشارد إلى الخلف في جلسته ونظر إليها وقال: هل ما أراه حقيقي؟ هل أنت حقيقية؟ وهل أنت البطلة الملاحقة أم المغامرة الشريرة؟

قالت فكتوريا بأسلوب عملي: النقطة الأساسية هي: ماذا ستقول للدكتور باونسفوت جونز عني؟

- لا شيء! لن يكون ذلك ضرورياً.



فكتوريا، وربما كان إدوارد قد امتنع عن إبلاغ الشرطة بناء على نصيحة من السيد داكين. سألت فكتوريا: أعرف إن كان السيد داكين في بغداد يا ماركوس؟

- السيد داكين؟ آه، نعم، شخص لطيف جداً... وهو صديق لك بالطبع. كان هنا بالأمس... لا، أول أمس. والكابتن كروسي أيضاً. أتعرّفه؟ إنه صديق السيد داكين. سيصل اليوم من كرمناش.

- أتعرف أين مكتب السيد داكين؟

- أعرف بالتأكيد. الجميع يعرفون شركة النفط العراقية الإيرانية.

- أريد الذهاب إلى هناك الآن بسيارة أجرة، ولكنني أريد التأكد من معرفة السائق للمكان.

قال ماركوس متلفظاً: "سأدّله بنفسِي"، ثم صحبها إلى رأس الزقاق وصاح بكل قوة على عاتقه، ففرع إليه خادم أجفأته الصيحة، وطلب منه ماركوس إحضار سيارة أجرة. ثم رافقها ماركوس إلى السيارة فتكلم مع السائق، ثم عاد خطوة إلى الوراء ملوحاً بيده فقالت له فكتوريا: كما أنني أريد غرفة، فهل هذا ممكن؟

- نعم، نعم؛ سأعطيك غرفة رائعة، وسأطلب لك الليلة قطعة اللحم الضخمة، وعندي بعض الكافيار الخاص جداً.

- ممتاز. آه يا ماركوس، هل لك أن تقرضني بعض المال؟

- بالطبع يا عزيزتي. ها هو المال، اخذي كل ما تريدين.

الفصل الحادي والعشرون

انطلقوا إلى بغداد مبكرين. وكانت معنويات فكتوريا منخفضة على نحو غريب، بل إنها أحسّت بغصة في حلقها وهي تأنثت إلى مقر البعثة، ولكن ما سبّب الارتجاج العنيف المجنون للشاحنة من عدم ارتياح والم ساعد في صرف ذهنها عن كل ما عدا هذا الألم الممض. بدا لها غريباً أن تستقل سيارة على هذا الطريق مرة أخرى، وهي تمر بقوافل الحمير وبالشاحنات التي يعلوها التراب، وقد انقضى ما يقرب من ثلاث ساعات قبل أن يصلوا إلى ضواحي بغداد. أنزلتهم الشاحنة في فندق تيو، وذهبت ومعها الطباخ والسائق للقيام بشراء الحاجات الضرورية، ووجد الدكتور باونسفوت جونز وريتشارد بيكر رزمة ضخمة من الرسائل بانتظارهما في الفندق.

ثم ظهر ماركوس ببنيته القوية ووجهه المستبشر فحيا فكتوريا بكل مرحه ووده المعهود قائلاً: آه، لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة، فأنت لا تأتيين إلى فندقتي. لماذا لا تأتيين لأسبوع أو أسبوعين؟ سوف تتغدين هنا اليوم، وسيكون لك كل ما تريدين من لحوم ودجاج.

بدا واضحاً أن أحداً في فندق تيو لم يلاحظ مسألة اختطاف

انطلقت السيارة بعد أن أطلقت بوقاً عالي الصوت، واستندت فكتوريا إلى ظهر مقعدها وهي تمسك برزمة من الأوراق النقدية والعملة المعدنية. وبعد خمس دقائق دخلت مكاتب شركة النفط العراقية الإيرانية وطلبت السيد داكين. وعندما أدخلوها إليه رفع بصره عن المكتب الذي كان يكتب عليه، ثم نهض وصافحها بأسلوب رسمي قائلاً: الأئمة... الأئمة جونز، اليس كذلك؟ أحضر لنا قهوة يا عبد الله.

وعندما أغلق الباب الكاتم للصوت خلف الموظف قال داكين بهدوء: ما كان ينبغي لك القدوم إلى هنا.

- لقد اضطررت إلى ذلك هذه المرة بسبب شيء لا بد لي من إبلاغك به على الفور... قيل أن يحدث لي المزيد.

- يحدث لك المزيد؟ هل حدث لك شيء؟

- ألا تعرف؟ ألم يخبرك إدوارد؟

- ما أعرفه هو أنك ما زلت تعملين في «غصن الزيتون». لم يخبرني أحد بشيء.

هتفت فكتوريا: كاثارين!

- عفواً، ماذا تعنين؟

- تلك اللبنة كاثارين! أراهن على أنها لفتت قصة أفتعت بها إدوارد، وصدّقها المغفل.

قال: "حسناً، دعينا نسمع القصة"، ثم مضت عيناها إلى شعر

فكتوريا وقال: اعذريني إن قلت ذلك، ولكنني أفضلك بشعرك الأحمر العادي.

- هذا ليس إلا جزءاً من المشكلة.

طرق الخادم الباب، ثم دخل بفنجانين صغيرين من القهوة الحلوة، وعندما ذهب قال داكين: والآن خذي كل وقتك وأخبريني بكل شيء! لا يمكن التنصت على كلامنا هنا.

انطلقت فكتوريا تروي قصة مغامراتها، وكعادتها عندما كانت تتحدث مع داكين، استطاعت الكلام بطريقة متماسكة وموجزة. ثم أنهت قصتها بذكر الوشاح الأحمر الذي أسقطه كارمايكل ورابطها بينه وبين السيدة دوفارج. بعد ذلك نظرت بلهفة إلى داكين.

كان داكين قد بدا لها -عندما دخلت- أكثر انحناءً وتعباً من المعتاد، أما الآن فقد رأت الشماعة الجديدة تبرق في عينيه. قال: ينبغي عليّ قراءة مجموعة روايات ديكنز من جديد.

- إذن فأنت ترى أنني على حق؟ أنظن أن الكلمة التي قالها هي دوفارج بالفعل... وأن رسالة ما قد حيكت على الوشاح؟

- أظن أن هذا هو أول إنجاز حقيقي نحققه... وأنت من يجب أن تشكره على ذلك، ولكن المهم هو الوشاح، أين هو؟

- مع أمتعتي، دسسته في أحد الأدراج في تلك الليلة... وأذكر أنني وضعت كل شيء في الحقائب دون ترتيب عندما حزم أمتعتي.

- ألم يحدث أن ذكرت لأحد، لأي أحد كائناً من كان، أن
الوشاح يعود لكأرمياكل؟

- لم أفعل لأنني نسيت أمره تماماً، وقد حشرته مع بعض
الثياب الأخرى في حقيبة عندما ذهبت إلى البصرة، حتى إنني لم
أفتح الحقيبة منذ ذلك الحين.

- إذن لا بد أن يكون هناك. حتى لو فتشوا أمتعتك فلن يولوا
اهتماماً لوشاح قذر قديم... إلا إن كانت لديهم معلومات عنه، وهو
أمر مستحيل فيما أرى. كل ما علينا فعله الآن هو جمع كل أمتعتك
وإرسالها لك في الد... هل لديك مكان تقيم فيه بالمناسبة؟

- لقد حجزت غرفة في فندق تيو.

أوما داكين برأسه وقال: هذا أفضل مكان لك.

- هل عليّ أن... هل تريدني أن أعود إلى «غصن الزيتون»؟

نظر إليها داكين بإمعان ثم قال: أنت خائفة؟

برز ذفن فكتوريا للأمام وقالت متحدية: كلا، سأذهب إن
رغبت بذلك.

- لا أظن ذلك ضرورياً... ولا حكيمياً. وكائناتاً ما كانت الطريقة
التي عرفوا بها بالأمر فإنني أفترض أن أحدهم انتبه لأنشطتك، ولن
تستطيعي - والحالة هذه - أن تحصلي على المزيد من المعلومات،
ولذلك من الأفضل أن تبقي بعيدة.

ثم ابتسم وأضاف: وإلا فلربما وجدت صبغة شعرك حمراء
قانية في المرة القادمة.

صاحت فكتوريا: هذا ما أريد معرفته أكثر من أي شيء آخر!
لماذا صبغوا شعري؟ لقد فكرت وفكرت ولم أجد تفسيراً لذلك،
فهل تستطيع تفسيره؟

- لا أجد إلا تفسيراً بشعاً واحداً، وهو أن جثتك سيصبغ
التعرف عليها.

- ولكن لو أرادوني جثة هامدة لماذا لم يقتلوني مباشرة؟

- هذا سؤال مهم جداً يا فكتوريا، وهو السؤال الذي أريد إجابة
له أكثر من أي سؤال آخر.

- أليست لديك أية فكرة عن السبب؟

قال داكين وهو يبتسم ابتسامة باهتة: ليس لدي أي مؤشر يدل
على السبب.

- على ذكر المؤشرات؟ هل تذكر قولتي إنني رأيت في السير
كروفتن لي شيئاً بدا لي غير طبيعي في ذلك الصباح في فندق تيو؟

- نعم؟

- أنت لم تعرفه شخصياً، أليس كذلك؟

- بلى؛ لم أكن قد قابلته من قبل.

- هذا ما خففته؛ ذلك أنه لم يكن السير روبرت كروفتن لي.

السهرات التي يقيمها في تاديه، وسيكون من السهل عليّ أن أدس ملاحظة لسكرتيه إدوارد، أما أنت فأذهبي للفندق وابقِ هناك واسمعي يا فكتوريا...

- نعم؟

- إذا ما وجدت نفسك في ورطة... مهما كان نوعها، فافعلي كل ما في وسعك لإنقاذ نفسك. إن أعداءك شديدي المراس، وأنت تعرفين الكثير مع الأسف، وبمجرد أن يصبح متاعك في فندق تيو تكون التزاماتك تجاهي قد انتهت. أرجو أن تفهمي ذلك.

WWW.LILAS.COM
CHASSEY

ثم انطلقت -من جديد- في سرد حيّ ابتداءً بالذمّة التي كانت على رقبة السير روبرت، وعندما أكملت قال داكين: هكذا تمت العملية إذن. لم أفهم أبداً كيف أمكن لكازاميكلي أن يكون مطعناً إلى الحد الذي يُقتل فيه في تلك الليلة. لقد وصل سالماً إلى كروفتن لي... وكروفتن لي هو الذي طعنه، ولكنه تمكن من الفرار، واندفع إلى غرفتك قبل أن ينهار، وظل متمسكاً بالوشاح... متمسكاً يائساً بالمعنى الحرفي للكلمة.

- أنظرن أنهم اختطفوني لأنني كنت قادمة لإبلاغك بذلك؟ ولكن أحداً لم يكن يعرف... باستثناء إدوارد.

- أظنهم شعروا بضرورة التخلص منك بسرعة. لقد بدأت تفهمين -بسرعة- الكثير ممّا يدور في «غصن الزيتون».

- لقد حفزني الدكتور رايتون، بل كان تحذيره أقرب إلى التهديد، وأظنه أدرك أنني لست كما أذعي.

قال داكين ببرود: ليس رايتون بالأحمق.

- أنا سعيدة لعدم اضطراري للعودة إلى هناك. لقد تظاهرت بالشجاعة قبل قليل... ولكنني مرعوبة جداً في الواقع. ولكن كيف يسعني الاتصال بإدوارد إن لم أذهب إلى هناك؟

ابسم داكين وقال: إن لم يكن بمقدورك الذهاب إلى النجيل فسنجعل الجبل يأتي إليك. اكتبي له ملاحظة الآن، قولي له -فقط- إنك في فندق تيو، واطلبي منه أن يجمع أمتعتك ويأتيك بها هناك. أنا ذاهب لاستشارة الدكتور رايتون هذا الصباح بخصوص إحدى

- أحقاً فقلت؟ أين تظنني كنت؟

- لقد أوصَلْتُ لي كاثرين رسالتك... قالت إنك أوصيتها أن
تبلغني بأنك سافرت إلى الموصل فجأة لأمر مهم جداً، وأنتي سألتني
منك رسالة فيما بعد.

قالت فكتوريا بصوت يكاد يوحى بالشققة: وأنت صدقت
ذلك؟

- ظننت أنك وجدت رأس غيط للغرما، ومن الطبيعي - في
هذه الحالة - أن لا تستطيعي قول الكثير لكاثرين.

- ولم يخطر لك أن كاثرين تكذب، وأنهم قد خدروني؟
حديق إدوارد وقال: ماذا؟!

- خدروني... بالكوروفورم، وأجاعوني.

نظر إدوارد حوله نظرة حادة وقال: يا إلهي! لم أحلم أبداً...
اسمعي، إنني لا أحب الكلام هنا، مع كل هذه التوافذ. ألا نستطيع
الصعود إلى غرفتك؟

- حسناً، هل أحضرت أمتعتي؟

- نعم، أودعتها لدى الحقال.

- لأن المرأة عندما لا يملك أن يغير ملابسه لمدة أسبوعين...

- فكتوريا، ما الذي كان يحدث؟ اسمعي... معي سيارة. دعيني
تذهب إلى مكان ما معاً؛ فنحن لم نجلس بمفردنا منذ قرون.

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن صَفَّتْ شعرها بكل عناية ووضعت المساحيق على
وجهها، جلست فكتوريا على شرفة فندق تيو للتعلم مرة أخرى
دور جوليت المعاصرة التي تنتظر روميو... وقد جاء روميو في نهاية
الأم، حيث ظهر على العشب أسفل منها ينظر هنا وهناك. نادته فرفع
بصره وقال: آه، ها أنت يا فكتوريا!

قالت: "اصعد إلى هنا". وبعد دقيقة وصل إلى الشرفة التي
كانت مهجورة. قالت فكتوريا: "هنا أكثر هدوءاً"، فيما كان إدوارد
ينظر إليها حائراً، ثم قال: هل فعلت شيئاً لشعرك يا فكتوريا؟

أطلقت فكتوريا زفرة غيط وقالت: إن ذكر لي أحد الشعر فإنني
أنظن أنني سأضربه على رأسه حقاً.

- لقد كنت أحب شعرك كما كان من قبل.

- قل ذلك لكاثرين!

- كاثرين؟ وما علاقتها بذلك؟ ثم أين كنت طوال هذه الفترة
يا فكتوريا؟ لقد فُلتُ عليك كثيراً.

- منذ أن كنا في بابل!

نزل الاثنان الدرج ركضاً وخرجا إلى حيث سيارة إدوارد. وقاد إدوارد السيارة في شارع عريض من شوارع بغداد متجهاً جنوباً، وراحت السيارة تهتز وتتمايل وهي تسير عبر جنائن نخيل وفوق جسور صغيرة بنيت فوق قنوات الري. وأخيراً وصلا إلى أيكة أشجار صغيرة تحيط بها الجداول، وكانت أشجار الأيكة (ومعظمها أشجار لوز ومشمش) قد أزهرت لثوها. كانت بقعة في غاية الجمال والهدوء، وعلى بعد قليل خلفها كان ينساب نهر دجلة.

خرجا من السيارة وسارا معاً بين الأشجار المزهرة. وقالت فكتوريا وهي تنهده بعمق: مكان رائع؛ كأن المرء في إنكلترا في الربيع!

كان الهواء رقيقاً دافئاً، وما لبث الاثنان أن جلسا على جذع شجرة ساقطة وفوق رأسيهما تتدلى البراعم الوردية. وقال إدوارد: والآن، أخبريني بما حدث معك؛ لقد كنت في غاية اليأس والتعاسة.

أخبرته بما جرى معها. أخبرته بأمر مصفوفة الشعر المزعومة، والكلوروفورم. وأخبرته عن استيقاظها مخدرة تعاني من الغثاس، وكيف هربت، وعن لقائهما العرضي بريتشارد بيكر، وكيف ادّعت أنها ابنة أخ الدكتور باونسفوت جونز وهي في طريقها إلى موقع الحفريات، وكيف استطاعت -بمعجزة- المحافظة على دورها كطالبة في علم الآثار وصلت من إنكلترا.

عند هذه النقطة صاح إدوارد ضاحكاً: أنت رائعة يا فكتوريا! بكل هذه الأمور التي تفكرين بها وتخترعينها

- أعرف ما تعنيه... أعمامي، الدكتور باونسفوت جونز، وقبله الأسقف.

وعند هذه النقطة تذكرت -فجأة- ما هو ذلك الشيء الذي أرادت سؤال إدوارد عنه في البصرة عندما قاطعتهما السيدة كلايتون ودعتهما لتناول الشاي. قالت: لقد أردت أن أسألك من قبل... كيف عرفت بأمر الأسقف؟

شعرت باليد التي تمسك بها تتصلب فجأة، ثم قال بسرعة... بل بسرعة كبيرة: أنت أخبرتي، أليس كذلك؟

نظرت إليه فكتوريا، وقد فكرت -فيما بعد- كم كان غريباً أن تحقق تلك الهوة الطفولية السخيفة ما حققته؛ ذلك أنه فوجئ تماماً. لم يكن لديه تفسير جاهز... وغدا وجهه -فجأة- عاجزاً دون قناع.

وفيما هي تنظر إليه تغيرت الأشياء كلها وأخذت مواقعها لتنتظم في نمط متجانس، ورأت الحقيقة. ربما لم يكن الأمر مفاجئاً فعلاً. ربما كان ذلك السؤال القاتل: "كيف عرف إدوارد بأمر الأسقف؟" يُلخّ ويتفاعل في عقلها الباطن، وربما كانت تقترّب ببطء من الجواب الوحيد والحققي: إن إدوارد لم يعلم بأمر أسقف لانغو منها، والشخص الوحيد الآخر الذي كان يمكن لإدوارد أن يعرف ذلك منه هو السيد أو السيدة كليب. ولكن لم يكن من الممكن أن يكون أي منهما قد شاهد إدوارد بعد وصولها إلى بغداد؛ لأن إدوارد كان

في البصرة في ذلك الحين، ولذلك لا بد أنه عرف ذلك منهما قبل مغادرته هو شخصياً إنكثراً. لا بد -إذن- أنه عرف طوال الوقت بأن فكتوريا قادمة معهم... وهذا يعني أن الصدفة الرائعة كلها لم تكن صدفة في نهاية الأمر، بل كانت مخططة ومقصودة.

وفيما هي تتحدث إلى وجه إدوارد الذي سقط عنه القناع عرفت -فجأة- ما الذي عناء كارمايكل بكلمة «الشيطان». عرفت ما الذي رآه في ذلك اليوم عندما نظر عبر النمر إلى حديقة القنصلية... لقد رأى ذلك الوجه الشاب الجميل الذي تنتظر هي إليه الآن!

لم يكن الدكتور رايتون هو الشرير... بل إدوارد! إدوارد، الذي يلعب دوراً ثانوياً، دور السكرتير، ولكنه يتحكم ويخطط ويوجه، ويستخدم رايتون رئيساً بالاسم فقط... ورايتون هو الذي حذرهما بأن تذهب قبل أن يفلت الأوان!

وفيما هي تنظر إلى ذلك الوجه الجميل الشرير تبحر كل ذلك الحب السخيف المراهق الصياني، وعرفت أن ما أحست به تجاه إدوارد لم يكن حياً أبداً، بل كان ذلك انبهاراً... كما أن إدوارد لم يحبها أبداً، فقد مارس سحره وألقه عن عمد. لقد التقطها في ذلك اليوم مستخدماً سحره بكل تلك السهولة والطبيعة بحيث وقعت في الخديعة دون مقاومة... لقد كانت مغفلة تماماً!

غريب كم يمكن لحقائق كثيرة أن تضيء فجأة في ذهن المرء في لحظة خاطفة! والمرء لا يضطر إلى إمعان التفكير لاستخراجها؛ فهي تأتي تلقائياً على شكل معرفة كاملة وفورية. وربما كان ذلك لأن المرء -في أعماقه- كان يعرف تلك الحقائق طوال الوقت.

وفي نفس الوقت فإن غريزة معينة من غرائز البقاء، سريعة كسرعة كل الملكات العقلية لفكتوريا، جعلتها تبقى على وجهها تعبير عجيب أبه غافلاً. ذلك أنها عرفت -غريزياً- أنها في خطر ماحق، وأن شيئاً واحداً فقط يمكن له أن ينقذها... ورقة واحدة تستطيع لعبها. وقد سارعت للعبها فقالت: لقد كنت تعرف طوال الوقت! كنت تعرف أنني قادمة إلى هنا، ولا بد أنك ربيت ذلك. آه يا إدوارد، أنت رائع!

أما وجهها، ذلك الوجه البلاستيكي الذي لا تعابير فيه، فقد أظهر عاطفة واحدة؛ عاطفة الوله الساذج. وقد رأت الاستجابة... رأت الانسجام التي تكاد تنشي بالآزراء، ورأت الارتياح أيضاً. وكادت أن تشعر بإدوارد وهو يقول لنفسه: "يا للمغفلة الصغيرة! من شأنها أن تصدق كل شيء! أستطيع أن أفعل بها ما أشاء".

قالت: ولكن كيف ربيت ذلك؟ لا بد أنك واسع النفوذ، لا بد أنك مختلف تماماً عما تتظاهر به.

رأت الكبرياء الذي أضاء وجهه. رأت النفوذ والقوة والفسوة، التي كانت مخيأة كلها تحت قناع الشاب المتواضع المحبوب. ثم قالت بسرعة ولهفة، وكلمة فنية أخيرة (مع أن أحداً لن يعرف أبداً كلفة هذه العبارة على كبرياتها): ولكنك تحبني بالفعل. أليس كذلك؟

كان الاحتقار في عينه الآن لا يكاد يخفى... (هذه المغفلة الصغيرة... كل هؤلاء النساء المغفلات! لا أسهل من جعلهن يعتقدن أنك تحبهن، وهذا هو كل ما يهمن؛ فكل ما يفعلنه هو التباكي طلباً

للحب! لقد كنَّ مثل الإمام وقد استخدَمْتَهُنَّ للوصول إلى غاياتك).
قال: طبعاً أحبك.

- ولكن ما معنى هذا كله؟ أخبرني يا إدوارد؟

- إنه عالم جديد يا فكتوريا! عالم جديد سينهض على أنقاض
العالم القديم ورماده.

- أخبرني عنه.

أخبرها، وكادت أن تنجرف رغماً عنها لتؤمن بالحلم:
الأشياء القديمة السيئة ينبغي أن يدمَّر بعضها بعضاً... الرجال العجائز
اللاهثون وراء مكاسبهم والذين يعيقون التقدم، والشيوخ عيون الأغبياء
المتعصبين الذين يحاولون بناء جتتهم الماركسية... ينبغي أن تقع
حرب شاملة وأن يحدث دمار شامل، وعددها، العقبة الصغيرة
المختارة من الإداريين والشباب (من أمثال إدوارد) سيتقدمون
ويتولون زمام الموقف، كان ذلك جنوناً... ولكنه كان أمراً يمكن أن
يتحقق في عالم تميز وتفكك.

قالت فكتوريا: ولكن فكَّر في كل الناس الذين سيقتلون قبل
ذلك.

- أنت لا تذكرين يا فكتوريا... هذا لا يهم.

لا يهم... تلك كانت عقيدة إدوارد! أما هي فرأت أن ذلك
كله يهم... كل الأنوف المؤلفة من الناس البسطاء العاديين على هذه
الأرض، المنشغلين بمشاغلهم الخاصة، يُشثنون عائلات ويضحكون

ويبكون، ويتهشون في الصباح ويأوون إلى فرشهم في الليل، أولئك
هم الناس الذين يهمون، وليس هؤلاء الأشرار!

وبكل حذر قالت فكتوريا وهي تتلمس طريقها (إذ كانت تعلم
أن الموت هنا قد يكون قريباً جداً): أنت رائع حقاً يا إدوارد. ولكن
ماذا عني أنا؟ ما الذي أستطيع فعله؟

- أتريدين... المساعدة؟ أنؤمنين بقضيتنا؟

ولكنها كانت عاقلة، لا يليق الانقلاب المفاجيء؛ سوف يبدو
مبالغاً. ولذلك قالت: أظنني أؤمن بك أنت فقط، وكل ما تطلبه أنت
مني يا إدوارد سأفعله!

- أنت فتاة عظيمة.

- لماذا خططت لقدومي إلى هنا بداية؟ لا بد من وجود
هدف.

- يوجد هدف بالطبع. هل تذكرين أنني صورتك يومها؟

قالت: نعم، أذكر (وفكرت فائلة لنفسها: يا لك من غيبة،
لَكَمْ زهوت بذلك، وكيف اِشْتَمِتَ عجباً!).

- لقد أثار انتباهي الشكل الجانبي لوجهك وشبهك بإحدى
النساء، فأخذت تلك الصورة بغية التأكد.

- من التي أشبهها؟

- امرأة تسبب لنا الكثير من المتاعب... أنا شيل.

شيل لكان في ذلك نهايتي" ثم قالت: من هي أنا شيل حقاً؟

- إنها السكيتيرة الخاصة للمصري الأمريكي والدولي أوتو مورغانثال، ولكن ليست هكذا فحسب، إن لديها عقلاً مالياً شديداً التميز والذكاء، ولدينا من الأسباب ما يدعونا للاعتقاد بأنها استطاعت تتبع الكثير من عملياتنا المالية. لقد كان يوجد ثلاثة أشخاص خطيرين علينا: كروفتن لي، وكارمايكل... وكلاهما تمت إزاحتهما. وبقيت أنا شيل. وسوف تصل إلى بغداد في غضون ثلاثة أيام، ولكنها -في هذه الأثناء- اختفت تماماً.

- اختفت؟ أين؟

- في لندن، والواضح أنها تخرت عن وجه الأرض.

- ألا يعرف أحد أين هي؟

- ربما كان داكين يعرف.

ولكن داكين لم يكن يعرف. كانت فكتوريا تعلم ذلك، مع أن إدوارد لا يعلم... أين كانت أنا شيل إذن؟ سألتها: أليست لديكم حقاً أية فكرة؟

قال إدوارد ببطء: لدينا فكرة.

- وما هي؟

- من بالغ الأهمية أن تكون أنا شيل هنا في بغداد لحضور المؤتمر، وهو سيعقد -كما تعلمين- بعد خمسة أيام.

نظرت فكتوريا إليه بدهشة وعدم استيعاب؛ فقد توقعت كل شيء إلا هذا. قالت: أعني... أنها تشبهني أنا؟

- تشبهك شيئاً بالغاً من الجانب؛ فملامحك من تلك الجهة تكاد تكون واحدة تماماً، وأنما متشابهتان في الطول والبنية، وإن تكن تكبرك بخمس سنوات تقريباً، الفارق الحقيقي في الشعر؛ فأنت ذات شعر أسود ضارب للحمرة، وهي شقراء، وطريقة تصفيف شعرك مختلفة تماماً. كما أن عييك أشد زرقة، ولكن ذلك لا يهم عند استعمال النظارات الملونة.

- ولهذا أردت إحضاري إلى بغداد؟ لأنني أشبهها.

- نعم؛ فقد رأيت أن الشبه يمكن أن... يفيدنا.

- وهكذا رتبتي الأمر كله. والزوجان كليب... من هما؟

- ليسا مهمين؛ إنهما يعلان ما يُطلب منهما وحسب.

شيء ما في نبرة إدوارد جعل فكتوريا ترتعد من أعماقها، ولكنها قالت متظاهرة بالهدوء: لقد قلت لي إن أنا شيل كانت هي المسؤولة، هي ملكة التحل في مشروعاتكم، أليس كذلك؟

- اضطرت لأن أقول لك شيئاً ما لتضليلك عما كنت تسعين إليه؛ إذ كنت قد عرفت أكثر مما ينبغي.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: "ولو صادف أنني لم أكن أشبه أنا

- بهذه السرعة؟ لم أعرف ذلك.

- لقد ضربنا طوقاً حول كل مدخل من مداخل هذا البلد. من المؤكد أنها لن تأتي إلى هنا باسمها الحقيقي، ولن تأتي على متن طائرة حكومية عادية، فلدنيا وسائلنا في التحقق من تلك الرحلات. ولذلك دققنا في كل الحجوزات الخاصة. يوجد مقعد محجوز على متن إحدى خطوط الطيران باسم غريت هاردن، وقد تتبعنا أمر هذه المرأة فلم نجد أحداً بهذا الاسم، فهو اسم مستعار إذن... كما أن العنوان الذي تم تقديمه وهمي لا وجود له. إننا نرى أن غريت هاردن هي آنا شيل.

ثم أضاف قائلاً: ستبهط طائرتهما في دمشق بعد غد.

- وعندها؟

نظر إدوارد إليها فجأة وقال: هنا يأتي دورك يا فكتوريا.

- دوري؟

- سوف تأخذين مكانها.

قالت فكتوريا ببطء: كما حدث للسير روبرت كروفتن لي؟

كانت جملتها تلك أقرب إلى الهمس، فبعد عملية الاستدال تلك مات السير روبرت. وعندما تأخذ فكتوريا مكان آنا شيل أو غريت هاردن... فإن الأخيرة ستموت.

وكان إدوارد ينتظر. لو شك للحظة واحدة في صدقها وولائها

فإنها هي التي ستموت... وستموت دون إمكانية تحذير أحد. لا، ينبغي أن توافق ثم نتغنى فرصة لتبلغ السيد داكين بذلك.

سحبت نفساً عميقاً وقالت: إنني... إنني... آه، لا أستطيع القيام بذلك يا إدوارد. سوف يكتشفون أمرى؟ فليس بوسعي تقليد اللهجة الأمريكية.

- ليس آنا شيل للهجة محددة تميزها. وعلى كل حال سوف تكونين مصابة بالتهاب الحنجرة، وسيشهد على ذلك واحد من أفضل الأطباء في هذا الجزء من العالم.

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها: إن لديهم أنباعاً في كل مكان!

- تطيرين من دمشق إلى بغداد باعتبارك غريت هاردن، ثم تؤخذين فوراً إلى فراشك ولا يسمح لك طبيبتنا الشهير بمغادرة الفراش إلا عندما يحين وقت حضور المؤتمر. وهناك ستسبطين أمامهم الوثائق التي أحضرتها معك.

سألت فكتوريا: الوثائق الحقيقية؟

- كلا بالطبع؛ ستبديل بها نسخة من عندي.

- وماذا ستظهر الوثائق؟

ابتسم إدوارد وقال: تفاصيل مقنعة عن أكبر وأخطر مؤامرة شيوعية في أمريكا.

قالت فكتوريا لنفسها: "يا لدقة تخطيطهم للأمر!"، ثم قالت لإدوارد: أظن أن بوسعي أن أنجو بفعلتي هذه يا إدوارد؟

كان من السهل تماماً عليها الآن - وهي تمثل دوراً - أن تطرح ذلك السؤال بكل مظهر من مظاهر الإخلاص المثلث. قال إدوارد: أنا واثق أنك قادرة على ذلك؛ لقد لاحظت أن تمثيلك للأدوار يبعث فيك متعة كبيرة بحيث يغدو من المستحيل تقريباً الشك فيك.

قالت فكتوريا متأملة: ما زلت أشعر بأنني مغفلة كبرى عندما أفكر بعائلة كليب.

ضحك بأسلوب فوقي. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها وجهها ما يزال قناعاً للولوة والتعلق: "ولكنك أنت أيضاً كنت مغفلة تماماً إذ وقعت بمثل تلك الهفوة الخاصة بأسقف لانغو، ولو لم تقع بها لما أمكنتي كشفك أبداً". قالت فجأة بصوت عالٍ: ماذا عن الدكتور رايبون؟

- ماذا تعنين بقولك؟

- هل هو مجرد رئيس صوري؟

أتحت شفتا إدوارد بشكل يوحي بالتسلي المتشفي القاسي وقال: رايبون مضطر للإدعان لما نريد. أتعلمين ما الذي كان يفعله طوال هذه السنين؟ كان يستغل - بذلك - ثلاثة أرباع الثبرعات التي تنصب على مؤسته من جميع أنحاء العالم ويحولها لمصلحته الخاصة. نعم، إن رايبون في جيبنا تماماً... نستطيع كشفه في أي وقت، وهو يعرف ذلك جيداً.

شعرت فكتوريا بامتنان مفاجئ للرجل العجوز ذي الرأس المقبب والتفسيه المادية. ربما كان محتالاً، ولكن الشفقة عرفت

طريقها إلى قلبه... وقد حاول أن يدفعها للنجاة بنفسها في الوقت المناسب.

قال إدوارد: كل الأمور تجري باتجاه عالما الجديد.

فكرت قائلة لنفسها: إن إدوارد (الذي يبدو عاقلاً جداً) مجنون في الواقع؛ فالمرء يضاب بالجنون عندما يحاول وضع نفسه موضع الإله! لقد قبل دوماً إن التواضع فضيلة، وإنني أدرك الآن لماذا هي كذلك؛ فهو ما يبقى المرء عاقلاً وإنساناً.

نهض إدوارد وقال: آه لنا أن نذهب. يجب أن نوصلك إلى دمشق ونفذ خططنا هناك بعد غد.

نهضت فكتوريا محترسة، فبمجرد أن تعود إلى بغداد وإلى فندق تيو سيزول الخطير القريب الداهم الذي يمثله إدوارد الآن. كان دورها يقضي بأن تلعب دوراً مزدوجاً تستمر فيه بخداع إدوارد بتمثيل دور الولهانة الخاضعة، في نفس الوقت الذي تقاوم فيه خططه بالسر. قالت: أظن أن السيد داكين يعرف مكان أنا شيل؟ ربما استطعت معرفة ذلك منه. ربما صدرت عنه إشارة ما.

- هذا غير محتمل، وعلى كل حال فأنت لن تري داكين.

قالت فكتوريا كاذبة وقد داهمها شيء من الرعب: لقد أوصاني بأن أذهب لرؤيته هذا المساء، وسيرى الأمر غريباً إن لم أذهب.

- لا يهم ما يراه في هذه المرحلة. لقد وضعت خططنا، ولن يراك أحد في بغداد ثانية.

- ولكن كل أمتعتي في الفندق يا إدوارد! وقد حجزت غرفة.

(الوشاح... الوشاح الثمين).

- لن نحتاجي أمتعتك في المستقبل القريب. لقد جهزت لك ملابس تنتظرك، هيا.

صعدا إلى السيارة ثانية، وقالت فكتوريا لنفسها: "كان علي أن أعرف أن إدوارد ليس على تلك الدرجة من الغباء التي يسمح لي معها بأن أنصل بذاكين بعد أن كشفت أمره. صحيح أنه يظنني مغرمة به، وأظنه واثقاً من ذلك، ولكنه - رغم ذلك كله - ليس مستعداً للمجازفة". قالت له: ألن يتم البحث عني إن أنا... لم أظهر؟

- سنعني نحن بذلك، من الناحية الرسمية الظاهرية ستودعيني على الجسر وتسافرن لرؤية بعض الأصدقاء في الضفة الغربية.

- ومن الناحية الفعلية؟

- انتظري وسترين.

جلست فكتوريا صامتة فيما كانت السيارة تهتز فوق الطريق الوعر وتلتف حول بساتين نخيل وتجتاز جسور ري صغيرة. وتمتم إدوارد قائلاً: لوفارج... ليشنا نعرف ما الذي قصده كارمايكل بهذه الكلمة.

دق قلب فكتوريا انفعالاً وقالت: آه، لقد نسيت إبلاغك.

لا أدري إن كانت هذه المعلومة تعني شيئاً، ولكن أ. م. لوفارج جاء يوماً إلى موقع الحفريات في تل أسود.

- ماذا؟

كاد إدوارد أن يوقف السيارة في حمأة الانفعاله، ثم سألها: متى كان ذلك؟

- آه، منذ نحو أسبوع. قال إنه جاء من موقع حفريات ما في سوريا. أترأه أتى من موقع حفريات المسبو بارو؟

- هل جاء إليكم أيضاً رجلان باسم أندريه وجوفيت عندما كنت هناك؟

- نعم، وكان أحدهما يعاني من معدته.

- لقد كانا اثنين من رجالنا.

- ولماذا ذهبوا هناك؟ للبحث عني؟

- لا، فلم تكن عندي أي فكرة عن مكان وجودك، ولكن ريشاود بيكر كان في البصرة في نفس الوقت الذي كان كارمايكل فيها، وراودتنا فكرة بأن من الممكن أن يكون كارمايكل قد مرّر له شيئاً.

- لقد قال إن أمتعته قُتشت. هل وجد صاحبكم شيئاً؟

- لا... ولكن فكري ملياً يا فكتوريا: هل جاء ذلك الرجل لوفارج قبل الرجلين الآخرين أم بعدهما؟

ثم تمتع وهو يعود لأسلوبه العاطفي: "لا تخذليني يا حبيبي؛ أنت وحدك من يستطيع القيام بذلك". ثم أضاف قائلاً: "لا تخافي. أوراقتك على أفضل ما يكون ولن تجدي صعوبة عند الحدود السورية. اسمك الآن -بالمناسبة- هو الأخت ماري ديز أنغيز، ولدى الأخت تيريزا التي توافقت كل الوثائق، وهي المسؤولة الأولى والأخيرة عنك. أطيعي الأوامر بالله عليك...". ولأ فاني أذكر بك بصراحة، مستحلمين كل العواقب". ثم تراجع قليلاً ولوح لها بابتهاج، وانطلقت سيارة الرحلات.

أسندت فكتوريا ظهرها إلى ظهر المقعد المُنجد واستغرقت في تأملات للبدائل الممكنة أمامها. إن بإمكانها -لدى مرورهم في بغداد، أو عند الوصول إلى الحدود- أن تفتعل إشكالاً ما وتصبح طلباً للنجدة وتشرح للناس أنها قد اقتنبت رغباً عنها... وبإمكانها اختيار أكثر من طريقة للقيام باحتجاج مباشر. ولكن ماذا سيحقق ذلك؟ ربما نهاية فكتوريا جونز؛ فقد لاحظت أن الأخت تيريزا قد دست في كمها سدساً صغيراً آلياً يفي بالغرض.

إن أفضل خيار هو المضي قدماً في الأمور والإذعان للخطة... إن تأني إلى بغداد باعتبارها أنا شيل وتلعب دورها، لأنها إن فعلت ذلك فلن تكون لإدوارد سيطرة على لسانها أو تصرفاتها من بعد. إن استطاعت الاستمرار في إقناع إدوارد بأنها ستفعل كل ما يطلبه، فعندها ستأتي لحظة تنقف فيها مع وثائقها المزورة أمام المؤتمر... ولن يكون إدوارد هناك، ولن يستطيع أحد -وقتها- أن يمنعها من القول: أنا لست أنا شيل، وهذه الوثائق مزورة وكاذبة.

تعجبت من أن إدوارد لم يخش قيامها بذلك تماماً، ولكنها رأت أن الخلاء ميزة تعمي العقل على نحو غريب، كما توجد حقيقة يجب أخذها في الاعتبار؛ وهي أن إدوارد وزممرته مضطرون لاختراع أنا شيل إن أرادوا لمخبطهم النجاح، وإن لمن المستحيل أن يتمكنوا من العثور على فتاة تشبه أنا شيل مثلاً. نعم، لقد كانوا بحاجة إليها... وبهذا المعنى فإن فكتوريا جونز هي التي تسيطر عليهم وليس العكس.

زادت السيارة سرعتها عبر الجسر، وراقبت فكتوريا نهر دجلة بشوق إلى الماضي القريب.



www.lilas.com
Chassey

وقد وضعت مساحيق بشكل أشبه باليقع على وجهها، وكانت ترتدي ثياباً مرتبة قديمة. وكانت فرنسيتها مرتبطة ركيكة... وقد تعين من وقت لآخر إعادة السؤال عليها لنفهمه.

قبل للمسافرين الأربعة إن طائرة بغداد ستقلع عصراً، وإنهم سيؤخّذون الآن إلى فندق العباسيين للغداء وتبل قسط من الراحة. وقد كانت غريت هاردن تجلس على سريرها عندما سمعت طرّقاً على الباب. فتحت فوجدت شابة سمراء طويلة ترتدي الزي الرسمي لشركة الطيران. قالت: أنا أسفة جداً لإزعاجك يا آنسة هاردن. هل لك أن تأتي معي إلى مكتب شركة الطيران؟ لقد برزت مشكلة صغيرة حول بطاقتك. من هنا رجاء.

تبعث غريت هاردن مرشدتها في العمر، وعلى أحد الأبواب كانت لافتة كُتبت بخط ذهبي: «مكتب الطيران». وفتحت المضيفة الباب وأشارت لغريت هاردن بالدخول، وعندما دخلت أغلقت المضيفة الباب من الخارج ونزعت اللافتة عنه بسرعة.

وعندما تجاوزت غريت هاردن الباب قام رجلان (كانا يقفان خلفه) برمي قطعة قماش على رأسها. ثم دسا كمامة في فمها، وقام أحدهما برفع كمها وحققها بإبرة. وخلال دقائق قليلة ارتخى جسدها.

قال الطبيب الشاب بمرح: هذه الحفنة ستؤلى أمرها نحواً من ست ساعات في كل الأحوال. هيا أنتما الآنيتين، أكملنا عملكم.

أوماً برأسه باتجاه من يشاطرنه الغرفة، وهما راهبتان كانتا

الفصل الثالث والعشرون

هبطت طائرة «سكاي ماستر» الضخمة من السماء، وكانت عملية الهبوط ممتازة. ثم سارت يهدوء على طول المدرج، ثم ما لبثت أن توقفت في مكانها المحدد. وقد دُعي الركاب للنزول، وتم فصل أولئك الذاهبين إلى البصرة عن أولئك الذين سيستقلون طائرة تقلهم إلى بغداد. ومن بين هذه المجموعة الأخيرة كان أربعة أشخاص: رجل أعمال عراقي تبدو عليه مظاهر النعمة، وطبيب إنكليزي شاب، وامرأتان. وقد عبروا جميعاً نقاط التحقيق المختلفة.

جاءت -في البداية- امرأة سمراء ذات شعر أشعث لم يستطع وشاحها أن يلمه كله. ومضى التحقيق معها: السيدة باونسفوت جوتز؟ بريطانية؟ نعم... تريدان الالتحاق بزوجك؟ عنوانك في بغداد رجاء؟ ماذا تحملين من مال؟

بعد ذلك أخذت المرأة الأخرى مكان زميلتها: غريت هاردن؟ نعم... جنسيتك؟ دانمركية... جئت من لندن، سبب الزيارة؟ مدلكة في مستشفى؟ عنوانك في بغداد؟ ماذا لديك من مال؟

كانت غريت هاردن شابة نحيلة شقراء تضع نظارات سوداء،

تجلسان دون حراك عند النافذة. خرج الرجلان من الغرفة، وذعبت الكبرى من الراهبتين إلى غريت هاردن وبدأت تنزع الملابس عن جسدها المرتخي، أما الراهبة الشابة فقد بدأت تنزع زي الراهبانية وهي ترنعد قليلاً، وسرعان ما كانت غريت هاردن تتمدد بهدوء ووقار على السرير وقد ألبست ثياب الراهبات، فيما كانت الراهبة الصغرى ترندي الآن ثياب غريت هاردن.

حوّلت الراهبة الكبرى انتباهها الآن إلى شعر رفيقتها الكتاني. أخرجت من جيبتها صورة ونظرت إليها أمام المرأة ثم أخذت تمشط شعر رفيقتها وتصففه إلى الخلف ثم تجعله خصلات ملفقة نزولاً على العنق، ثم تراجعت خطوة وقالت بالفرنسية: مدعش كيف تغيرت. ضعي النظارات السوداء؛ فعيناك غامقتا الزرقة كثيراً. نعم؛ هذا رائع.

طُرق الباب طرقة خفيفة، ثم دخل الرجلان ثانية وهما بينسمان. قال أحدهما: إن غريت هاردن هي أنا شيل دون شك؛ فالأوراق بين أمتعتها، وهي مخبأة بكل عناية بين أوراق كتاب دانمركي حول التدليك الطبي. والآن يا آنسة هاردن...

ثم انحنى باحتفاء كاذب لفكتوريا وأكمل قائلاً: سوف تمنحينني شرف تناول الغذاء معك.

تبعته فكتوريا إلى خارج الغرفة، ثم عبّر الصالة. كانت المرأة للمسافرة الأخرى تحاول إرسال بركة عند مكتب الاستقبال. كانت تقول: لا، الاسم هو باونسفوت... الدكتور باونسفوت جونز. سأصل ليوم إلى فندق تيو. الرحلة جيدة.

نظرت إليها فكتوريا باهتمام مفاجئ. لا بد أن هذه هي زوجة الدكتور باونسفوت جونز وقد جاءت للالتحاق به. وكونها جاءت قبل أسبوع من موعدها لم يكن أمراً مفاجئاً أبداً لفكتوريا؛ إذ أن الدكتور باونسفوت قد شكها مراراً من تضييعه لرسائلها التي تتحدد وقت وصولها قائلاً إنه شبه متأكد من أن ذلك الموعد كان السادس والعشرين من الشهر!

لو أنها استطاعت فقط - بطريقة أو بأخرى - إرسال رسالة ما إلى ريتشارد بيكر عن طريق السيدة جونز...

قام الرجل الذي يرافقها - وكأنه يقرأ أفكارها - باقتيادها من مرفقها بعيداً عن مكتب الاستقبال قائلاً: لا أحاديث مع رفاق سفرك يا آنسة هاردن. لا نريد أن تلاحظ تلك المرأة الطيبة أنك تختلقين عن المرأة التي جاءت معها من لندن.

أخذها لتناول الغذاء في مطعم خارج الفندق، وعند عودتهما كانت السيدة باونسفوت جونز تنزل درج الفندق، وقد أومأت لفكتوريا دون أي ارتياب ونادت قائلة: أكنتما تلتزها؟ أنا خارجة الآن إلى السوق.

قالت فكتوريا لنفسها: "لو أستطيع دس شيء في أمتعتها..."، ولكنها لم تُثَرَّك بمفردتها لحظة واحدة.

غادرت طائرة بغداد في الساعة الثالثة من بعد الظهر. وكان مقعد السيدة باونسفوت جونز في مقدمة الطائرة تماماً، أما مقعد فكتوريا فكان في الخلف قرب الباب، ومقابلها - عبر الممر - جلس

الشاب الأشقر الذي كان سجنائها؛ ولذلك لم تكن لديها فرصة للوصول إلى المرأة الأخرى أو دس أي شيء في أممتها. ولم تكن الرحلة طويلة. وللمرة الثانية نظرت فكتوريا من الجو لترى الخطوط العامة لمدينة بغداد تحتها ودجلة يقسمها كأنه عرق من الذهب في إحدى الصخور.

هكذا رأتها منذ أقل من شهر مضى... وَلَكَمْ جرت أحداث كثيرة منذ ذلك الحين!

في غضون يومين اثنين سيلتقي هنا الرجلان اللذان يمثلان الأيديولوجيتين السائدتين في العالم لمناقشة المستقبل. وسيكون لها هي، فكتوريا جونز، دور تلعبه في ذلك.

* * *

قال ريتشارد بيكر: إنني قلق بشأن تلك الفتاة.

قال الدكتور باونسفوت جونز بإبهام: أية فتاة؟

- فكتوريا.

نظر الدكتور حوله وقال: فكتوريا؟ أين... آه، يا إلهي، لقد عدنا من دونها بالأمس.

- كنت أساءل إن كنت قد انتهت لذلك.

- إنه إهمال بالغ من طرفي. لقد كنت شديد الاهتمام بذلك

التفكير عن الحفريات في تل بمدار... ألم تعرف فكتوريا أين تجد الشاحنة؟

- لم تكن عودتها إلى هنا واردة أبداً... والحقيقة أنها ليست فينيسيا سافيل.

- ليست فينيسيا سافيل؟ يا له من أمر غريب! ولكن أحسبك قلت إن اسمها الأول هو فكتوريا.

- وهو كذلك بالفعل. ولكنها ليست عالمة أجناس، وهي لا تعرف إيميرسن. والحقيقة أن الأمر كله كان... سوء فهم.

قال الدكتور باونسفوت: "يا إلهي! يبدو ذلك غريباً جداً، ثم فكر قليلاً وقال: غريب جداً. إنني أرجو... هل أنا الملام في ذلك؟ أعلم أنني شارد الذهن بعض الشيء، أترانا استلمنا رسالة بالخطأ؟

قال ريتشارد بيكر وهو عابس لا يلقي بالاً لتأملات الدكتور: لا أستطيع فهم الأمر. يبدو أنها ذهبت في سيارة مع شاب ولم تعد. وفوق ذلك فإن أممتها كانت هناك ولم تكلف نفسها عناء فتحها. يبدو لي ذلك أمراً شديداً الغرابة... إذا ما أخذنا في الحسبان ورطة نقص الملابس التي كانت تعاني منها. كنت أحسبها ستحرص كل الحرص على ارتداء أفضل ما لديها. وقد اتفقتا على اللقاء هنا لتناول الغداء معاً... نعم، إنني لا أفهم الأمر أبداً. أرجو أن لا يكون قد أصابها مكروه.

قال الدكتور باونسفوت بارتياح: آه، ما كنت لأظن ذلك للحظة واحدة. سأبدأ غداً بالحفر في المرحلة ج. أظن أن تلك هي أفضل

فرصة لنا للعثور على مكتب السجلات. إن قطعة الطاولة تلك التي
عثرنا عليها تَعمِدُ بالكثير.

- لقد خطفوها مرة قبل ذلك، فما الذي يمنعهم من خطفها
ثانية؟

- هذا مستبعد جداً... مستبعد جداً. إن البلد مستقر جداً في
هذه الأيام. وأنت نفسك قلت ذلك.

- لو استطعتُ فقط تذكر اسم ذلك الرجل الذي يعمل في شركة
نפטية. أكان اسمه ديكون؟ داكين؟ شيء من هذا القبيل.

- لم أسمع باسم كهذا أبداً. أظن أنني سأبدل مصطفى
ومجموعته وأرسلهم إلى الزاوية الشمالية الشرقية، وعندها يمكننا
تمديد الخندق ط....

- هل تمنع كثيراً - يا سيدي - إن أنا عدتُ إلى بغداد غداً؟
منح الدكتور باونسفوت كامل انتباهه لزميله فجأة، وحدث إليه
وقال: غداً؟ ولكننا كنا هناك بالأمس.

- إنني قلق على تلك الفتاة... قلق حقاً.

- يا عزيزي ريتشارد، لم يخطر لي وجود شيء من هذا
النوع.

- أي نوع؟

- أنك قد تعلقت بها. هذه أسوأ نتائج وجود نساء في مواقع

الحفر... وخاصة الجميلات منهن! وهذه الفتاة (فكتوريا أو فينيسيا
أو كائناً ما كان اسمها) جميلة تماماً بالطبع. أعترف - يا ريتشارد - بأن
لك ذوقاً رائعاً. أمر غريب، فهي أول فتاة أعرف أنك تهتم بها.

قال ريتشارد وقد احمر وجهه وبدا أكثر تعالياً من عادته:
لا يوجد شيء من هذا القبيل. إنني فقط... قلق عليها. ينبغي أن أعود
إلى بغداد.

- حسناً، إن كنت ذاهباً غداً فيمكنك أن تحضر معك تلك
الحفارات؛ فقد نسبها ذلك السائق الأحمق



انطلق ريتشارد باتجاه بغداد في وقت مبكر من فجر اليوم
التالي، ثم ذهب مباشرة إلى فندق تير، وهناك علم أن فكتوريا لم
تعد للفندق. قال له ماركوس: لقد كان الترتيب أن تتناول عشاء خاصاً
معي، وقد حجزت لها غرفة رائعة. الأمر غريب، أليس كذلك؟

- هل ذهبت إلى الشرطة؟

- آه، لا يا عزيزي؛ لن يكون ذلك لطيفاً. ربما لا ترغب هي
بذلك... وأنا لا أرغب به بالتأكيد.

بعد قليل من التحري عثر ريتشارد على عنوان داكين وزاره في
مكتبه. لم تخنه ذاكرته فيما يخص الرجل. نظر إلى الجسد المنحني
والوجه المتردد والرعشة الخفيفة في اليدين. لم يكن هذا رجلاً جيداً!
اعتذر له عن إزعاجه وسأله إن كان قد رأى الأنسة فكتوريا جونز.

- لقد زارتني أول أمس.

- إنه يخلط بين التواريخ دوماً. ماذا عن فكتوريا جونز؟

- أيمكنك أن تعطيني عنوانها الحالي؟

عاد وجه ماركوس ليعبس وقال: لا، لم أسمع شيئاً عنها، وأنا غير مرتاح لذلك يا سيد بيكر. إنه أمر غير مريح. إنها فتاة شابة وجذيلة، وهي شديدة المرح والابتهاج.

- أمتعتها هناك، أما هي فليست هناك.

قال: "نعم، نعم. أظن أن من المفضل أن أنتظر لتحية السيدة باونسفوت جونز". وتساءل -في سُرّة- ما الذي يمكن أن يكون قد حصل لفكتوريا.

رفع السيد داكين حاجبيه قليلاً، فقال ريتشارد: لقد كانت تعمل معنا في التنقيب في تل أسود.

- آه، فهمت. أخشى أنني لا أعلم شيئاً قد يفيدك. أظن أن لها عدة أصدقاء في بغداد... ولكنني لا أعرفها جيداً بحيث أعرف من هم أصدقاؤها.

قالت فكتوريا بعدائية لا تخفيها: "أنت؟" ... فبعد أن وافقوها لعرفتها في فندق قصر بابل كان أول شخص تراه هو كاثرين. أومأت كاثرين برأسها بحقد مماثل وقالت: نعم، أنا. والآن إلى فراشك وجاء. سيصل الطبيب في الحال.

- أيمكن أن تكون في تلك المنظمة، "غصن الزيتون"؟

- لا أظن ذلك، ولكن يوسعك أن تسأل.

كانت كاثرين ترتدي زي ممرضة مستشفى وتأخذ واجباتها بجدية، ومن الواضح أنها مصممة على عدم ترك فكتوريا لحظة واحدة. تمتعت فكتوريا وهي تتمدد بائسة على السرير: لو استطعت الإمساك بإدوارد...

قال ريتشارد: "اسمعي... أنا لن أغادر بغداد حتى أجدّها"، ثم عبس في وجه السيد داكين وخرج من الغرفة. أما السيد داكين فما أن أغلق الباب حتى ابتسم وهزّ رأسه وتمتم بلهجة تأنيب: آه يا فكتوريا!

ولدى دخول ريتشارد إلى فندق تير استقبله ماركوس بشاشته المعتادة فصاح ريتشارد: أوقد عادت؟

قالت كاثرين بازدراء: إدوارد... إدوارد! إن إدوارد لم يهتم بك أبداً أينما الغيبة؛ فانا هي التي ينجحها!

- لا، لا، إنها السيدة باونسفوت جونز. سمعت لتوي أنها وصلت بالطائرة اليوم، وقد قال لي الدكتور باونسفوت جونز إنها قادمة في الأسبوع القادم.

نظرت فكتوريا دون حماسة إلى وجه كاثرين العنيد المتعصب، فيما مضت الأخيرة تقول: لقد كرهتُك دوماً، منذ ذلك الصباح الأول

الذي دخلت فيه وطلبت رؤية الدكتور رايتون بكل تلك الوقاحة.

قالت فكتوريا (وهي تبحث عن نقطة تثير بها غريمتها): أنا -على أية حال- أكثر منك أهمية بحيث لا يمكن الاستغناء عني. إن يوسع أية فتاة أن تقوم عنك بدور معرضة المستشفى، أما أنا فالأمر كله يعتمد على أدائي لدوري.

قالت كاثرين برضا عن الذات: ما من أحد لا يمكن الاستغناء عنه... هذا ما تعلمناه.

- ولكن أنا لا يمكن الاستغناء عني. بالله عليك اطلبي لي وجبة دسمة: فكيف تتوقعون مني -إن لم أأكل- أن أمثل دور سكرتيرة المصر في الأمريكي بشكل جيد عندما يحين الوقت؟

قالت كاثرين متذمرة: أحسب أن من الأفضل أن تأكلي طالما أن ذلك باستطاعتك الآن.

ولم تشبه فكتوريا للمغزى الشرير لذلك.

* * *

قال الكاتب كروسبي: فهمت أن لديكم نزيلة وصلت لثوها اسمها غريت هارون.

أوما الرجل الهادئ خلف مكتب الاستقبال في فندق قصر بابل وقال: نعم يا سيدي، لقد وصلت من إنكلترا.

- إنها صديقة أختي. هل لك أن ترسل لها بطاقتي الشخصية؟

ثم كتب بضع كلمات على بطاقته وأرسلها في مغلف إلى الطابق العلوي، وسرعان ما عاد الصبي الذي أخذها وقال: إن السيدة ليست على ما يرام يا سيدي. التهاب حاد في حنجرتها، والطبيب قادم حالاً. إن معها ممرضة مستشفى.

استدار كروسبي وعاد إلى فندق تيو حيث استقبله ماركوس قائلاً: أهلاً يا عزيزي. إن فندقي ممتلئ تماماً الليلة، وذلك بسبب المؤتمر. ولكن يا للأسف! لقد عاد الدكتور باونسفوت جونز إلى موقع تنقياته يوم أمس الأول، وها هي زوجته قد وصلت وكانت تتوقع وجوده في استقبالها، وهي متزعجة جداً لذلك! تقول إنها أخبرته بأنها ستأتي على هذه الطائرة. ولكنك تعرف طبيعته... إنه يخلط كل التواريخ والأزمنة.

ثم أنهى ماركوس سرده بسخائه المعتاد قائلاً: ولكنه رجل لطيف جداً، وقد اضطررتُ للعثور على غرفة لها بشق النفس... ورفضت استقبال رجل مهم من الأمم المتحدة.

- تبدو بغداد وقد جُثت تماماً.

- لقد نشروا كل الشرطة وهم يأخذون احتياطات كبيرة. هل سمعت ما يُقال؟ مؤامرة شيوعية لاغتيال الرئيس. وقد اعتقلوا خمسة وستين طالباً! هل رأيت رجال الشرطة الروس؟ إنهم يُبدون ارتياحاً بالجميع. ولكن هذا جيد جداً لأعمالنا... نعم، جيد جداً في الواقع.

* * *

رَنَ جرس الهاتف وجاء الجواب سريعاً: السفارة الأمريكية.

- معكم فندق قصر بابل، إن الأنسة أنا شيل تقيم هنا.

قال الصوت من السفارة: "أنا شيل؟" ... وسرعان ما جاء إلى الهاتف أحد الملقين في السفارة وقال للمتحدث: أيمكن أن نتكلم مع الأنسة شيل؟

- إن الأنسة شيل مريضة في فراشها تعاني من التهاب الحنجرة، معكم الدكتور سمبولروك، وأنا أشرف على حالة الأنسة شيل. إن لديها بعض الأوراق المهمة وتريد أن يأتي شخص مسؤول من السفارة لتعطيها له. الآن فوراً؟ شكراً لك، سأكون بانتظاركم.

* * *

التفت فكتوريا عن المرأة. كانت ترتدي بدلة جيدة التفصيل، وكل شعرة شقراء من شعرها صُففت بعناية في مكانها. كانت تشعر بالعصبية والارتباك، ولكن معانياتها كانت عالية. وعندما التفت رأت وميض فرح وانتصار في عيني كاثرين فاحتست فجأة لذلك. لماذا نفرح كاثرين على هذا النحو؟ ما الذي يجري؟

سألت: ما الذي يفرحك إلى هذا الحد؟

- سترين في الحال.

كان الحقد واضحاً جلياً الآن. وقالت كاثرين بازدراء: إنك تحسبين نفسك ذكية جداً وتظنين أن كل شيء يعتمد عليك. ها! لست سوى مغفلة.

وبفجرة كانت فكتوريا فوقها! أمسكت بها من كتفها وضغطت بأصابعها في لحمها قائلة: أخبريني ماذا تقصدين أينها الفتاة البغيضة.

- آخ... إنك تؤلميني.

- أخبريني...

جاءت طريقة على الباب. طريقة تكررت مرتين، ثم طريقة أخرى مفردة بعد قليل. وصاحت كاثرين: الآن سترين!

فُتح الباب ودخل الغرفة رجل طويل يرتدي زي الشرطة الدولية. أقفل الباب خلفه وأخذ المفتاح. ثم تقدم من كاثرين قائلاً: بسرعة.

أخرج حبلأً رفيعاً من جيبه وربط به كاثرين على الكرسي بكل تجاوب منها، ثم أخرج وشاحاً وربطه على فيها. ثم تراجع قليلاً وهز رأسه باستحسان وقال: نعم... سيكون هذا جيداً.

ثم التفت إلى فكتوريا، ورأت الهزأة الثقيلة التي كان يلوح بها، وبلحظة التمتع في ذهنها أبعاد الخطة الحقيقية. إنهم لم ينووا أبداً تركها لتمثل دور آنا شيل في المؤتمر؛ إذ كيف لهم أن يخوضوا مثل هذه المجازفة؟ لقد كانت فكتوريا معروفة بشكل جيد في بغداد. نعم، لقد كانت الخطة -من البداية- تقضي بأن تتم مهاجمة آنا شيل وقتلها في اللحظة الأخيرة... قتلها بطريقة لا يمكن معها تمييز ملامحها. ولن يبقى -بعدها- إلا الأوراق التي أحضرتها معها... تلك الأوراق المزورة بكل عناية.

استدارت فكتوريا باتجاه النافذة وصرخت بصوت خفقه الوشاح الملتف على وجهها، وتقدم الرجل منها وهو يتنسم. ثم حدثت عدة أمور... كان هناك صوت زجاج يتهشم... وجاءتها يد ثقيلة طرحتها أرضاً... ورأت نجوماً... ثم عتمة... ثم تكلم من قلب العتمة صوت، صوت إنكليزي مُعْظَمين.

- هل أنت بخير يا آنسة؟

تمنعت فكتوريا شيئاً ما.

سأل صوت آخر: ماذا قالت؟

حك الرجل الأول رأسه وقال بارتياح: قالت إن الخدمة في اللجنة أفضل من الحكم في النار.

قال الآخر: هذا قول مُتْعَطَف... ولكنها أخطأت فيه.

قالت فكتوريا: 'لا، لم أخطئ'، ثم أغمي عليها.

رَنَ جرس الهاتف فرفع داكين السماعة، وجاءه صوت يقول: تمت «العملية فكتوريا» بنجاح.

قال داكين: جيد.

- وقد قبضنا على كاثرين سركيس والطبيب، أما الرجل الآخر فقد رمى نفسه من الشرفة وهو مصاب إصابات بالغة.

- ألم تُصَب الفتاة؟

- لقد أغمي عليها... ولكنها بخير.

- ألم تأت أخبار بعد عن آ. ش. الحقيقي؟

- لا أخبار أبداً.

أعاد داكين السماعة، وفكر في أن فكتوريا بخير على أية حال. أما أنا نفسها فلا بد أنها قتلت. كانت قد أصرّت على التصرف بمفردها وأكدت أنها ستكون في بغداد في التاسع عشر من الشهر. واليوم هو التاسع عشر، وما من آنا شيل. ربما كانت محقة في عدم الثقة بالمؤسسة الرسمية... لم يكن يدري. كانت توجد -بالأكيد- نقاط تسرب للمعلومات... وخيانات. ولكن الواضح أن ملكاتها العقلية الطبيعية لم تساعدوا بشكل أفضل... ومن دون آنا شيل سيكون الدليل ناقصاً.

دخل عليه مراسل يحمل ورقة كتبت عليها: السيد ريتشارد بيكر والسيدة باونسفوت جونز، فقال للمراسل: لا أستطيع رؤية أحد الآن. قل لهما إنني آسف جداً، ولكنني مشغول.

انسحب المراسل، ثم ما لبث أن عاد وسلم داكين رسالة. موز داكين الغلاف وقرأ: 'أريد رؤيتك بشأن كارمايكل'.

قال داكين: أدخله.

دخل ريتشارد بيكر والسيدة باونسفوت جونز، وقال ريتشارد: لا أريد شغل وقتك، ولكنني كنت في المدرسة مع رجل يُدعى هنري كارمايكل. وقد افترقنا ولم يَرَ أيّ منا صاحبه لسنوات طويلة، ولكن عندما كنْتُ في البصرة منذ بضعة أسابيع قابلته في غرفة انتظار

الفتصلة. كان متكرراً بشباب عربية، وقد استطاع -دون أن يُدري أية إشارة لمعرفته لي- أن يتفاهم معي. هل بهمك هذا الموضوع؟
- يهمني جداً.

- تكونت لدي فكرة بأن كارمايكل كان يرى أنه في خطر. وسرعان ما تأكد ذلك؛ فقد هاجمه رجل بمسدس واستطعت أنا أن أضربه وأسقطه من يده. وقد سارع كارمايكل بالهرب، ولكنه دس في جيبه -قبل هربه- شيئاً وجدته فيما بعد. لم تبد فيه أية أهمية... بدا مجرد «ملاحظة»... مجرد إشارة إلى رجل يُدعى أحمد محمد. ولكنني تصرفت بناءً على افتراض يقول إن هذه الورقة كانت مهمة فعلاً بالنسبة لكارمايكل.

وبما أنه لم يعطيني أي تعليمات فقد احتفظت بها بكل حرص وعناية معتقداً أنه سيطلبها ذات يوم، وقد علمتُ قبل أيام من فكتوريا جونز بأنه قد مات، ووصلت -من أشياء أخرى قالتها لي- إلى نتيجة مفادها أن الشخص المناسب الذي يمكنني تسليمه هذه الرسالة هو أنت.

نهض ووضع ورقة فذرة عليها كتابة على مكتب داكين وقال:
هل يعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟

سحب داكين نفساً عميقاً وقال: "نعم... إنه يعني أكثر مما يمكنك تصوّره". ثم نهض وقال: أنا شديد الامتنان لك يا سيد بيكر، وأرجو أن تعذراني على قطع لقائنا هذا بمثل هذه السرعة، ولكن أمامي الكثير مما ينبغي عليّ متابعتها مما لا أستطيع معه تخصيص دقيقة واحدة.

ثم صافح السيدة باونسفوت قائلاً: أحسب أنك ستلتحقين بزوجك في موقع تنقيباته. أأمل أن تتمتعوا بموسم جيد.

قال ريتشارد: إنه لأمر جيد أن الدكتور باونسفوت جونز لم يأت معي إلى بغداد هذا الصباح. صحيح أن الدكتور العجوز لا يلاحظ الكثير مما يجري، ولكنه ربما لاحظ الفارق بين زوجته وبين أخت زوجته!

نظر داكين -بقليل من الدهشة- إلى السيدة باونسفوت جونز، فقالت بصوت منخفض عذب: إن أختي إلسي ما زالت في إنكلترا. لقد صيغت شعري باللون الأسود وسافرت بجواز سفرها. وقد كان اسم أختي قبل زواجها إلسي شيل، أما اسمي أنا -يا سيد داكين- فهو آنا شيل.

* * *

الدكتور بريك تقنية تماماً في مفرداتها؛ فلزّات معدنية تحتوي على نسبة عالية من اليورانيوم، ومصدر خزين اليورانيوم غير معروف بالضبط، إذ أن أوراق السير روبرت ومذكراته قد دُمرت خلال الحرب نتيجة عمليات العدو.

الفصل الرابع والعشرون

ثم تولى السيد داكين إكمال القصة، حيث قصّ - بصوت ناعم متعجب - ملحمة هنري كارمايكل، متحدثاً عن إيمانه ببعض الشائعات والقصص المستهجنة عن منشآت ضخمة ومختبرات تحت الأرض تعمل في وادٍ بعيد لم تصله المدنية. تحدّث عن بحث كارمايكل... وعن نجاحه في ذلك البحث، وتحدّث كيف وافق ذلك الرحالة العظيم، السير روبرت كروفطن لي، الرجل الذي صدّق كارمايكل بسبب ما يعرفه هو شخصياً عن تلك المناطق... كيف وافق على القدوم إلى بغداد، وكيف مات، ثم كيف لاقى كارمايكل حتفه هو الآخر على يد من انتحل شخصية السير روبرت.

ثم مضى السيد داكين قائلاً: لقد مات السير روبرت، ومات هنري كارمايكل. ولكن شاهداً ثالثاً ما يزال حياً، وهو هنا اليوم. وإنني أدعو الأتسة آنا شيل لتقدم لنا شهادتها.

قامت آنا شيل هادئة رابطة الجاش (كما لو كانت في مكتب السيد مورغانثال) فأعطت الحضور قوائم من الأسماء والأرقام، ومن أعماق عقلها المالي المبدع حددت للحضور الخطوط العامة للشبكة المالية الضخمة التي كانت تمتص الأموال من التداول وتغذيها على تمويل أنشطة من شأنها أن تقسم العالم المتحضّر إلى طائفتين متنازعتين. لم يكن ذلك مجرد دعوى؛ فقد أبرزت حقائق

لقد تحولت بغداد أليماً تحول؛ فقد ملأ الشرطة كل الشوارع، وكانت الشائعات تنتشر طوال الوقت. قيل إن آياً من زعميي الكتلتين العظيمين لن يأتي، وقيل إن الطائرة الروسية هبطت مرتين محفوفة بالمرافقة الرسمية، ثم ثبت أنها لا تحتوي إلا على طيار روسي شاب؛ ثم انتشر - أخيراً - خبرٌ يقول إن كل الأمور على ما يرام؛ ف رئيساً الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا موجودان هنا، في بغداد، وفي أحد قصورها تحديداً.

وأخيراً بدأ المؤتمر التاريخي. وفي غرفة داخلية صغيرة كانت تجري أحداثاً معينة ربما كان من شأنها أن تغير مجرى التاريخ. وكلّ الأحداث ذات الأهمية البالغة، لم تكن مجريات ما يحدث في الغرفة درامية مؤثرة أبداً.

قدّم الدكتور ألان بريك (من معهد هارويل الذري) نصيبه من المعلومات بصوت منخفض دقيق: كان الراحل السير روبرت كروفطن لي قد ترك معه بعض العينات لأغراض التحليل، وكان السير روبرت قد حصل على تلك العينات خلال إحدى رحلاته في الصين، ثم تركستان، ثم كردستان وصولاً إلى العراق. بعد ذلك أصبحت شهادة

وأرقاماً لتدعم طرحها. وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يصغون إليها فإنها كانت تملك من الإقناع ما لم تستطع قصة كارمايكل المستهجنة أن تثير فيهم.

ثم تحدث داكين ثانية فقال: لقد مات هنري كارمايكل، ولكنه أحضر معه من رحلته الخطيرة أدلة ملموسة وأكيدة. وهو لم يجرؤ على الاحتفاظ بتلك الأدلة معه؛ فقد كان أعداؤه يلاحقونه عن كثب، ولكنه كان رجلاً ذا صداقات عديدة. وعن طريق اثنين من هؤلاء الأصدقاء أرسل الأدلة إلى جريج أمين لدى صديق ثالث له... وهو رجل يحترمه العراقي كله ويقدره. وقد تلطف هذا الصديق ووافق على الحضور إلى هنا اليوم. وإني أشير بذلك إلى الشيخ حسين الزيارة، من مدينة كربلاء.

كان الشيخ حسين الزيارة مشهوراً - كما قال داكين - في كل أنحاء العراق كعالم كبير، وقد وقف الآن بقامته المهيبة ولحيته المحنطة باللون البني الغامق، وكانت سترته الرمادية مطرزة الحواف بلون ذهبي تغطيها عباءة بنية رقيقة هفافة مما يعطيها مظهراً مهيباً. وتكلم بصوت عميق رنان فقال: لقد كان هنري كارمايكل صديقاً لي، وقد عرفته طفلاً ودرس معي شعر شعرائنا العظام. وقد جاء رجلاً إلى كربلاء ممن يسافرون ومعهم صندوق العجائب يعرضون به الصور. وهما رجلاً بسيطان، ولكنهما صادقان متدينان. وقد أحضرا لي رزمة قالا إن صديقاً لي اسمه كارمايكل الإنكليزي قد طلب منهما تسليمها إلي شخصياً، وقد أوصى أن أحفظ بها سراً في مكان آمن وأن لا أسلمها إلا له نفسه، أو لأخي رسول يقوم بترديد كلمات معينة. فإن كنت أنت حقاً الرسول فتكلم يا بني.

قال داكين: أيها السيد، إن الشاعر العربي المتنبي، الذي عاش قبل ألف سنة، كتب قصيدة للأمير سيف الدولة في حلب. وقد وردت في القصيدة الكلمات التالية: «زُدْ، هُشْ، بُشْ، تَفْضُلْ، أَدُنْ، مُرَّ، صِلْ».

وبإتسامة منه مد الشيخ حسين الزيارة يده برزمة إلى داكين وقال: وإني أقول كما قال الأمير سيف الدولة: «لُك ما أُرِدْت».

قال داكين: أيها السادة، هذه أفلام جلبها هنري كارمايكل معه تأييداً لقصته.

ساد الصمت للحظات، ثم انبرى صوت رفيع رسمي يحمل كل حيادية البيروقراطية وبرودها فقال: سوف توضع هذه الحقائق أمام رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والسكرتير الأول لجمهوريات الاتحاد السوفيتي الاشتراكية.



- نعم؛ حيلة بسيطة... ولكنها فعالة. وقد اعتمدتها آنا شيل بناء على افتراض يقول إن الناس الوحيدين الذين يمكن أن يكونوا موضع ثقة في أوقات الأزمات هم أفراد عائلة المراء. إنها شابة بالغة الذكاء.

- لقد ظننت أنني انتهيت. هل كان رجالكم بحرموني عن بعد حقاً؟

- طوال الوقت. إن صاحبك إدوارد لم يكن أبداً على ذلك القدر من الذكاء كما كان يعتقد، وقد كنا نحري عن أنشطته منذ بعض الوقت، وعندما قلت لي قصتك في الليلة التي قُتل بها كارمايكل كنتُ -بصراحة- قلقاً جداً عليك، ولذلك كان أفضل تصرف يمكنني التفكير فيه هو إرسالك عمداً إلى تلك المنظمة كجاسوسة. فإن عرف صاحبك إدوارد أنك على اتصال معي فذلك يعني أنك ستكونين بأمان إلى حد بعيد، لأنه سيعرف عن طريقك ما تفكر فيه ونعزمه، وستكونين آمنة بالنسبة له من أن يعتمد لقتلك، كما أن بوسعه أن يجر لنا معلومات مزورة عن طريقك. لقد كنت صلة وصل، ولكن عندما اكتشفت مسألة انتحال شخصية السير روبرت كروفتن لي، قرر إدوارد أن من الأفضل إبعادك حتى موعد الحاجة إليك للقيام بدور آنا شيل (هذا إن وجدوا حاجة لذلك). نعم يا فكتوريا، أنت -حقاً- محظوظة جداً جداً لتجوسك هنا معي الآن لتلتهمين كل هذا الكم من الفسق.

- أعرف بأنني محظوظة.

قال دافين: إلى أي مدى أنت مهتمة... بإدوارد؟

الفصل الخامس والعشرون

قالت فكتوريا: إن ما يزعجني هو تلك الدانماركية المسكينة التي قُتل خطأ في دمشق.

أجابها السيد دافين بمرح: أه! إنها بخير، فبمجرد أن أقبلت طائرتك قمنا باعتقال المرأة الفرنسية، وأخذنا غريت هاردن إلى المستشفى، وقد استعادت وعيها تماماً. كانوا ينوون تركها مخدرة لبعض الوقت ريثما يتأكدون من أن قضية بغداد قد سارت على ما يرام... وقد كانت -بالطبع- واحدة ممن يعملون معنا.

- حقاً؟

- نعم، فعندما اختفت آنا شيل رأينا أن من الأفضل أن تشغل الطرف الآخر عنها بمصيدة. وهكذا حجزنا تذكرة لغريت هاردن وحرصنا على عدم وجود أصل لاسمها وعنوانها، وقد تُدعوا بذلك وقفروا إلى نتيجة مفادها أن غريت هاردن هي آنا شيل دون شك. وقد أعطيناها مجموعة رائعة من الأوراق المزورة لإثبات ذلك.

- بينما بقيت آنا شيل الحقيقية في المصحة حتى جاء الوقت الذي ينبغي فيه على السيدة بانسونفوت جونز أن تلتحق بزوجها.

الجوّالان يعرضهما المحمول؟ نفس الرجلين اللذين التقيناهما؟

- نعم؛ شخصان بسيطان ليس في عملهما ما يمتّ للسياسة بصفة. مجرد أنهما كانا أصدقاء لكارمايكل... لقد كان لديه العديد من الأصدقاء.

- لا بد أنه كان رجلاً رائعاً جداً. إنني أسفة لموته.

- سموت جميعاً يوماً ما. وقد كان من شأن كارمايكل أن يحسن بالرضا وهو يعلم أن إيمانه وشجاعته قد ساهما مساهمة لا أعرف أحداً ساهم بمثلها لإتقاد هذا العالم العجوز الحزين من هجمة جديدة لليوس وإراقة الدماء.

قالت فكتوريا وهي غارقة في التأمل: من الغريب أن يكون ريتشارد محتفظاً بنصف السر وأكون أنا محتفظة بالنصف الآخر. يكاد الأمر يبدو كما لو أن...

أكمل داكين عبارتها وهو يرمش بعينه: كما لو أن ذلك كان بتقدير مقصود. وهل لي أن أسأل عما تنوين فعله الآن؟

- سأضطر للعثور على وظيفة... عليّ أن أبدأ البحث.

قال: "لا تبحني عنها كثيراً؛ إذ أنني أحسب أن وظيفة مستأني إليك". ثم ابتعد قليلاً بلطف ليرتك المجال لريتشارد ببيكر.

قال ريتشارد: اسمعيني يا فكتوريا... لن تستطيع فينيسيا سافيل الحضور في نهاية المطاف؛ إذ يبدو أنها قد أصيبت بالكاف. وقد كنت مفيدة جداً في موقع التفتيش. هل تحبين العودة إليه؟ ولكن

نظرت إليه فكتوريا بشات وقالت: لست مهتمة به على الإطلاق. لقد كنت مجرد مغفلة سخيقة، وكان ما أحسسته تجاهه مجرد افتتان مُراهقةٍ بمثل أعلى لها... تصورت نفسي جوليت وغير ذلك من السخافات النافهة. عندما أُجِبُّ في المرة القادمة لن يكون الشكل هو ما يجذبني. سأحب رجلاً حقيقياً... وليس ذلك الذي يشكّ أذان المرأة بالكلام المعسول. لن أهتم إذا كان أصلع أو كان يضع نظارات. أريده أن يكون مثيراً لاهتمامي...

سألها داكين: في نحو الخامسة والثلاثين أم الخامسة والخمسين؟

نظرت فكتوريا إليه وقالت: آه، الخامسة والثلاثين.

- لقد أرحمتي؛ فقد ظننتُ -للحظة- أنك تحببيني!

ضحكت فكتوريا وقالت: أعرف أن عليّ عدم طرح أسئلة... ولكن هل كانت توجد رسالة على ذلك الوشاح بالفعل؟

- كان عليه اسم. إن الحائكات (اللاتي كانت السيدة دوفارج واحدة منهن) كنَّ يَكنُنُ أسماء على منسوجاتهن. كان الوشاح -من جهة- وملاحظة التوصية التي احتفظ بها ريتشارد -من جهة أخرى- نصفين مكنّين كلٍّ للآخر، يعطيان مؤشراً على ما يريده كارمايكل عندما يُجمعان معاً. وقد أعطانا أحدهما اسم الشيخ حسين الزيارة، وأعطانا الآخر -بعد أن عاملناه ببخار اليهود- الكلمات المطلوبة لإقناع الشيخ بتقديم كنزهِ لنا.

- وقد حمل السرُّ في طول البلد وعرضه ذاك الرجلان

أخشى أن العمل هناك لن يكون إلا مقابل مأكلك ومشربك (وربما عودتك إلى إنكلترا فيما بعد... ولكننا ستحدث في ذلك لاحقاً). إن السيدة باونسفوت جوتز ستأتي في الأسبوع القادم. ماذا تقولين؟

صاحبت فكتوريا: آه، هل تريدونني حقاً؟

لسبب ما احمرّ وجه ريتشارد كثيراً، فدارى ذلك بأن سعل ومسح نظارته ثم قال: أظن أننا قد نجدك... مفيدة جداً.

- إنني أحب ذلك.

- في هذه الحالة، من الأفضل أن تجمعي أمتعتك وتعودي إلى الموقع الآن. لا أظنك تريدان البقاء دون سبب في بغداد، أليس كذلك؟

- مطلقاً.

قال الدكتور باونسفوت جوتز: ها أنتِ ذِي -إذن- يا عزيزتي فيرونیکا، لقد انشغل إدوارد بك انشغالاً أذهله عن نفسه، حسناً، حسناً... أرجو أن تجدا غاية السعادة أنتما الاثنين.

قالت فكتوريا متعجبة عندما ابتعد الدكتور باونسفوت جوتز: ما الذي عناء بقوله؟

أجابها ريتشارد: لا شيء. إنك تعرفين طبيعته، إنه... إنه يستبق الأمور قليلاً... ولكن قليلاً جداً.

Chassey